العدد 176
السنة الثامنة عشرة
صيف 2021

مجلة سياسية ثقافية تصدر عن شبكة إعلام الاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political, cultural magazine issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

مدير الإدارة
مغديد صباح
maghdeedsabah@gmail.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

المحتويات

دراسات		٤
- أسس فقه المستقبل عند الخامنئي دراسةٌ نقديةٌ	شوان زنكنة	٥ –١٨
- رؤية العلامة ناصر سبحاني حول حقيقة التوحيد وآثاره	د. عمر عبد العزيز	١٩-٣٠
- العنف والتوظيف السياسي	د. عبد اللطيف ياسين	٣١ - ٤٥
- أدعياء اليهود للمسيحانية في العصـر الإسلامي	د. فرست مرعي	٤٦ - ٧٦
- الخيرية في أمة الوسط	د. دحام الهسنياني	٧٧ - ٨٧
- موجز عن تاريخ فلسطين والقدس	هفال عارف برواري	٨٨ - ٩٩
- عبق الكلمات/ مع النبي يونس عليه السلام	عبدالباقي يوسف	١٠٠- ١٠١
مقالات		١٠٢
- في الذكرى (١٥٢) ليوم الصحافة العراقية	حامد محمد علي	١٠٣ - ١٠٦
- غياب التدافع بين البرامج في العمل الإسلامي..	محمد صادق أمين	١٠٧ - ١١٠
- حديث حول انتحال القرآن من الكتاب المقدس	د. سعد الديوه‌جي	١١١ - ١١٦
- هكذا غنى العقل سمفونية الحداثة...	د. سامي محمود	١١٧ - ١٢١

مرافىء/ إذا اؤتمن.. خان!	د. يحيى عمر ريشاوي	١٢٢
تأملات في سورة /		١٢٣
- تأملات في سورة العصر	صالح شيخو الهسنياني	١٢٤ - ١٣٦
بصراحة/ من أجل نهضة جديدة	صلاح سعيد أمين	١٣٧
ثقافة/		١٣٨
- صورة الإسلام في الإبداع العربي المعاصر	د. مصطفى عطية جمعة	١٣٩ - ١٤٣
آخر الكلام/ أحسن القصص!	محمد واني	١٤٤

دراسات

- أسس فقه المستقبل عند الخامنئي دراسةٌ نقديةٌ	شوان زنكنة
- رؤية العلامة ناصر سبحاني حول حقيقة التوحيد وآثاره	د. عمر عبد العزيز
- العنف والتوظيف السياسي	د. عبد اللطيف ياسين
- أدعياء اليهود للمسيحانية في العصر الإسلامي	د. فرست مرعي
- الخيرية في أمة الوسط	د. دحام الهسنياني
- موجز عن تاريخ فلسطين والقدس	هفال عارف برواري

أسس فقه المستقبل عند الخامنئي
دراسةٌ نقديةٌ

شوان زنكنة
كاتب وباحث- تركيا

مقدمة:

كتبَ الأكاديميُّ اللبنانيُّ حسام مطر مقالاً بعنوان (الإمام الخامنئي: فقهُ المستقبل)، وذلك بتاريخ ٢٠٢٠/٨/٢٦.. تَضمَّنَ المقالُ منهجيّةَ الخامنئي في النظر إلى المستقبل والتعاملَ معه، وحدَّدَ عشرةَ أسسٍ لهذه المنهجيّة، والتي من خلالها يُمكن فهمُ النظام الثوري الإيراني، فهماً حقيقياً وعلى لسان مرشده الأعلى، من دون تأويلٍ أو تخمينٍ أو موقفٍ مسبق.

ولأهمية هذه الأسس العشرة المذكورة في المقال، في إلقاء الضوء على موقع إيران من الصراع الدولي، ودوره في المنطقة، اقتبستُ مقتطفاتٍ من المقال حول هذه الأسس، وقمتُ بدراستها وتحليلها ونقدها نقداً بنّاءاً، وفق معايير الموضوعية والواقعية ومعاينة الواقع والمعايشات الشخصية.

الأسس العشـرة:

في ١٤ تشـــــرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٨، وبالتزامن مع اقتراب الذكرى الأربعين لانتصـار الثورة الإسلامية في إيران، أصدر الخامنئي رسالةً تضمّنت النصَّ الكامل لما يُسمّى (النموذج الإسلامي الإيراني التأسيســـي للتقدّم). الوثيقة هي نِتاجُ سبعة أعوام من الجهود «لآلاف المفكّرين والأسـاتذة الجامعيين والحوزويين والحكماء الشـباب». وجرى الإعلان عن الوثيقة باعتبارها إطاراً مرجعياً للدولة الإيرانية وأجهزتها حتى عام ٢٠٦٥.

وفي ١١ شـباط/ فبراير ٢٠١٩، أصـدر الخامنئي بياناً موجّهاً إلى الشـباب بعنوان (الخطوة الثانية للثورة الإسلامية)، حيث أنهتْ الثورة أربعينيّتها الأولى وستدخل «المرحلة الثانية من البناء الذاتي، وبناء المجتمع، وصـناعة الحضـارة»، وهي «مرحلة العالمية الكبرى»، والتي هي مسؤولية جيل الشباب.

تُتِيحُ مراجعةُ هاتين الوثيقتين المهمّتين فهمَ منهجيّة الخامنئي في النظر إلى المســـتقبل والتعامل معه، وذلك من خلال دراســة ونقد الأســس التي اســتَندتْ عليها هذه المنهجيّة، والتي يُمكن تلخيصها بالآتي:

أولاً: العملُ للمســتقبل تكليفٌ. يَظهر المسـتقبل لدى العديدِ من الاتجاهات الدينية، كأَمرٍ متروكٍ للغيب تماماً، ويجري الانصــراف للتّعامل مع ما هو قائمٌ ومتَحقّقٌ، مع الرهان على نُبوءاتٍ أو (وُعودٍ غيبية)، تَتَكفّل هي بتحديد شكل المستقبل. بينما يرى الخامنئي أن بناء مســتقبل الثورة الإســلامية، والأمة الإيرانية، يجبُ أن يحتَكمَ إلى عقلانية تامّة في فهم التحولات العالمية في كافة المجالات، وإلى قيادة الحاضـــر بالنظر إلى مستقبل على بُعد ٥٠ عاماً.. وهنا يَجمع الخامنئي بين المؤشّـرات الكميّة والنوعيّة في تَشخيص الأهداف. أما كميّاً، فهو يرى أنه ينبغي أن تَصــبحَ إيران عام ٢٠٦٥ من الدول الخمس الأولى في الإنتاج المعرفي عالمياً، وتمتلك واحداً من الاقتصادات العشـــرة الأولى في العالم، والدولة السابعة عالمياً من حيث التقدّم العام والعدالة. وأما نوعيّاً، فهو يرى أن الشـــعب الإيراني ســـيتمتّع «بالأمان والسكينة والطُمأنينة والراحة والسلامة والأمل بالحياة في أعلى المستويات في العالم».

النقد: أصابَ الخامنئي حينما تَصوّرَ العملَ للمستقبل تكليفاً، وليس أمراً متروكاً للغيب، فالتّواكُلُ وعدمُ اسـتقراءِ الأحداثِ، والتخطيطِ للمسـتقبل بموجبِه، يعني تركُ إدارة شـؤون المنطقة إلى اللاعبين الآخرين الذين يديرون دفّةَ الصّـراع على النفوذ في العالم.

ويبدُو أن النظام الإيراني لديه مخطّطٌ واضحٌ، ومشـــروعٌ استراتيجيٌّ، وهدفٌ يسعى إلى تحقيقه خلال فترة زمنية محدّدة.. وهذا ما يُمَيِّزه عن الأنظمة العربية والإســـلامية الأخرى التي حرمت نفسها من هذا المنظور.

ولكن.. يبدُو في الوقت نفسـه أن ممارسـةَ هذا التكليفِ وفقَ ما تَصـوّرَه الخامنئي، أمرٌ في غاية الصعوبة، لوجود هُوّةٍ سحيقةٍ بين النظريّة والتطبيق، ولِنُدرة المال اللازم، ولِحصـــرِ

الأنشـــطة العلمية التكنولوجية في المجال العســـكري والنّووي، ولِفقدان مُقوّمات الأمن والعدالة والتنمية، مما جعل نسبةً عاليةً من الإيرانيين يعانون من الفقر والكَبْت السياسـي والفكري.

والســـؤال الوجيه هنا هو: هل فقهُ المســـتقبل هذا، والتخطيطُ له، نابعٌ عن الفكرِ الشـــيعي الثوري للنظام الإيراني، والقائمِ على تهيئَةِ الأرضـــيّة لِظُهور المَهديّ المنتَظَر(الإمام الثاني عشر)؟ أم هو نتاجُ الدور السياسي الذي رسمه له لاعبو النظام العالمي الجديد، والذي وجد نفسه فيه؟

أم هو خلاصة خبرة الصـــراع على النفوذ الذي يمارسه النظام الإيراني منذ ٤٠ سنة؟ أم هو جملة الأسباب هذه مجتمعة ؟ ..

ولكنني أعتقدُ، مع هذا كلِّه، أن النظام الثوري الإيراني لا يُمارس فقه المســتقبل وفق ما يتصـــوّره الخامنئي، إلّا ليحفظَ كيانَه ويضـــمنَ ديمومتَه ويحتفظ بقاعدته الشـــعبية، بغض النظر عمّا إذا كان هذا التصـــوّر يحقّق أحلام الخامنئي بخصـــوص المؤشـــــرات الكميّة والنوعيّة، أم لا.!

ثانياً: الثورةُ متجدّدةٌ، ولـــذا، فمسؤوليةُ الشباب «البلوغ بالثورة هدفها النهائي بقيام حضـارة إسـلامية حديثة». فينقلُ بذلك الخامنئي المسـؤوليةَ إلى جيلِ ما بعد الثورة، مانحاً إياه الدور والاعتراف، وهو ما يساعد على تفادي احتمال (احتكار) جيل الثورة للتجربة، ثم خنقها بالركود، كما عانى الكثيرُ من التجارب السياسية حول العالم، حيث يرتبطُ مصيرُ الثورة ومستقبلها بالقدرة على اجتذاب كتلة من الشباب الإيراني إلى مشـروعها.

وحول هذه الكتلة، يدور الصـــــراع الثقافي الأشـــــرس بين الولايات المتحدة والثورة الإسلامية في إيران. ولذا، بدل أن تكون هذه الشـــريحة مجرّدَ ساحةٍ للصـــــراع، يحوّلها الخامنئي - بمقاربته - إلى طرف في الصـــــراع، وفق هدف مشـخّص، أي: إقامة الحضـارة الإسلامية. فالثورة «جعلت الشباب اللاعبين الأصليين في الأحداث، وأدخلتهم ميدان الإدارة».

النقد: نعم.. يُركّز النظام الثوري الإيراني، وعلى رأسه الخامنئي، ومنذ نشأة الثورة، على الشباب ودورهم الفاعل في عملية تنمية الأمم، فاتّخذ كافةِ الوسائل لتحشيده حول الثورة ونظامِها الســـياسي، ليس لقيادةِ الثورة وتبادلِ المواقع مع قادتها المُؤسِّـــســـين، كما يحلو للخامنئي أن يدّعي، وإنما ليكون حطبَها في النارِ التي أشعلتها في المنطقة.

فلا زالتْ المواقعُ القياديّة في هذا النظام الثوري، ومفاصـــل دولته التي أنشـــأها، بيد النخبة المؤسِّسَة الهَرِمة، ولم تَتنَحَّ - طواعيةً أو كَرهاً - عن مواقعها للشباب، ولن تفعل، بل ولن يخطُر ذلك على بالها أصلاً.

ولا يشـــغل الشـــباب، في ظل هذا النظام الثوري، إلا المواقع القتالية في الأجهزة الأمنية الثورية؛ كالبســـيج، والحرس الثوري، وغيرها، كرأس حربة لحماية الثورة والذَّودِ عنها. ولهذا

فقدت الثورة الكثير من بريقِها لدى شـــريحةٍ ملموسةٍ من الشباب الإيراني.. والى هذا أشار الخامنئي من أنّ الصـــراعَ الثقافيَّ الأشـــرسَ بين الولايات المتحدة الأمريكية والثورة الإيرانية يدور حول اجتذاب كتلة الشباب الإيراني.

وتجدر الإشارة هنا الى أن شـــــريحةً واسعةً من الشباب الإيراني لا زال النظامُ الثوري مُســـتحوِذاً عليها، إما مصـــلحةً؛ بســـبب ارتباطها الوظيفي، أو قناعةً بتلك المعتقدات التي يروج لها النظام بمناسبة أو بدون مناسبة، بُغية سوقِها لتحقيق أهدافه السياسية والأمنية.

ثالثاً: الحضـارةُ الإسـلاميةُ هي البَوصَـلةُ. منذ انتصارها كانت الثورة الإسلامية تجدُ في التّمهيد لِظُهور الإمام الثاني عشـــر (المهديّ المُنتَظر) غايةَ قيامِها، وفي تَحقّق الظهور مُنتهى الآمال ونهايةَ التاريخ. إلّا أنّه في الســـنوات الأخيرة، حدّدَ الخامنئي وَجهاً ســـياســـياً لفكرة التّمهيد، قابلاً للتّشـــخِيص، ومُنســـجِماً مع طبيعة النظام العالميّ، الذي يشـــهد صـــعوداً للحضارات الكبرى. ففي عام ٢٠١٨، رأى الخامنئي أنّ «الثورة لا تنتهي بتأسيس النظام، بل بالحضارة الإسلامية، ولذا هي لا تنتهي أبداً ومُتواصلة على الدوام».

وقيامُ الحضارة الإسلامية العالمية، هو المرحلة الأخيرة التي تَلي قيامَ الثورة الإسلامية، ثم النظام الإسلامي، ثم الدولة الإسلامية، ثم المجتمع الإسلامي، ثم الأمة الإسلامية، وبها تقوم الحضارة الإسلامية.

إذاً، وبحسبِ فكر الخامنئي، فإن تحقيق الحضارة الإسلامية العالمية، هو الهدف المُوجّه ومعيار النجاح والإطار العام للثورة الإســـلامية. وهذه الحضـــارة المأمولة تكون بمثابة «النموذج المُمَهِّد» الجاذِب في عصـــــر غيبة المعصوم، الذي يَظهرُ ليُقيم الحضارة الكونية للإسلام.

التنافس في عالم اليوم قائمٌ على النموذج والجاذبية، بالتزامن مع صـــعود الهويات الثقافية، والنّزَعات القومية، التي تســـتند إلى تاريخ الأمم المُتخيّل ورموزها وتطلّعاتها. من هذا المناخ الدولي، تنطلق أطروحة «الحضارة الإسلامية العالمية»، طامحةً لنيل الاعتراف في تشكيلِ العالم الجديد، والمساهمةِ فيه، على قدم المساواة.

وتَســـتندُ هذه الأطروحةُ إلى ثقة أصـــحابها بالمخزون الإســـلامي القِيَميّ والأخلاقي والمعنوي، وإلى قابلياتها للتقدّم المادي، وإلى أن عالم اليوم يمرّ بلحظةِ فراغٍ نســـبيّ، حيث يُمكن للحضـــارات خارج المادية الغربية أن تَحجزَ لها دوراً، أو ربما أَن تُشـــكّل بديلاً، كما يطمحُ أنصار مشـروع الحضارة الإسلامية.

وتذكرُ الوثائقُ موضع البحث، أنّه ينبغي «أن تصبحَ إيران نموذجاً تامّاً للنظام الإسلامي المتقدِّم». من هنا، يمكن اسـتخلاص الآتي: في المراحل الأربع الأولى (الثورة، والنظام، والدولة، والمجتمع) تتَحوّل إيران إلى النموذج الإسلامي للتقدّم (لطالما جادلَ أنصار الثورة الإسلامية مراراً بأن فكرة «تصـــدير الثورة» تقومُ على بناء نموذجٍ مُلهِمٍ، وليس التوسّـــع العســـكري)،

الذي يُلهِم دولاً إسـلاميةً أخرى، فتتحقّق المرحلة الخامسـة (ربما هذا ما كان يطمح له الخامنئي في مقولة «الصحوة الإسلامية»)، وحينها ينهضُ نموذج الحضارة الإسلامية العالمية كمشـروع إسلامي مشترك متعدّد الأطراف، وليس بأحادية إيرانية.

النقد: يرى الخامنئي أن الهدفَ النهائي للثورة هو إنشـاء الحضـارة الإسـلامية، وهي البوصلة التي يجب أن يسترشد بها النظام الثوري الإيراني، وهو بذلك يُؤكّد ما يلي:

١- أن الثورة الإسـلامية تجد في التّمهيد لظُهور الإمام الثاني عشـر (المَهديّ المنتَظر) غايةَ قيامِها، وفي تَحقُّق الظهور منتهى الآمال، ونهاية التاريخ. وبالتالي، فلا بد للثورة أن تُهيّئَ الأرضـيّة لظُهور المهديّ المزعوم، وفق فقه المسـتقبل للخامنئي ومخطّطاته.

وليس هذا الفكر ببعيد عن فكرة ظُهور المَسِـيح المُنقِذ لدى كلٍّ من البروتسـتانتية الإنجيلية الأمريكية، والصهيونية المُتديِّنة، والرَّهبنة اليَسوعيّة، التي تسعى لِتهيئة الأرضية لظهور مَسيحٍ مُنقِذٍ مزعومٍ، وذلك من خلال تأسيس دولة إسرائيل وعاصمتها القدس، حيث يظهر فيها المَسـيح المُنقِذ، كما تدّعي هذه المعتقدات.. علماً أنّ هذه العقائد تُؤكِّدُ أن المَسِيحَ المُنقِذ ليس هو النَّبيُّ عيسى عليه السلام.

٢ - الحضارة الإسلامية المأمولة هي "النموذج المُمَهِّد" الجاذِب، في عصر غيبة المعصوم، الذي يظهر ليقيم الحضارة الكونية للإسلام. بمعنى: إن تأسيس الدولة الشيعية العالمية هو المُمهّد والجاذِب لظهور المهديّ المزعوم، الذي سـيقود العالم، كما يدّعي الخامنئي، لذلك لا بد من السّعي لتأسيس هذه الدولة الشيعية العالمية.

٣ - إن التنافس في عالم اليوم قائمٌ على النموذج والجاذبية، بالتزامن مع صعود الهويات الثقافية والنّزعات القومية.. النموذج القومي المسـنود بالجاذبية العقائدية، وهو في النموذج الإيراني يعني: الفارسـيّةُ المُتشَـيِّعةُ.. ويقابله النموذج الأمريكي المُتمثّل بالقومية (الوطنية الأمريكية) والبروتسـتانتية الإنجيلية، والنموذج الإسرائيلي المتمثّل بالصـهيونية المُتديّنة (اليهودية)، والنموذج الأوروبي المتمثّل بروح الوحدة الأوروبية والرّهبَنة اليَسوعيّة (الفاتيكان)، والنموذج الروسي المتمثّل بالقومية الروسـية (القيصـرية) الأرثوذوكسـية، والنموذج الصـيني المتمثّل بالقومية الصـينية (الإمبراطورية الهانيّة الصـينية) والمُعتقد الشـيوعي الماوي، والنموذج التركي المتمثّل بالقومية التركية العثمانية (السـلطنة العثمانية) والإسلام السنّي.

في خِضَمِّ صـراعات القوى القومية - العقائدية العالمية هذه، يسعى الخامنئي ونظامه الفارسي المُتشيّع، أن يجد لنفسه مَوطِئَ قدمٍ في النظام العالمي الجديد المُزمَع تشكيلُه.

٤ - إن فكرة (تصدير الثورة)، التي تَقومُ على بناء نموذج مُلهِم، وليس التوسّع العسكري، جاءت مع بدايات الثورة الإيرانية، إلّا أن الثورة لم تستطع أن تُلهِم المسلمين، شعوباً كانوا أو أنظمة، لأسباب كثيرة يضيق المكان هنا عن ذكرها، فاستخدَمَتْ آلتَها العسكريّة المتمثِّلة

بشباب البسيج والحرس الثوري للتوسّع في العراق وسوريا ولبنان واليمن، وبدعمٍ صـــريحٍ من القوى المُتصارِعة الأُخرى.. هذا الدعم يُؤكِّدُ اعترافَ هذه القوى بالنظام الثوري الفارسيّ المُتشيِّع كقوةٍ إقليميةٍ فاعِلةٍ تُؤدّي مُهمّةً مَرسومَةً في إطار النظام العالمي الجديد.

رابعاً: التنافسُ والتّعاونُ بدلَ الصّــراع. إنّ أطروحة الحضارة الإسلامية، كما يبدو من سياقها، تقومُ على مبدأ تنافس الحضارات لا صـــراعها، وعلى التأثير وليس الحرب. فيذكر الخامنئي (٢٠١٦) أنّ «الحضــارة الإســلامية لا تعني فتح البلدان، بل تعني تَأثُّرُ الشــعوب فكرياً بالإسـلام». فعالَم اليوم لا يشـبه البتّة عالَمَ (الخلفاء الراشـدين)، فالتوسّـع العسـكري ليس متاحاً وليس مسـتداماً، بل هو عالَمٌ تختصـــــره إلى حدّ ما مقولةُ (جوزيف ناي): «الأقوى اليوم هو صاحب القصة الأفضل».

وتستفيد أطروحة الحضارة الإسلامية من صعود الحضارات الشـــرقية في الصين والهند وروسـيا، وهي جميعها لديها الكثير من المصـالح والمشـتركات للتعاون مع العالم الإسـلامي؛ من الطاقة إلى الجيوبولتيك، ثم الاقتصاد والتنمية، وصولاً إلى الثقافة الآسيوية.

وبما أنّ مرحلة ما قبل الحضـارة الإسـلامية، هي مرحلة قيام الأمة الإسـلامية التي تجمع الدول الإســلامية، وهي بطبيعة الحال لن تكون شــيعيةً في معظمها، يمكن الاســتنتاج أنّ الإمام الخامنئي يرى في هذه الأطروحة جســـراً بين المذاهب الإسلامية، وعنواناً للتضامن والهوية المشــتركة. أنْ ينظرَ المســلمون إلى أنفســهم من منظارٍ حضــاريٍّ ودورٍ عالميّ قد يســاعدهم على تجاوز أو إدارة خلافاتهم، واســتيعاب توترات المصـالح القومية بين دولهم الكبرى، ثم إنتاج هوية مشتركة.

النقد: يرى الخامنئي أنّ أطروحة الحضـارة الإسـلامية كما يبدو من سـياقها، تقومُ على مبدأ تنافس الحضاراتِ لا صــراعها، وعلى التأثير وليس الحرب، ويبدو أن الخامنئي يتغافل عن أن صـراعَ نظامِه مع الأطراف الأخرى ليس صـراعَ حضارات، فالحضارةُ الفارسيّة بلباسِها الشـيعيّ ليسـت مُنافِسـة لأحدٍ في المنظور الغربي، بل هي مرغوبٌ فيها ومعترفٌ بها، وإنما هو صـــراعٌ على النفوذ في المنطقة، وأن الأطراف المتصارِعة الأخرى لا تقبل منها تَمدُّداً أو تَوسُّعاً أكثرَ ممّا هو مرسومٌ لها .

مقولةُ "إن الصّــراع قائمٌ على التّأثير وليس الحرب" يمارسُها النظام الثوري الإيراني بكلِّ كفاءةٍ مع القوى الغربية المُتصارِعة معها، فهو يستخدم كافةَ الوسائل لتثبيتِ مَوطِئ قدمٍ له في بُؤَر الصّــراع، في حين أن القوى الغربية تمارس ضغوطها عليه لمنعه من تكبير حجمه، كلّ ذلك من دون خَوضِ حربٍ عسـكريّة سـاخنة. ويبدو أن هذه المقولة هي السـبب في حفظ هذا التوازن. والسؤال هو: إلى متى يمكن للنظام الثوري أن يحفظ هذا التوازن؟

ولكننا نرى أنّ مفهومَ هذه المقولة، لا يسـري على المذهب السنّي المنافِس له.. فالنظام الثوري الشـيعيّ فضَّـل اسـتخدامَ القوة والحرب والقتل والتشـــريد على اسـتخدام التّأثير

السّـلميّ الناعِم معه، ففتحَ بذلك هُوَّةً سـحيقةً بينه وبين أهل السـنّة في إيران، وفي العالم، مما جعل بلوغَ الثورة للمرحلة الخامسـة أمراً مسـتحيلاً، إن لم نَقُل أن المراحل القادمة المرسومة للثورة صعبة التحقيق أيضاً .

خامساً: الواقعيةُ والأملُ. النظرةُ إلى المستقبل لدى الخامنئي تنطلق من فهم الأهداف والمنجزات ومواقع القوة وأوجه القصـور، والإيمان بـالقـدرة على التّغيير، والرّهـان على الشـباب، والحفاظ على التوازن، ثم الحافزية. فحين يُحدّد الخامنئي الأهداف المسـتقبلية يستند إلى قاعدتين :

(1)يُدرك ويعترف بما تحقّق سـابقاً للبناء عليه، محذّراً من سـعي الأعداء إلى توهين المنجزات وزرع الإحباط، عبر تضـخيم العيوب وإنكار الإيجابيات وقلب الحقائق. فالنظرة المتفائِلة إلى المسـتقبل تَسـتند إلى «الأمل الصـادق المُعتمِد على الوقائع الخارجية»، وهذه النظرة هي في مقابل اليأس في غير مَحلّه، والخوف الكاذب .

(2)يُقيِّم بشـفافية وشـجاعة أوجه النقص والقصـور بما يُعين على شـحذ الهِمم، وتحمّل المسـؤوليات، وتصـويب المسـارات، وأن الثورة سـتواصـل التزامها الحاسـم بالقِيَم، إلّا أنّها «تُبدي الحساسية الإيجابية حيال النقد وتُعدّه نعمةً من الله»، وهي «مستعدّة لتصحيح أخطائها». وهنا، تشتمل وثيقة التقدّم على هدف مَفادُه تعزيز أجواء الحرية الفكرية، من أجل التقويم والنقد العلمي للسياسات والمسارات .

النقد: يرى الخامنئي أن تحقيق الأهداف المسـتقبلية يقومُ على ما تَحقَّق من منجزات من جهة، وعلى الجسارة في تشخيص القصور والنقص بكل شفافية، من جهة أخرى. وكذلك يرى ضـرورة تعزيز أجواء حرية النقد البنّاء للسياسات والمسارات.

هذه المثالية في تَقييم الواقع ورسـم المسـتقبل، تصـطدم بواقع مَرير تعيشـه إيران، فقد صَـفّى النظام الثوري منتقديه مهما كانوا مخلصـين، من أبي الحسـن بني صـدر، وحتى أحمدي نجاد. أما المنتقدون من أفراد الشـعب، فتهمهم جاهزة: جاسـوس أمريكي، أو إسـرائيلي.

المسار السياسي في ايران هو نفس المسار المرسوم منذ ٤٠ سنة، لم يَتغيّر رغم الانتقادات الكثيرة، ورغم الأنشـطة الإصـلاحية التي حاولت ممارسـة حقوقها في التعبير، فكان نصـيبها السجن والحَجز والكَبت ، بل والقتل والتّهجير.

المسار السياسي الإيراني يعاني من انفصام في الشخصية.. فهو يصف نفسه بالديمقراطية والواقعية، ويحدوه الأملُ بمستقبل تسوده أجواء العدالة والحرية، ولكنه في نفس الوقت لا يسـتطيع أن يَتحَمَّل نقداً من أي طرف كان، ولأي سـببٍ كان، هذا المسـار صـنع من نفسـه صنماً مقدّساً، يرى من خلاله كل الأصوات الناقدة مؤامرات أمريكية صهيونية.

سادساً: مركزيةُ العدالةُ. يؤكّد مرشد الثورة أنّ العدالة «في قائمة الأهداف الأولى لبعثة الأنبياء»، وهي فريضة على الجميع؛ حكّاماً ومحكومين. ولِمَا للعدالةِ من أصالةٍ وأثرٍ، يُشير الإمام في أكثر من موقع إلى عدم رضاهُ عن فعالية العدالة في البلاد، «لكون القيمة السامية للعدالة يجب أن تَتألّق كجوهرة فريدة على جبين نظام الجمهورية الإسلامية، وهو ما لم يحصل بعد». ويُؤكّد الخامنئي، بوجه خاصٍ، على العدالة الاجتماعية، ويرى أنه «يوجد بون شاسعٌ بين ما تم إنجازه حتى الآن، وما كان ينبغي أن يُنجَز. هذا الحرص على مسألة العدالة ينسجم مع ما توصّلت إليه الدراسات عن التداعيات الكارثية لغيابها، ولتزايد التباينات والفوارق، على صُعُدِ الاستقرار السياسي والاجتماعي والنفسي، بل والصحة الجسدية للمواطنين. و يُحذّر الخامنئي من الفساد السياسي، ويُوصي بأن يصبح اختيار المسؤولين والمديرين على أساس التزامهم العمَليّ بِحدّ كفاف العيش، واهتمامهم بِنَهج العدالة والنّزاهة والصدق والثقة والتضحية والمُساءَلة، مع تحديد ضوابط عادلة وشفافة في ما يخُصّ دخل وثروة ومصدر رزق المسؤولين السياسيين.

وتشير وثيقة التقدّم إلى غاياتٍ مستقبليةٍ لأوجهٍ مختلفةٍ من العدالة، ومنها تحقيق العدالة الضريبية، وتقليص التباينات الاجتماعية. وفي سبيل ذلك، ينبغي التخلّص من القروض الربوية، ومنح توزيع عادل للمال في النظام المصرفي، وتوفير العدالة بين الأجيال في الاستفادة من الموارد الطبيعية، فلا يجري استنزافها لصالح الجيل الحالي، والتوزيع العادل للموارد الصحية. وهنا، يبدو أنّ الوثيقة تدرك أنّ النمو لا معنى له من دون عدالة توزيعية، فقد يحصل النمو ولكن تتساقط ثماره على جيل مُحدَّد أو قطاع بعينه أو جماعة بذاتها. ولا تغيب عن الوثائق قضايا الحرية الاجتماعية، والحرية المَسؤولة، والحرية الفكرية، والهوية الفردية، فتحقيق العدالة لا يضعها الخامنئي في مقابل الحرية ولا العكس، كما تفعل مدارس فكرية مُهيمِنة في عالم اليوم.

النقد: يُؤكّد الخامنئي على ضرورة تحقيق العدالة على الجميع حكّاماً ومَحكومين، وأن هناك قصوراً واضحاً في تطبيق العدالة؛ بكل صُوَرها الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية، في ظل النظام الإسلامي الثوري. كما ويؤكّد على العدالة السياسية، ويحذّر من الفساد الإداري والسياسي، ويدعو إلى النزاهة.

هذه العبارات البرّاقة، لو صدرت عن جهةٍ معارضةٍ، تكون مَفهومَة المعنى والمغزى، ولكن أن تصدر عن أعلى سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية إيرانية، فهذا ما لا يمكن تَصوُّرُه.. ذلك أنّ الجهة المعنية بالتصحيح والتقويم وفرض العدالة هو المرشد الأعلى!!. فمن يمنع الخامنئي من تحقيق العدالة في البلاد؟. وهل تشخيص المشكلة فقط، دون فرض حلولها، يُعفِي المرشد الأعلى من تَحَمُّلِ مسؤوليته في تصحيح المسار العدلي، وأداء وظيفته الدينية والسياسية؟!

والســـؤال الوجيه هنا: هل هذه العبارات للاســـتهلاك المحلي، أم أن الخامنئي عاجزٌ بالفعل عن تصحيح المسار العدلي في إيران؟!. وهذا يعني بالتالي: أن مراكز القوى في إيران هي الحاكم الفعلي للبلاد، وليس المرشـد الأعلى.. ومعادلة: "حاكمية المرشـد الأعلى - مراكز القوى" عَصِيّة على الفهم، وتحتاج تفصيلاً، ليس المقال هذا مقامه.

سـابعاً: الاقتصـاد المقاوِمُ. الاقتصـاد في فكر الخامنئي هو «قضـية مفتاحية ومصـيرية، وهو وسـيلة المجتمع الإسـلامي». ومقوّمات الاقتصـاد المقاوِم، هي جودة الإنتاج، والتوزيع العادل، والاستهلاك المتوازِن (بعكس النمط الرأسمالي الغربي)، والإدارة العقلانية، ومِحوريّة العلم (ومنها تطوير العلوم المتعددة التخصُّـصـات، وزيادة الدعم لإنتاج العلوم، وتطوير شـبكات العلوم والتكنولوجيا والابتكار)، وريادة الأعمال، لا سـيما القائمة على المعرفة، والاستثمار في القدرات البشـرية الوطنية، وأن لا ينحصـر الاقتصاد بالقطاع الحكومي، بل يشـمل المبادرات الخاصـة والقطاع الخاص والأهلي، مع التأكيد "على الحفاظ على حقوق الملكية العامة لهذه الموارد والثروة".

هذا الاقتصاد ينبغي أن تستقل فيه الموازنة عن عائدات الموارد الطبيعية والثروة العامة (النفط الخام تحديداً)، بما يجعل إيران أكثر مناعةً وحصـانةً تجاه ضـغوط العقوبات الأميركية، ويعزّز من استقلال الإيرانيين.

ومسـتمرّاً في منهج المكاشـفة كقيمة بذاتها، ولتصـويب الخيارات، يؤكّد الخامنئي أنّ الحلول للأزمة الاقتصادية متاحة كلّها داخل البلاد، وليس صحيحاً «أنّ المشكلات الاقتصادية ناجمة فقط عن الحظر، وأنّ سـبب الحظر هو المقاومة ضـد الاسـتكبار، وعدم الاسـتسـلام أمام العدو»، لأنّه حينها يصبح الحل «هو الركوع أمام العدو، وتقبيل يد الذئب".

النقد: يذكرُ الخامنئي مصـطلح (الاقتصـاد المقاوم)، وهو الاقتصـاد الموازي لاقتصـاد النفط. وهو مُحِقٌّ في تشخِيص هذا الشـــريان المهم، بغض النظر عن تفاصيل تشخيصه هذا.

ويؤكّد أن الحلول الاقتصـادية مُتاحَةٌ داخل إيران، وأن الحظر الاقتصـادي الأمريكي ليس وحده سبباً للمشكلات الاقتصادية.

كلُّ ذلك يُمكن أن يكون له نصيبٌ من الحقيقة والصواب، ولكن المشكلة تكمُن في:

*ضعف قدرة الاقتصاد اللانفطي الإيراني على الإنتاج وتوليد الموارد الكافية للمقاومة.

*النفقات الأمنية والعسكرية الباهضة لأذرع إيران الخارجية.

*الإنفاق العسكري في المجالات النوويّة، وإنتاج الصواريخ البالستية.

*سوء إدارة الاقتصاد اللانفطي، بسبب سيطرة الحرس الثوري على معظم منشآته.

*الفساد الإداري والمالي المستشري في مؤسسات الدولة الاقتصادية.

*ضعف قدرة العملة الإيرانية على مقاومة الضغوط السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية، وفقدها المستمر لقيمتها النقدية.

*الفقر والبطالة المتفشية، وعدم كفاءة الخدمات في كافة المجالات.

كلُّ ذلك، بالإضافة الى الحصار المفروض عليها، يجعل مفهوم (الاقتصاد المقاوم) فارغاً من محتواه.. وما تَبجُّحُ النظام الثوري بـــ(الاقتصاد المقاوم) إلا بسبب استخفافه بالمواطن، واعتباره أداةً جاهزة للتضحيةَ من أجل تحقيق أهدافه، ليس إلّا!. ذلك أن الطرف الأساسي المُتضرِّر حتى النُّخاع هو المواطن الإيراني، وليس النظام الثوري.

ثامناً: الثّنائياتُ المتوازنةُ. يدعو الخامنئي إلى التنظير لعدم تعارض الثُّنائِيّات، مثل: العلم والدِّين "فالعلم مصـــدر للعزة والقوة، والســـير فيه بمثابة (عمل جهادي) من دون استغلاله كما في فعل الغرب"، والتقدّم والعدالة، والهوية الإيرانية والإسلامية.

من هذا الموقف، يبدو أنّ الخامنئي يُدرِك، من موقع قيادته للدولة الإيرانية وثورتها ومشـــروعها الإسلامي والتحرّري، أنّه لا يُمكِن للفكر الأحادي أن يحمل مشـــروعاً متوازناً قـادراً على التقـدّم، وأنّ هـذا الفكر مصـــيره التطرّف والإخفـاق، والغرق في مجـاهـل الاستقطابات والصّراعات البَينيّة العَبثيّة.

من هنا، تَتضـمّنُ الوثيقتان دعوات إلى «مُعاصَـــــرةٍ لا تُفَرّط بالأصالة»؛ وإلى سعادة مصـــدرها الهداية الإلهية والرشـــد العقلاني، وإلى الالتزام بالمبادئ من دون إنكار الظروف والظواهر المُتجدّدة؛ وإلى أن يكون مفهوم التقدّم ليس منحصِـــراً بالمادة، بل يشتمل على الاهتمام بالأخلاق والقِيَم والفضائل؛ وإلى تكامل الثورة والنظام في «نظرية النظام الثوري»، حيث الثورة هي التي تصنع النظام وتمنحه مشـــروعيته، من دون أن يتحوّل إلى قيد عليها، بحيث «لم ولن تُصـــاب بالركود والخَوَل والانطفاء»؛ وإلى أنّ قيام الحضـــارة الإســـلامية له عُمدتان: الأصول والقِيَم والتعاليم الإسلامية، والعقل والمعرفة البشـــرية؛ وإلى أنّ ضـــرورة المجتمع لا تنفي الهوية الفردية والاختيار الشخصـــي ومسؤولية أعضاء المجتمع. كما أنّ هذا المنهج في الثّنائيّات يَتضمّن اقتناعاً بالهوية المُركَّبة، فلا لزوم لأن نكون إما إيرانيين وإما مسـلمين، وإما شـيعة وإما عرباً فقط، بل إنّ الجمع والتنوّع هو أصـل. فقد اسـتند نموذج التقدّم «إلى الرؤية الكونية والأصول الإسلامية وقِيم الثورة الإسلامية، مع مراعاة المُقتضَيات الاجتماعية والمناطِقية والتراث الثقافي لإيران".

كما تشير الوثيقة إلى أنّ رسالة النموذج هي حركة عقلانية ومؤمنة ومنسجِمة مع المُثُل العليا في إيران. وعند الحديث عن تطوير الرموز الإســـلامية الإيرانية يَرِدُ قيدٌ، ألَا وهو: «المحافظة على التنوع الثقافي في عموم البلاد".

النقد: شَــبّهَ الخامنئي (الثّنائية المتوازنة) التي يقصــدها بثنائية العلم والدين، وثنائية التقدم والعدالة، وثنائية المعاصَـــرة والأصالة، وذلك لكي يَستدِلّ بها على صواب مَنظورِه وصدق نظريّته في ثُنائيّةِ "القومية الفارسية والتّدَيّن الشيعيّ" المتوازنة.

فالهويّة المُركَّبة في مَنظور الخامنئي، قائِمة على:" الرّؤية الكونية والأصول الإسلامية وقِيم الثورة الإسلامية، مع مُراعاة المُقتضَيات الاجتماعية والمناطِقيّة والتراث الثقافي لإيران."

ويشــترك النظام الثوري الإيراني في صــفته هذه (الثّنائية المُتوازِنة)، مع كل اللاعبين الفاعلين في عملية الصــراع لرسم مستقبل الشــرق الأوسط للمئوية القادمة.. فكلُّ القوى المُؤثِّرة، يَمتاز بهذا الوصف الثّنائي المتوازِن: (القومية والمُعتقَد)، ومعه النظام الثوري الفارسي الشيعي بالطبع.. ومن هذه الصفة تنطلق هذه القوى المؤثرة في صراعها لرسم نظام عالمي جديد، حيث يسعى كل طرف الى تحقيق مصالحه القومية، في ظل مشــروع عقائدي بعيد المدى، وتحشيد الجماهير له.

تاسعاً: أصالةُ المشاركةُ الشعبية. يبرُز حضورُ الشعب في كل مفاصل الوثيقتين، فهو مخاطَب وشريك وصاحب دور، ومَحطّ الآمال وموضع العناية وركن التمكين. في رسالته عن وثيقة التقدّم، طلبَ الخامنئي من المؤسّســات الإيرانية والجامعات والحوزات وأصــحاب الرأي مراجعة مسودّة الوثيقة لنقاشها، كما طلبَ نشرها عبر الإنترنت، لتكون متاحة لعامة الشعب، وصولاً إلى إقرار النسخة النهائية. ففي نظام ولاية الفقيه، حيث مصدر الشــرعية دينيٌّ، يحضر الشعب بمشروعيته التمكينية، فبدون رضاه لا تَنتفِي شــرعية الحاكم، ولكنّها لا تكون موجودة بالفعل، وهذا ما تختصــره تسمية نظام ولاية الفقيه بأنه نظام «السيادة الشــعبية الدينية». فتنصّ وثيقة التقدّم على أنّ «التقدّم يتحقق بقيادة الوليّ الإلهي، ومشــاركة الشــعب». كما تضــع النّصــوص موضــع البحث هدفاً مســتقبلياً، قوامه: تعزيز المراقبة الرّسـمية والشـعبية والإعلامية على أركان ومكونات النظام، ومنع تداخل المصـالح، والتّصدّي للمفسدين.

النقد: تَتشدَّق الثوراتُ عبر التاريخ بكونها تَستمدُّ وجودها وشــــرعيتها من الشعب، وتدّعي أن الشعب هو المخاطَب والشــــريك وصاحب السيادة والركن الركين.. وهذا هو الحال عند الخامنئي ونظامِه الثوري أيضــاً.. ســوى أنه أضــاف إلى هذه الســيادة بعدها الدّيني، فأوجدَ نظاماً جديداً ســمّاه (نظام الســيادة الشــعبية الدينية)، أو نظام (ولاية الفقيه).

ويتلخَّص مفهوم (ولاية الفقيه) في: أنه في فترة غيبة الإمام الثاني عشــــــر، يقوم أفقهُ فقَهاءِ العصــر، والمُسمَّى بــ(المُجتهِد)، بالولاية السياسية والدينية على المسلمين (الشيعة)، نيابة عن الإمام الغائب.. فيقوم بقيادة الأمة سياسياً ودينياً، وتَهيئَة الأرضيّة لِظُهوره.. وهذا المفهوم ركن من أركان الإيمان عند المؤمنين بولاية الفقيه من الشيعة.

وبهذا المفهوم يَفرِض النظامُ الثوري الإيراني ولايتَه السياسية والدّينية على الشعب، ويَخوضُ في نفس الوقت صراعَه على النفوذ في المنطقة، أملاً في إيجاد مَوطِئ قدمٍ، ينطلقُ منه لِتَهيئَة الأرضيّة لظُهور الإمام الغائب، وفَرضِ الحاكميّة على العالم.

عاشراً: الاستقلالُ والمقاومةُ والمَكانةُ. تبرُز هذه المفاهيم بشكل واضح عند الحديث عن مستقبل السياسة الخارجية الإيرانية. فإيران التي عانت في النصف الأول من القرن الماضي من إذلال القوى الكبرى التي تقاسمت ثروات إيران وسيادتها، تُدرِك أنّها لِمَا يتوافَر لها في الجيوبولتيك والثروات الطبيعية والبشرية والإرث، ستكون دائماً مَحطّ أطماع قوى الهيمنة الكبرى. والأهمّ، أنّ القيادة الثورية الإيرانية تنطلق من تصوّرٍ أنّ إيران لا يمكن أن تكون مستقلّة إلا من خلال دورٍ إقليميٍّ فاعل ونَشِط يُقوّض الهيمنة في المنطقة، وإلّا ستكون تحت تهديد مستمرّ لأمنها ودورها، ولن يكون المسلمون قادرين على الخروج إلى الضوء. وعلى هذا الأساس، تنصّ الوثائق على أنّ العلاقات الدولية لإيران تُخَاض وفقاً لثلاثة مبادئ «العزةُ، والحكمةُ، والمصلحة»، وتؤكّد على الدفاع والردع، وعلى دعم الحركات الإسلامية وحركات التحرّر، واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني. والاستقلال هنا، يُفهم بمعناه الواسع، فيشمل الاستقلال الثقافي كبناء تحتيّ، لا سيما مع الجهود الناعمة لاستهداف المجتمع الإيراني، ولذا يُحذّر الخامنئي من «جهود الغرب لترويج أسلوب الحياة الغربي في إيران»، ويدعو إلى مواجهتها التي "تتطلّب جهداً شاملاً وواعياً تَتسمّر فيه عيون الأمل أيضاً عليكم أيها الشباب".

النقد: يرى النظام الثوري الإيراني أن أمنه الداخلي مقترِن بدوره الإقليمي، وأن استقلال إيران التّام لا يَتحقَّق إلا من خلال دور إقليمي فاعل، فبنى سياسته الخارجية على أساس التواجد الفعلي في بُؤَر الصّراع، والمشاركة الفعلية في رسم النظام العالمي الجديد، ومقاومة مخطّطات تَهميشه وتَحييده، و فَرض الإرادة السياسية والعسكرية.

ويُحاول النظام الثوري أنْ يكون حكيماً في صراعه، مُراعِياً لمصالحه القومية والعقائدية، من خلال التّأثير الناعم (بكلّ الوسائل الهجينة الاقتصادية والسياسية والاستخباراتية والإعلامية والسيبرانية والثقافية)، بعيداً عن خوض حروب أو نزاعات عسكرية مع القوى الفاعلة المُتصارِعة الأخرى.. إلّا أنّ فهم هذا التوازُن تتفاوتُ درجتُه لدى مراكز القوى المُتعدِّدة في ايران، فهناك خلاف شديد بين الخارجية الإيرانية والحرس الثوري (فيلق القدس المسؤول عن العمليات الخارجية) حول أسلوب إدارة دَفّة الصّراع على النفوذ في المنطقة.

والسؤال الوجيه هنا: الى أيّ مدى يستطيعُ هذا النظام الصمودَ في حَلبَة الصّراع من دون أنْ تَتفتَّتَ جبهتُه الداخليةُ، أو يندفِعَ الى حربٍ قد تُؤدّي الى تَحييده أو تهمِيشِه أو حتّى إسقاطه؟.

الخاتمة:

ممّا سبقَ، خَلص المَقالُ إلى ما يلي:

١ -مُمَيّزاتُ النظام الثوري الإيراني:

*إنه نظام يحمِل مشـــروعاً استراتيجياً بعيدَ المدى، ولديه مُخطَّط مرسوم وفقَ أسُس وضـــوابط فقه المســـتقبل.. هذا المخطّط يتكوّن من خمســـة مراحِل، هي: قيامُ الثورة الإســـلامية، ثم النظامُ الإســـلامي، ثم الدولةُ الإســـلامية، ثم المجتمعُ الإســـلامي، ثم الأمةُ الإســـلامية، التي بها تقوم الحضـــارةُ الإســـلامية المُمهّدة لظُهور الإمام الغائب، وتأســـيس الحضارة الكونية للإسلام.

*الشـبابُ هو رأس حربةٍ في هذا النظام، وأداتُه لضَـمان ديمومتِه، لذلك فهو يسـتخدم كافة الوسائل، وبالأخصّ المناسبات الدينية، لِتَحشيده، وجعلِه يدورُ في فلكِه.

*وظيفة النظام هو التّمهِيد لظُهور المهديّ المنتَظر (في المعتقد الشـــيعي)، وتحقيق حاكميته على الأرض.

*فكر (تصـــدير الثورة) تحوّل لدى هذا النظام من حالة التوسّـــع بالتّأثير والإقناع، إلى حالة التوسّع بالحرب واستخدام القوة العسكرية.

*صـــــراع النظام مع القوى الفاعلة في المنطقة، قائم على المنافسة بالتّأثير، وليس على الحرب. بينما يسـتخدم النظام الوسـائل العسـكرية في تَعامله مع منافِسـيه من المسـلمين (السنّة).

*يعاني النظام من انفصـام في الشـخصـية، فواقع إيران المَرير في كافة مَناحِي الحياة لا ينسجم مع ما يدّعيه النظام، وما يَعِدُ به المواطنين.

*(الاقتصـــاد المُقاوِمُ)، رغم ضـــعفِه وهُزالِه، إلّا أنه قادرٌ على الصّـــمود أمام الحصـــار والضـغوط، لأن المواطن الإيراني يدفعُ ضـــــريبة المواجهة وليس النظام.. والذي يَعتقِدُ أنّ الخامنئي سـيَرضَـخُ للعقوبات، ويَسـتسـلِمُ للحصـار، فهو واهِمٌ جدّاً، لأنه ونظامَه في وادٍ والمواطنَ الإيرانيّ في واد آخر.. وادي المُتضـرِّرين من الحصار والعقوبات.

*النظام الثوري، نظام فارسي شيعي، كما أوضحَه الخامنئي.

*النظام الثوري، نظام قائم على عقيدة (ولاية الفقيه)، وهو نظام (السـيادة الشـعبية الدينية)، وهو نظام يقود الشعب نيابة عن الإمام الغائب، وبالتالي فهو نظام معصوم.

*ثلاثية (العزةُ، والحكمةُ، والمصـلحةُ) هي بوصـلة النظام في صـــــراعه على النفوذ في الشـــرق الأوسط. فهو لن يرضَخَ للضّغوط، ويُمسكُ العصا من الوسط مع خصومه، ويَسعى بِجدٍّ الى تحقيق مصـــالحه القومية والعقائدية بلا تردُّد. ولهذا، فليس من الغَرابَة أن نرى هذا النظام يتعاونُ مع مَنْ يُسـمِّيهم بالأعداء، وهو في الوقت نفسـه يتآمرُ عليه، وأن نرى منه ظاهراً مُزمجِراً مُهدِّداً مُتوعِّداً، وباطناً مُسالِماً مُسايراً مُتوافِقاً.

٢ -تشـتركُ كلُّ القوى المتصـارِعة والفاعِلة في حلَبة النّزاع على النفوذ في العالم، في أنّ كلَّ قوة منها تُمثِّل تيّاراً ثُنائيَّ الأبعاد: القومية (الوطنية) والمُعتقَد.

٣ -لدى كلّ قوة ثُنائيّة الأبعاد مشــروعٌ بعيدُ المدى، يسعى إلى تحقيقه، والمشــروع قد يكون تَمهيدا لظُهور مهديّ، أو مَسيح مُنقِذ، أو لتأسيسِ إمبراطورية.

٤ -تقاطُعاتُ المصـالح القومية، وتناقُضَـاتُ المُعتقدات، مشـهدٌ عاشَـتْه البشـــــريّة قبلَ حوالي مئة عام.. قبلَ الحرب العالمية الأولى.. وسـوف يَتكرَّر هذا الحدثُ مرّة أخرى، ولنفس الأسباب، إنْ عاجلاً أو آجلاً، والقوي سيَرسُم مستقبلَ العالَم ويَفرِضُه على طاولة المُفاوَضات، سلماً أو حرباً❐

رؤية العلامة ناصر سبحاني
حول حقيقة التوحيد وآثاره، والشرك وأنواعه

(الحلقة ٩)

د. عمر عبد العزيز

أهمية التوحيد للإنسان في تصور العلامة سبحاني:

✍ اهتم سبحاني اهتماماً بالغاً بمسائل التوحيد، التي خصّص لدراستها عشرات الساعات من الدروس العلمية، محاولاً تبيين آثار التوحيد وانعكاساته على فكر المسلم وسلوكه، مؤكداً أن سعادة الإنسان في دنياه وعقباه مرهونة بتوحيد الله سبحانه. ويرى أن التوحيد هو الأصل في فطرة الإنسان، وأن الشرك ما هو إلا انحراف عن الفطرة، وكان يعتقد أن التصورات الشّركية والديانات الوثنية كان لها أصل توحيدي، ثم سرى الشرك إلى أهلها بمرور الزمن، إثر انقطاعهم عن الهدي الإلهي، مفنّداً - بذلك- مزاعم الفلاسفة القدامى والمعاصرين، الذين زعموا أن معرفة الله وتوحيده وهم علّق بالبشر في زمن

طفولته التاريخية، ورادأً على نظرية التطور التاريخي"[1] الذي قال به بعض الفلاسفة الغربيّين المعاصرين، من أمثال الفيلسوف الوضعي (أوغست كانت)[2]، الذي زعم أن التديّن كان مرحلة معرفية للإنسان سبقت مرحلة الفلسفة والعلوم الوضعية.

يقول - رحمه الله- في ذلك: "فطر الله تعالى الإنسان- أي جعله في خلقه وبرئه وتصويره وتسويته وتقديره وهدايته، بحيث يكون متهيئاً- أن يؤمن بالله تعالى خالقاً لكل شيء، فاعلاً لكل فعل، ربّاً للسماوات والأرض وما بينهما، إلهاً لكل عابد مستعين، وأن لا يشرك به شيئاً في الخلق، أو الفعل، أو الربوبية، أو الألوهية. ولكن الإنسان الظلوم الجهول دسّ نفسه فيما كان مفطوراً على نقيضه، فأشرك بالله -سبحانه- ما لم ينزّل به سلطاناً، إلا أنه لم يبلغ أن يشرك به في الذات، أو في الخالقية، أو في الربوبية، وإنما كان إشراكه به في الفاعلية، وفي الألوهية"[3].

حقيقة التوحيد:

يبدأ العلامة سبحاني - للوصول إلى فهم التوحيد وحقيقته- بمقدمة أساسية مهمة جدّاً، تختصر في: أن هناك نظريات عِدّة حول أصل الكون ومنشأ ما سمّوه الطبيعة، تبلورت في أسئلة مهمة كانت تدور في ذهن الإنسان منذ خلقته. والأسئلة لم تكن تثار من قبل من وصلهم الهدي الإلهي، ولكنها كانت تتكرر في فترات ابتعاد جماعات من الناس وانقطاعهم عن الوحي. والأسئلة كانت تدور حول أصل الكون وحقيقته، مفادها: هل نحن في خيال ووهم، أم لنا وللكون حولنا حقيقة؟ وإن كان هناك للكون حقيقة، فهل له خالق، أم جاء صدفة؟ وإن كان له خالق، فهل في خلقه حكمة، أم خَلَقَه سُدى؟ وإن لم يخلقه سدى، فهل شرع الخالق للبشر من الدين ما ينجيهم من التيه؟ أم تركهم دون توجيه؟ ثم يؤكد سبحاني أن لكلتا الحالتين مؤيدون وأتباع، ولكن أكثر الناس - في طول التاريخ- كانوا مع الصنف

---

١ نظرية التطوّر التاريخي: نظرية تؤمن بأن عوامل مختلفة أدت إلى ترابط مجموعات بشرية، سيطر بعضهم على بعض، إما بالقوة البدنية، وإما بسبب قدرات فكرية، وفي كل الأحوال تحاول هذه النظرية نفي الوحي والهداية الإلهية. انظر: موقع ويكبيديا، **الموسوعة الحرة**. www.wikipedia-org.

٢ (أوغست كانت): (١٧٩٨ـــ ١٨٥٧م)، يعرف لدى الغربيين بالأب المؤ ّسس لعلم الاجتماع المعاصر، فرنسي أ سس الفلسفة الوضعية، وهو يرى أن المرحلة الأولى للفكر البشري كانت مرحلة لاهوتية، انتهت بالمرحلة (الميتافيزيقية)، ثم المرحلة الوضعية. انظر: الم صدر السابق وموقع: **الاجتماع** www .eitemay.com

٣ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ٢١.

المعتقد بوجود خالق عليم حكيم مقتدر. ثم استدل الشهيد بأن القرآن الكريم لم يسجل مجيء رسول واحد من رسل الله - عليهم السلام - واجه أمة تنكر وجود الخالق، بل كان جميع مواجهات الرسل والأنبياء مع أمم كانت تعتقد بوجود خالق قادر عليم، ولكن في فهمهم للتوحيد غبش وإشكال.

من هنا يدخل الشهيد في صلب موضوع التوحيد، موضحاً جوهر رسالة الأنبياء، حيث أتوا لتصحيح مفاهيم الناس حول الاعتقاد بالله، بأنه ليس رباً خالقاً قادراً فقط، بل إنه إله آمر مطاع مع ذلك. وبهذا الفهم فقط يتميز أتباع الأنبياء - عليهم السلام- عن غيرهم من الأمم الجاهلة"[٤].

ويعتقد سبحاني أن صنفين من الناس كان لهم الدور الأساسي في إضلال الناس: الحكام المتضرّرون من دعوة الأنبياء، القاضية برجوع الناس إلى حاكمية الله. والقادة الدينيّون الانتهازيون، ممن ادعّوا أنهم دعاة الدين وحماته زوراً وبهتاناً. فابتُلي نبي الله عيسى - عليه السلام- بأمثال هؤلاء من أحبار اليهود، وابتلي رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم- أيضاً بهم، وبالرهبان أيضاً، بل لقد تكررت الحالة في حقب تاريخية من العهود الإسلامية بعد الخلافة الراشدة.

إذاً، المسألة الأولية والأساسية للأنبياء في تاريخ الرسالة، والدعاة في تاريخ الدعوة الدينية، تتمثل في التوحيد المقتضي للإيمان بأن الله وحده هو الآمر المستعان المعبود، كما هو الخالق البارئ المصور. حيث لم يشك معظم الأمم في شطر الربوبية، بل كان إشكالهم في فهم الألوهية.

إلا أن بعض العلماء ينحون منحى آخر، معتقدين أن بعض المتأخرين ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية قد لبّس عليهم الشيطان في عقيدتهم، فظنّوا أن الفلاسفة القدماء- كما يقول ابن الجوزي- "كانوا ينكرون الصانع، ويدفعون الشـرائع، ويعتقدونها نواميس وحِيَلاً، فصدّقوا فيما حكي لهم عنهم، ورفضوا شعار الدين، وأهملوا الصلوات، ولابسوا المحذورات، واستهانوا بحدود الشـرع، وخلعوا ربقة الإسلام"... "وما قد حكي لهؤلاء الفلاسفة من جحد الصانع محال، فإن أكثر القوم يثبتون الصانع ولا ينكرون النبوات، وإنما أهملوا النظر فيها، وشذّ منهم قليل فتبعوا الدهرية الذين فسدت أفهامهم بالمرّة. وقد رأينا من المتفلسفة من أمتنا جماعة لم يكسبهم التفلسف إلا التحيّر، فلا هم يعملون بمقتضاه، ولا بمقتضى الإسلام، بل فيهم من يصوم رمضان، ويصلي، ثم يأخذ في الاعتراض على الخالق وعلى النبوات، ويتكلم في

٤ انظر: ناصر سبحاني، **درس في توحيد الألوهية**.

إنكار بعث الأجساد"[٥]. وهذا أمر غريب، رغم أن ابن الجوزي يؤكد في نهاية مقاله هذا بأنه رأى بعضهم وخاصموه.

الاستدلال القرآني على التوحيد:

يعتمد الشهيد سبحاني في عملية البحث والتحقيق – سيما في المسائل المتعلقة بالعقيدة والأحكام الشـرعية- منهجية خاصة، تستند على جمع الآيات القرآنية، وجعلها مصدره الأول والأساس؛ فيحاول جاهداً أن يثبّت المبادئ التي يصل إليها في البداية، من خلال النصوص القرآنية ذات الدلالة القطعية، أو القواعد الكلية التي يمكن أن تُسْتَمدّ من القرآن، إن لم يجد الآيات المحكمة ذات الدلالة التي لا تحتمل التأويل.

أما فيما يتعلق بموضوع التوحيد، فلقد خصّ الشهيد أكثر من مائتي ساعة من دروسه، لشـرح حقيقته، وما يتعلق به من المسائل، عدا ما أكد عليه في مقدمات جميع كتبه ودروسه العلمية. وهو يرى أن التوحيد أخذ حيزاً كبيراً ووسيعاً من الآيات القرآنية الكريمة، وأكد على أن للقرآن في الاستدلال للتوحيد، وشـرحه، منهجية خاصة، تتلخّص فيما يلي:

ا- بداية يستند الاستدلال القرآني لموضوع التوحيد على قوى النفس البشـرية، فيطلب الله سبحانه من الإنسان المكلف المأمور أن يستعمل (قوة البصـر) - التي هي إحدى قوى النفس البشرية الأساسية- لمطالعة آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، لكي يتعرف على الله من خلال ما سماه القرآن بـ(عالم الشهادة).

ب- ثم يطلب من (قوة القلب) أو الفؤاد[٦] أن تحصل على معلومات حول ما لا تتمكن قوة البصـر من الحصول عليه، والذي سماه القرآن بـ(عالم الغيب).

ج- وبعد أن تكتمل صورة فهم التصور حول الله والكون والحياة، يطلب القرآن من الإنسان أن يستعمل (السمع) لتلقي الهدي الإلهي والأحكام من وحيه، لتنظيم شؤون حياته[٧].

هذا – باختصار- ما توصّل إليه الشهيد من منهجية الاستدلال القرآني، وهو يقارن بين هذا المنهج والمنهج الفلسفي، والمنطق اليوناني، اللذين يصفهما بالعقيم والمبهم والناقص، منهجان لا ينسجمان مع طبيعة أغلب البشـر، وليس من ورائهما ثمر يذكر.

---

٥ ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، ص: ٦١.

٦ يرى سبحاني أنهما ا سمان لقوة واحدة، لكن كلا من الا سمين يطلقان على تلك القوة، نظراً للحالة الحاصلة لها.

٧ ناصر سبحاني، **سلسلة دروس العقيدة**، الدرس الأول.

بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية:

كرر الشهيد سبحاني في معظم دروسه المخصصة لمسائل العقيدة القول بأن ما أكّده القرآن الكريم في مجال العقيدة هو شطر الألوهية، بل جعل من أدلة الربوبية التي كان يعتقدها المشـركون - سواء أثناء التنزيل أو قبله- أدلة لحقّ الألوهية، التي وقع فيها الشـرك، بتفصيل. فلقد ركزت دعوة الأنبياء - عليهم السلام- جميعاً على ذلك الجانب الذي حصل فيه دوماً أنواع من الشـرك، بينما لم يحصل الشـرك طول التاريخ -حسب البيان القرآني- في مجالين يتعلقان بالربوبية: مجال وجود الله سبحانه، فلم يسجل القرآن تصوراً شـركياً يدعو إلى وجود ذات إلهية أخرى، ولا وجود خالق مع الله، لا في عهد نزول القرآن، ولا قبله. وقد جاء في القرآن عشـرات الآيات لمعالجة مجالات - تتعلق بجانب الألوهية- وقع فيها الشـرك بوضوح، سواء في الأمم السابقة، أو في عهد نزول القرآن. فلقد حصل الاعتقاد بوجود آمر غير الله سبحانه، سواء فيما يتعلق بالأمر التشـريعي الابتلائي، وذلك بتصور وجود من يشـرّع من دون الله فيما لا يأذن به، أو تصور جواز ذلك، أو فيما يتعلق بالأمر التسخيري، بتصور وجود التأثير الذاتي للأسباب والوسائط، واعتقاد أن الأفعال الحاصلة من المخلوقات من ذاتها مباشـرة. قال الشهيد في هذا الصدد: "ما المخلوقات في الائتمار والاهتداء والصيرورة إلى الله، إلا أسباب قد اتخذها الله سبحانه ليفعل بها ما يشاء من أفعال، (ولا ينافي هذا كون بعض المخلوقات ذوي علم وإرادة)... فأمر الله لمخلوق من مخلوقاته - أياً كان- إرادة منه - بالتسخير أو الابتلاء- أن يكون ذلك المخلوق سبباً لفعل من أفعاله، وتحرّك المخلوق بأمر الله – تعالى-، تسبُّب منه لما أراد الله منه من فعل، ووقوع كل فعل متوقف على إرادة من الله - تعالى- ووجود سبب (إلا في معجزات المرسلين - عليهم صلوات الله وبركاته)"[٨]. وهذا ما حصل فيه الشـرك، بينما أثبت القرآن أن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه، وأن المخلوقات ليست إلا أسباباً تسـري من قبلها أفعال الله، بمعنى أنها وسائل لتحقيق أفعاله تعالى..

ويستدل الشهيد لذلك بآيات من القرآن تخاطب رسول الله، وصحبه الكرام - صلوات الله عليهم-.. يقول في ذلك: "في كتاب الله آيات بينات تسند الأفعال القائمة بالمخلوقات إلى الله خالقها، آيات لا تتلى على من يعلم، إلا يوقن أنه لا يملك فعلاً وتأثيراً إلا الله. وهذا خير مؤمن عامل للصالحات، اتباعاً لهدى القرآن، رسول الله - عليه صلوات الله وبركاته-، وهؤلاء أصحابه السابقون الأولون؛ من المهاجرين والأنصار - عليهم رضوان الله-، ينفي كتاب الله المبين عنهم الفاعليةَ في أفعال كانوا أسباب وقوعها، قائلاً: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ

٨ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ١٦-١٧.

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ}[الأنفال: ١٧]. وإذا كان هذا هو حالَ الأخيار من أهل العلم والإرادة، فماذا عسى أن يكون شأن غيرهم من ذوي قوتي العلم والإرادة، فضلاً عن غيرهم من المغلولين بأغلال التسخير؟! (وقد بيّن هذا المعنى كثير من الآيات، منها قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[التكوير: ٢٩]"[٩].

بهذا يتبين أن المؤثر الحقيقي في الأشياء هو الله، لا غيره، فالدواء للمريض –مثلاً- سبب للشفاء، ولكن الله وحده هو الشافي والمؤثر في الدواء. إذاً، لا يمكن أن يكون للأسباب تأثير ذاتي.

أما فيما يتعلق بالأمر الابتلائي – وهو الشطر الثاني من الألوهية- فإنه لا يمكن أن يأمر الإنسان وينهاه -كما يقول سبحاني- إلا من هو قادر على جلب كل نفع له، ودفع كل ضر عنه، وهو مالك لأمره، يوجهه الوجهة التي لها قد خُلق، إليه مصيره، فيدينه بما يكسب أو يكتسب. وهل لغير الله ذلك؟!

إذاً، لا شك في أن الحكم أو الأمر الابتلائي ليس إلا من شأن الله، فكما أنه لا معين إلا هو، فلا إله ولا آمر ولا مشرّع إلا هو، فلا مجال لهوى بشري اتخذ إلهاً، قال الله سبحانه: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هواه}[الجاثية:٢٣]، ولا لحكم الجاهلية: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ}[المائدة: ٥٠]، ولا لأسماء معبودة: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[يوسف:٤٠]، ولا لشركاء مشرّعين: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}[الشورى:٢١], ولا لطواغيت متسلطين: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ[١٠] وَقَدْ أُمِرُوا أَن

---

٩ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ٢١.

١٠ بيّن المفسرون لكلمة (الطاغوت) معانٍ، منها: الكاهن، وال صنم، والساحر، والشيطان. والمعنى الأرجح الذي ينا سب سياق الآيات التي وردت فيها كلمة الطاغوت، هو الذي قاله الشيخ محمد رشيد رضا: "الطاغوت من مادة الطغيان، وهو: كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق؛ من مخلوق يُعْبَد، ورئيس يُقَلَّد، وهوى يُتّبع" (محمد رشيد رضا، **المنار**، ١٥٧/٥). ولقد أخذ بعضاً من المعنى مما قاله شيخ المفسرين الإمام الطبري. قال في تفسير: يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ [النساء: ٦٠]، يعني: إلى من يعظمونه، ويـ صدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله". (الطبري، **جامع البيان**، ١٥٢/٤). ولقد أحسن وأجاد الرازي لما قال: " الطاغوت: كل رأس في ضلال" (الرازي، **مختار الصحاح**، ص ٣٩٣).

يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}[النساء:٦٠][١١]، ولذلك – ولتحقيق التوحيد كاملاً- "كتب الله على نفسه أن لا يدع ظرفاً متهياً إلا يبعث فيه نذيراً، يبيّن أن ليس ينفع الإنسان أن يكون مجتنباً الإشـراك بالله - في الذات، وفي الخالقية، وفي الربوبية-، حتى يكون مجتنباً الإشـراك به في الحاكمية، كاجتنابه ذلك في المعينية والفاعلية. قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]. وقال: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ}[النساء: ٦٠]"[١٢].

وهكذا يرى سبحاني أن الحكمة الأساسية من بعث الأنبياء - عليهم السلام- مبيّنة في القرآن، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية، كما يرى أن توحيد الربوبية - بمعرفة الله واعتقاد كونه رحماناً رحيماً مالكاً- لا ينفع، حتى يكون مشفوعاً بتوحيد الألوهية في العبادة والاستعانة، كما يتبين ذلك من خلال ما تضمنته آيات سورة الحمد، التي هي فاتحة الكتاب.

الحكم بغير ما أنزل الله ينافي توحيد الألوهية:

وبناء على ما مرّ سابقاً من بيان أن الشـرك قد وقع – ويقع- في الشطر الثاني من الألوهية – المتمثل في الأمر التشـريعي الابتلائي-، وذلك إما باتخاذ الهَوى إلهاً، أو بابتغاء حكم الجاهلية، واعتقاد شـركاء مشـرّعين من دون الله، أو التسليم لطواغيت متسلطين، أمر الله سبحانه أن يكُفر بهم. بناء على ذلك، يتحتم علينا إلقاء ضوء على الحكم بغير ما أنزل الله، ومحله في هذا الأمر الخطير.

وهنا ينبغي القول إن لسبحاني - في هذا الأمر- قول صـريح، فهو يرى "أن طاعة أمر من لا يحكم بما أُنزل، مناقض للعبودية، لأن العبادة ليست إلا طاعة أمر آمر، أو دعاء مستعان. بل يذهب أكثر من ذلك، فيرى أنه لا بد أن يتحاشى المؤمن أن يعتد بإيمان وعمل من يقولون - بلسان المقال، أو بلسان الحال- للذين كرهوا ما نزّل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، ممن قد تبيّن لهم الهدى"[١٣]. وهو يرى أن قسطاً كبيراً من الشـرك يقع في هذا الجانب من الألوهية، أي طاعة غير الله من الحكام فيما لا يرضى به، لأن من أنزل نفسه منزل مشـرّع

١١ انظر: ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص ٩٢.

١٢ المصدر نفسه، ص ٩٣.

١٣ انظر: ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ٩٣.

الأحكام، ودعا الناس إلى امتثال أمره، فقد جعل نفسه إلهاً، وإن كان يؤمن بالله خالقاً، أو كان يصلي ويصوم ويحج.

ورداً على من يلتبس عليهم الأمر في هذا الموضوع، يقول سبحاني: "كأني بهؤلاء قد التبس عليهم الأمر، فظنوا أن ليس الإيمان إلا علم اليقين، غافلين عن أن هذا لم يكن يفقده أكابر الكافرين، فضلاً عن غيرهم. وهذا فرعون كان يعلم أنه ما أنزل الآيات البينات التسع التي جاء موسى بها، إلا رب السماوات والأرض بصائرَ[١٤]، وكان هو وقومه إذ جحدوا بتلك الآيات المبصرة، ظلماً وعلوّاً، قد استيقنتها أنفسهم. وهذا أبو لهب كان هو وقومه موقنين بأن الذي كان يدعوهم الرسول إليه هدى من الله، ولكنهم كانوا يخافون عاقبة اتباع الهدى معه، قائلين: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}[القصص: ٥٧]"[١٥]!

بدايات شـروع الشـرك، وأسبابه، والمجالات التي وقع فيها الشـرك بالله:

ليس هناك مصدر -كما يؤكد الشهيد سبحاني- كالقرآن الكريم، ينقل صور الشـرك وأسباب نشوئه، فلقد تحدّث سبحاني في عشـرات الدروس أن أول انحراف في الدين حدث في مجال الشـرك بالله، فلم يسجل القرآن موقفاً إلحادياً واحداً، ولم يتحدث عمن ينكر وجود الله وخالقيته. يقول سبحاني: "أساس شـروع عبادة الأصنام بدأ بتصور خاطئ – بسبب الجهل- وهو: أن الإنسان لا يتمكن – بسبب المعاصي والذنوب التي يرتكبها- أن يتصل بالله، ويطلب منه ما يريد، وأن يستغيثه، ولذلك يحتاج إلى واسطة ووسيلة. وبما أن الملائكة والصالحين هم أقرب الناس إلى الله، فلقد اختارتهم أمم في الأرض كوسطاء بينهم وبين الله.. وبسبب الانقطاع عن أولئك، وابتعادهم عنهم زمنياً، بدأوا يفكرون بصنع تماثيل تذكارية لهم، تخليداً لأسمائهم، وبمرور الأجيال شـرعوا يعبدونهم، ويجعلونهم وسطاء بينهم وبين الله مباشرة..

هكذا بدأت القصة. وإذا أتينا إلى عهد مشـركي العهد النبوي، رأينا أنهم كانوا يصلّون، فالقرآن ينقل لنا صورة صلاتهم قائلاً: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً}[الأنفال:٣٥]، وكانوا يحجّون ويلبّون قائلين: لبّيك اللّهم لبّيك، لبّيك لا شـريك لك، إلا شـريكا هو لك، تملكه

١٤ إشارة إلى قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} الإسراء: ١٠٢، ولو لم يكن موسى على يقين من أن فرعون يرى المعجزات بـ صائر، لما كان يصـرح بذلك بكل هذا التأكيد.

١٥ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ١٠١.

وما ملك، ويقصدون به (هُبَلاً). وكذلك كانوا يعتمدون على النذور، والقربان، وأمور أخرى، تثبت إيمانهم بالله"[١٦].

ولقد نقلنا في مبحث سابق القول بأن (ودّاً وسُواع ويَغوث ويَعوق ونَسْراً) - التي ذكرها القرآن كأصنام كانت تعبد- إن هي إلا أسماء رجال صالحين من قوم نوح -عليه السلام-، كما ورد في الصحاح"[١٧].

ولعل من تمام الفائدة القول بأن بعض المصادر التاريخية يسرد قصصاً حول كيفية انتشار عبادة الأصنام، ووقوع أمم من الناس في الشرك، ولكنها لا تستند إلى وثائق تعطي ثقة تقترب من التصديق. وقد ذكر ابن الجوزي (٥٩٧ هـ/١٢٠٠م) بعض تلك القصص، ومختصرها أن بعض أحفاد آدم وقعوا في شرك الاستغاثة بقوم صالحين، هم: (ودّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر)، فنحتوا في البداية لهم تماثيل، فكان الرجل منهم يأتي أحدهم فيعظّمه ويسعى حوله، حتى ذهب القرن الأول. ثم جاء قرن آخر فعظّموهم أشدّ من القرن الأول. ثم جاء القرن الثالث فقالوا: ما عظّم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله عز وجل، فعبدوهم، وعظّموا أمرهم، واشتدّ كفرهم. فبعث الله بعض الأنبياء عليهم السلام[١٨]. ثم ذكر بتفصيل انتقال الشرك إلى الجزيرة العربية، واتخاذ الأصنام الشهيرة، لا سيما (مناة)، التي كانت العرب جميعاً تعظّمه، وكذلك الأوس والخزرج، و(اللات) التي كانت بالطائف، و(العزّى) التي كانت بوادي النخلة الشافية. وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها (هُبَل)، و(إساف) و(نائلة) و(ذو الخلَصة) و(ذو الكنيف)، وكان لأهل كل واد من مكة صنم يعبدونه في دارهم"[١٩]. ويسرد بعد ذلك حكايات غريبة، ونماذج من كيفية عبادة الأصنام في ربوع الجزيرة العربية.

أما حول المجالات التي وقع فيها الشرك بالله سبحانه، فلقد حدد سبحاني -بالاستناد على آيات القرآن، وبعد تفحّص حال الأمم السالفة، من الناحية الفكرية والعقدية- ميادين ومجالاتٍ يمكن أن يقع فيها الشرك بالله، لا سيما إثر انقطاع فئات عديدة من الأمم عن الهدى الإلهي. وهي في نظره -حصراً- خمسة مجالات، هي:

---

١٦ ناصر سبحاني، **دروس حول معرفة الله**، الدرس الخامس.

١٧ ينظر مثلاً: البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الـ صلاة، باب ٤٨، برقم: ٤٢٧، وصحيح مسلم، كتاب المساجد، باب ٣، برقم: ٥٢٨.

١٨ ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، ص: ٦٤.

١٩ راجع: المصدر السابق، صفحات: ٦٥-٦٨.

١- الاعتقاد بأن هناك ذاتاً أخرى غير الله سبحانه.
٢- الاعتقاد بأن هناك فاعلاً ومؤثراً آخر مع الله.
٣- الاعتقاد بوجود خالق آخر مع الله.
٤- الاعتقاد بوجود ربّ غير الله (بمعنى الرحمن الرحيم المالك).
٥- الاعتقاد بوجود إله آخر غيره (بمعنى المعبود المستعان).

هذا من ناحية تصوّر وقوع الشـرك، ولكن فيما بيّنه القرآن يتضح أن الشـرك لم يقع في بعض الجوانب، فلم يرد فيه أن مشـركاً قال بوجود خالق آخر، أو ربّ آخر. أما قول فرعون -كما ينقل عنه القرآن- [فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى] (النازعات: ٢٤)، فبمعنى الحاكمية، التي هي إحدى معاني الرب، لا بمعنى الخالق أو غيره، كما أوضحنا في المبحث الأول من هذا الفصل.

على كل حال، يرى سبحاني أن الشـرك وقع طوال التاريخ في صورتين، تتعلقان بالفاعلية والألوهية. كيف؟ يقول: "برز اعتقاد بأن الأسباب تؤثر ذاتياً، ولذا تصدّت الدعوة التوحيدية للأمر، بالتأكيد على أن الفاعل الحقيقي لكل أمر هو الله. وهناك آيات كُثُر، أكتفي باثنتين منها، الأولى: ما ورد حول غزوة بدر، في قوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ [الأنفال: ١٧]، حيث نسب القتل والرمي، اللذين قام بهما الرسول – صلى الله عليه وسلم - وصحبه الكرام، إلى الله تعالى، بل ينفي أن يكونوا هم من قام بالرمي والقتل من الأساس. يريد الله بهذا أن يبين أن الرسول وصحبه هما السبب، ولكن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه. علماً أن كثيراً من العلماء يرون بأن الرميّة تلك كانت من باب المعجزة، حيث خرق الله بها ما اعتاده الناس من التأثير بالرمي.

والآية الثانية: قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[التكوير:٢٩]، التي وردت بعبارات عديدة، حيث تسبق مشيئة الله مشيئة الإنسان. وبهذا يتبين أن المؤثر الحقيقي هو الله سبحانه لا غيره، فالله تعالى أودع في الدواء القدرة على التأثير، أو سلب التأثير فيه، حسب إرادته، ولكن الله هو الشافي والمؤثر في الدواء، إذ ليس للأسباب تأثيراً ذاتياً.. وهكذا في جميع الأمور والأحوال.

أما الشـرك في الألوهية، فهو ميدان المواجهة بين الأنبياء - عليهم السلام- وأممهم، فتصور الإله هو أن يظن إنسان أن هناك من يجلب له نفعاً، أو يدفع عنه ضـراً، بالواسطة أو مستقلاً، فيرغب إليه، فيدعوه ويستغيثه، لأنه يعتقد أن زمام أمره بيده، وهو تحت سيطرته،

فتحدث رهبة في داخله تجاهه، مما يجعله مطيعاً له ومنقاداً. ثم وقع شـرك في الحاكمية، قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}[الشورى: ٢١][٢٠].

ويؤكد سبحاني أن توحيد الله في المجالات المذكورة: (الفاعلية) وشطري الألوهية: (المعبودية) و(المعينية)، من مقتضيات الإيمان بخالقية الله وآمريته، حيث "إن أمر الله تعالى الابتلائي يقتضي أن يؤمن الإنسان بالله (رباً) و(إلهاً)، وأن لا يتخذ من دونه سبحانه رباً ولا إلهاً، فيوقن أنه هو الله، الرحمن الرحيم، المالك، الملك، المعبود، المطاع الأمر، المعين، وأن ليس بيد غيره قدرة على جلب نفع، ولا قدرة على دفع ضـرّ، ولا مُلْكٍ ولا مِلك، ولا أمر مطاع، ولا إعانة[٢١].

ثم يشـرح حال المنحرفين عن جادة التوحيد في الفاعلية، قائلاً: "أما في الفاعلية فجرّه - أَي الإنسانَ- قَصْـرُ النظر على الظواهر، إلى أن يظن أن التأثيرات الصادرة عن المخلوقات ذاتية لها، وأنها هي الفاعلة للأفعال المتعلقة بها.. وجاء من الله الهدى يبين له أن ليست المخلوقات إلا أسباباً، وأن ليس فاعلاً إلا الله سبحانه"[٢٢]. وأما في الألوهية، "فخرّ الإنسان من سماء إخلاص الدين لله في العبادة والاستعانة، إلى اتخاذ من يشـرع له من الدين ما لم يأذَن به الله معبوداً، ودعاء من لا يملك نفعاً ولا ضـراً، من خلق الله، معينا شفيعاً"[٢٣].

ومما ينبغي التنويه إليه هنا، أن سبحاني سلك مسلكاً متميزاً في استخراج معانٍ توحيدية من مفردات ألفاظ سورة الحمد، بالاعتماد على كبرى مصادر اللغة العربية وأمهاتها. يقول رحمه الله: "لفظة الربّ تطلق على معنى يتكون من مجموع خمسة معان، يحقق كل واحد منها جزءاً من وحدة متكاملة هي: القادر على النفع، والقادر على دفع الضـر، (ويُدَلّ عليهما بعبارة: الرحمن الرحيم، والمالك، والمِلك) والمطاع الأمر، والمعين. فإذا لم يكن مقتضٍ لتخصيص بعضها، أريد بها جميعها، وأما إذا وجدت في الكلام قرينة على إرادة بعضها، فإنها يراد بها ذلك فقط. ولفظة (إله) تطلق على ما يتكون من المعنيين الرابع والخامس، بشـرط إضافة ما يصدق ذلك عليه بالمعاني الثلاثة الأُوَل – في اعتقاد المطلق لها- أو اتصافه بالوساطة عند المتصف بها - وهو نوع من الاتّصاف بها- فالثلاثة الأول شروط لمعنى لفظة الإله، والأخيران

٢٠ انظر: ناصر سبحاني، **المناظرة العلمية**، الدرس الخامس.

٢١ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ١٨.

٢٢ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ٢١.

٢٣ المصدر نفسه، ص: ٢٤.

شطران، بخلاف لفظة الرب، فإن نِسَب الخمسة إليها متساوية. هذا وقد اصطلح العلماء على التعبير عن الثلاثة الأولى بالربوبية، وعلى الدلالة على الأخيرين بالألوهية[٢٤].

وبعد أن يلقي الشهيد ضوءاً على حقيقة الشفاعة وأنواعها، ومعنى التوسل وحكمه، وأنهما لا يتعارضان مع توحيد الألوهية، يأتي لبيان الشـرك في شطر المعبودية من الألوهية، فيقول: "إن الحكم والأمر الابتلائي – وهو الشطر الآخر من الألوهية- ليس إلا من شأن الله تعالى، كما أنه لا معين إلا هو، فلا إله إلا الله.. وإذا كان الذي قد بعث الله الرسل –عليهم الصلوات والبركات- للدعوة إليه توحيد الألوهية- وكان هذا التوحيد إنما يتحقق بالكفر بكل حكم وشرع من دون الله، وبالتسليم إلى حكم الله وشـرعه- فإن من المناقض للعبودية طاعة أمر من لا يحكم بما قد أنزل الله، وكيف لا؟ وما العبادة إلا طاعة أمر آمر، أو دعاء مستعان؟![٢٥]❐

٢٤ ناصر سبحاني، أسس التصورات والقيم، ص: ١٨.

٢٥ المصدر نفسه، ٩٣.

العنف
والتوظيف السياسي

د. عبد اللطيف ياسين علي

أصبحت روح التبعية للآخر شائعة بين المسلمين بصورة عامة، فنحن ننظر إلى أفواههم، ونستمع إلى مقولاتهم، بغية الرد أو الاتباع، وننظر إلى ما يطلقونه من المسميات والمصطلحات، وما يريدونه منها، وآنذاك إما أن نتبع ونستعمل مصطلحاتهم ونتداولها، وفي أحسن الأحوال نرد بردود إما عفوية أو ارتجالية أو انفعالية (يشوبها رد الفعل)، أو بصوت مغلوب على أمره.. فنحن انتظرناهم حتى أطلقوا النعوت والصفات على العصور كما رأوها: (العصور المتأخرة، القرون الوسطى، العصور المظلمة، وغيرها)، وكذا انتظرناهم حتى أطلقوا كلمة الإرهاب[1] على من يريدون، ومن هو العنيف، ومن الإرهابي.. انظر إلى

١ - جاء في (عصام صادق رمضان: الأبعاد القانونية للإرهاب الدولي، مجلة السياسة الدولية، عدد(٨٥) القاهرة، يوليو(تموز) ١٩٨٦، ص ٢٠) "صدرت قبيل أعوام من قيام منظمة الأمم المتحدة عام - ١٩٤٥، منها وثيقة أعلنتها حكومات الحلفاء عام ١٩٤٢، وأفادت أن الدولة الألمانية، ومنذ بداية الصراع الحالي الذي نجم عن سياستها العدوانية، أقامت في الدول المحتلة نظاماً إرهابياً اتسم بالاعتقالات، والطرد الجماعي، وإعدام الرهائن، وإجراء المذابح، وأن أعمال العنف التي توجه على هذا النحو ضد السكان المدنيين، لا علاقة لها بالعمل الحربي والجريمة السياسية كما تفهمها عصبة الأمم المتحدة. كما صدر إعلان عن موسكو عام ١٩٤٣، ندد بالفظائع الألمانية

الدراسات والأبحاث التي تناولت الإرهاب[٢] ترى أن أصولها ترجع دائماً إما إلى اللاتينية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية.. لقد فقدنا روح الاستقلالية، ولبسنا ثوب التبعية، والذي هو ضمناً عبارة عن استرضاء اليهود والنصارى، وهو الأمر الذي نهانا الله عنه، كما نهى عن المساومة على الثوابت العقدية والفكرية والاستقلال الاقتصادي والسياسي.. يقول رب العزة: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}(سورة البقرة/١٢٠)، فمع أن اليهود والنصارى هم لا يقرون لبعضهم بعضاً بشيء لكننا نريد اتباعهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}(سورة البقرة/١١٣).. والولاية ليست قاصرة على الحب والمودة التي تشيع بين الناس، وإنما هي اتباع وركون إليهم، واستناد عليهم، وتبجح بأقوالهم البراقة والرنانة، أي: ليس بالضرورة أن تكون التبعية منبثقة عن الرضا أو القناعة، بل قد تكون نابعة من الخوف أو الرهبة، أو من السذاجة، أو لجلب مصلحة دنيوية عاجلة.

نحن المسلمون، ومع الأسف الشديد، بعد مرحلة الانحطاط، كما وصف العلامة الندوي[٣]، وبعد الانحسار في كل شيء، أصبحنا نستورد حتى الأمراض التي تصيبنا من معاجم المنتصرين.. قد تكون هذه سنة الحياة، أو الأمر الواقع، ولكن النخبة الفاهمة والمثقفة والدارسين يجب عليهم أن يعيدوا الكرة، وأن يستلهموا الكلمات والمصطلحات من معينها، وبيئتها الأصلية.. وأنا أعيد شكري لجامعة القرآن الكريم لسماحهم بالشروع في

والإعدامات الجماعية التي ترتكبها القوات الهتلرية فى كثير من الدول التي اجتاحتها، والتي تعتبر أسوأ أشكال الحكم بالإرهاب". فكان الهجوم منصباً على ألمانيا لأنها خرجت عن صفوف الأوروبيين.

٢ - وقد جاء في (أحمد جلال عز الدين: الإرهاب والعنف السياسي، دار الحرية، عدد(١٠)، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٢.) "ترجع كلمة إرهاب في أصولها اللغوية إلى الفعل السنسكريتي(Tras) الذي يعني رجف في اللغة الفرنسية. أما في اللغة الإنكليزية، فإنها ترجع إلى الفعل اللاتيني(Ters)، والذي استحدثت منه كلمة(Terror)، أي الرعب أو الخوف الشديد. والإرهاب كمصطلح استحدث خلال الثورة الفرنسية بسبب ما قامت به حكومة روبسبير(Robespierre) من ممارسات قمعية ووحشية ضد أعدائها التي " أحلت الإرهابية(Terrorisme) محل كلمة إرهاب، وأعطتها معنى جديداً".

٣ - الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي أحد أعلام الدعاة إلى الإسلام في عصرنا الحديث، وهو كاتب وعالم ومفكر، ولد بقرية (تكيّة كلان)، من مديرية (رائي بريلي)، قرب (لكهنؤ) بالهند، عام(١٣٣٢هـ/١٩١٣م)، وتوفي في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك ٢٣رمضان من عام(١٤٢٠هـ) عن عمر يناهز ٨٦ عاماً.

كتابة البحوث الاجتماعية والنفسية من خلال دراسة القرآن الكريم، وذلك بعرض مصطلحاتنا ومفاهيمنا واستلهام مفرداتنا من وعائنا الثقافي الأصيل، لأن لكل مصطلح وعاءه الثقافي والفكري والتاريخي، وأهل العلم ملمون بتاريخ تطور الكلمة من حيث اللغة، والنشأة، والتطور التاريخي، وملابسات إطلاق المصطلح ودلالته.. ولست مع شعار لا مشاحة في الاصطلاحات، ففي هذا السياق هناك مشاحات كثيرة، ويجب الالتفات إلى هذا.. والشيء بالشيء يذكر، أذكر أنني بينما كنت في برنامج تلفزيوني، وكنت ضيفاً مع أستاذين جليلين، وكان الموضوع (التسامح في الإسلام)، وكنت أراجع المصادر والمراجع في هذا الصدد، كانت بداية شيوع هذا المصطلح نابعة أو مستوحاة من قمع وقتل وتعذيب المواطنين في البلاد المستعمرة بأيدي الرجال البيض، على حد وصفهم، وهكذا دخل هذا المصطلح المعاجم الدولية. وعندما قلت في البرنامج: أن هذا المصطلح لم يكن متداولاً في الكتب الفقهية لعلمائنا، خاصمني البعض وخالفني! فقلت لهم: هذا المصطلح يحمل الكثير من الأهداف والتفسيرات النابعة من الواقع الغربي، فلماذا لا نستلهم ونستوحي مصطلحاتنا الخاصة من معينها الأصلي، فالقرآن استعمل (العفو)، ولم يستعمل مصطلح (التسامح).. وعلى أي حال فهذا ليس موضوع بحثنا، ولكن على النخبة المثقفة والأكاديميين والعلماء أن يتصدوا لهذا الأمر الذي شغل بالي منذ أمد بعيد.

والقرآن الكريم يريد أن يعلمنا "الحقيقة التي أراد الإسلام- وكل رسالة سماوية قبله- غرسها في الأرض: هذه الحقيقة ليست هي مجرد: كيف يعامل فرداً من الناس؟ أو كيف يعامل صنفاً من الناس؟ كما هو المعنى القريب للحوادث وللتعقيب، إنما هي أبعد من هذا جداً، وأعظم من هذا جداً، إنها: كيف يزن الناس كل أمور الحياة؟ ومن أين يستمدون القيم التي يزنون بها ويقدرون؟

الحقيقة التي استهدف هذا التوجيه إقرارها، هي: أن يستمد الناس في الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة، آتية لهم من السماء، غير مقيدة بملابسات أرضهم، ولا بمواضيع حياتهم، ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواضيع وتلك الملابسات، وهذا أمر عظيم جداً، كما أنه أمر عسير جداً، عسير أن يعيش الناس في الأرض بقيم وموازين آتية من السماء، كما هي مجردة من ملابسات تغيير الواقع، مطلقة من اعتبارات الأرض، متحررة من ضغط هذه الاعتبارات"[٤].

٤ - في ظلال القرآن، سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي(المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط: السابعة عشرة - ١٤١٢ هـ(٦/ ٣٨٢٣).

تعريف العنف:

"العنف هو ذلك السلوك الذي يزيل الخصم، أو يجعله يغير تصـــرفاته أو مواقفه، لكيلا يعيق المعتدي!"[٥]، وهو "ضـدُّ الرِّفْق. وأَعنَفْتُه وعَنَّفْتُه، قيل: أي وَجَدْت له مشـقة"[٦]. وقد جاء مفهوم العنف في المعاجم العالمية كما يلي: "العنف Violence مفهوم مشـــتق عن الكلمة اللاتينيةViolare ، وتعني إحداث الأذى بالأشـخاص، أو الأشـياء. وتعني في (معجم وبستر): استخدام القوة لإحداث الأذى بالغير. وفي (لسان العرب) تعني: اللوم والترويع. وفي العلوم الاجتماعية تعني إلحاق الأذى بالآخرين، والسـعي نحو تفتيت العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسـرة منها"[٧].

فالأديان كلها، وجميع الفلسفات، تخاطب الإنسان ككائن، مركب من الأحاسيس ومشاعر الكره والحب والبغض والشـهوة. وليس العنف بمعزل عن التركيبة الأولية للإنسـان. وكما أن الرفق كامن داخل الإنســـان، فكذلك العنف كامن، وكما أن للرفق أموراً يتزكى بها، وأيضـــاً للعنف أمور يتهـاوى بهـا. ومن خلال "مراجعتنـا لبعض الحقـائق حول فطرة الإنســـان وقدراته، تملي علينا في النهاية معالجة أخطر مظاهر للسـلوك البشـــري، وهو العنف بين الجماعات. بعد التحليل النهائي لكل جهد بشـــري، صغيراً كان أم كبيراً، يتضح لنا أن وراء هذا الجهد سـعي الإنســان إلى العيش الآمن"[٨]، وهذا هو ما منّ الله به على الإنســان في معرض وحيه ســبحانه وتعالى قائلاً: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}(سورة قريش/٣،٤)، وعرض الأمن والشـــبع "كأنه أعظم المنّة عليهم"[٩] ،

---

٥ - الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان، الدكتور إبراهيم فريد الدر، (ص/٣٥٨).

٦ - المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث، محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المديني، أبو موسى(المتوفى: ٥٨١هـــــ)، ت: عبد الكريم العزباوي، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشـــريعة والدراسات الإسلامية - مكة المكرمة، دار المدني للطباعة والنشـــر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية،• جـ ١(١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، • جـ ٢، ٣(١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)،(٢/ ٥١٢).

٧ - ينظر: الإســاءة.. مظاهرها.. أشــكالها.. أثرها على الطفل: ليلى الصــايغ، مؤتمر نحو بيئة خالية من العنف للأطفال العرب، عمان، نيســان ٢٠٠١م. وينظر: لغة العنف وعنف اللغة: مقاربة لســانية نفســية" أ.د. مراد موهوب، أســتاذ التعليم العالي بجامعة الســلطان مولاي ســليمان، كلية الآداب والعلوم الإنســانية – بني ملال المملكة المغربية،(ص/٣).

٨ - الأسس البيلوجية لسلوك الإنسان، مصدر سابق،(ص/٣٦١).

٩ - لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري(ت: ٤٦٥هـــ)، ت: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط: الثالثة،(٣/ ٧٧٢).

وهو كذلك، والذي خلق الكون، "أنّ نعم الله عليهم لا تحصـــــى، فإن لم يعبدوه لسـائر نعمه، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة"[١٠].

العنف اصطلاحاً:

"بالرغم من أن ظاهرة العنف هي ظاهرة طبيعية، ضاربة جذورها في التاريخ البشـــري منذ القدم"[١١]، ولكن اليوم - وفي ظل المســتجدات الحديثة على الصــعيد التقني والثورة المعلوماتية-، استشـرت ظاهرة العنف أكثر، وفي جميع الميادين، وبين جميع الشـرائح، ومع تفاوت النسب بين هذه الشـرائح المختلفة.

في بحثنا هذا نتناول جانباً من العنف، وهو كظاهرة سـلوكية كونية، وسـبل مواجهتها، في مجال التهذيب أو تعديل السلوك الإنساني، ونأخذ من التعريفات والأسباب والعوامل بقدر ارتباطها بهذا البحث.

العنف مصطلح واسع يضم أنواعاً كثيرة من الأذى، "وأسبابه شتى، إذا هددت شخصاً أو ضـربته لأنك عجزت عن إقناعه باللين، فهذا عنف العاجز.. عاشق يقتل في ثورة الغيرة، هو غير قاتل يغتال أحدهم لســبب ســياسي. والحرب غير ذلك كله، كقوله تعالى ﴿... وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[١٢]، مهما نرى من عنف بين الأفراد، فإن شجون العنف تدور حول انتشار العدوان الجماعي[١٣]، فهو ظاهرة ذات تجليات مادية ورمزية أفرزتها الإنســانية، أفراداً وجماعات، في مختلف مراحلها التاريخية، أي ظاهرة لها محددات اجتماعية واقتصـــادية ونفسـية وثقافية. كما أنه مفهوم، أي بناء نظري تجريدي، ينطوي على مداخل ومسـتويات معرفية متعددة، تروم العلوم الإنسـانية والطبيعية اسـتكشـاف مظاهرها ووصـف بنياتها، وتجتهد في إدراك وتفسير آليات اشتغالها[١٤].

١٠ - تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(٤/ ٨٠١).

١١ - كراسة مدرب بيئة خالية من العنف.

١٢ - سورة البقرة، الآية ١٩١ .

١٣ - الأسس البيلوجية لسلوك الانسان،مصدر سابق،(ص/٣٥٨).

١٤ - لغة العنف وعنف اللغة: مقاربة لسانية نفسية" أ.د. مراد موهوب، مصدر سابق، ص١

التعريفات الاصطلاحية:

تعريف (جميل صليبا)[١٥]: يعرفه جميل صليبا في معجمه الشهير: (المعجم الفلسفي) كالآتي: يكون العنف فعلاً مضاداً للرفق، ومرادفاً للشدة والقسوة. والعنيف(Violent) هو المتصف بالعنف. فكل فعل يخالف طبيعة الشيء، ويكون مفروضاً عليه من الخارج، فهو فعل عنيف. والعنيف أيضاً هو القوي، الذي تشتد ثورته بازدياد الموانع التي تعترض سبيله، كالريح العاصفة، والثورة الجارفة. والعنيف من الميول: الهوى الشديد الذي تتقهقر أمامه الإرادة، وتزداد ثورته حتى تجعله مسيطراً على جميع جوانب النفي. والعنيف من الرجال، هو الذي لا يعامل غيره بالرفق، ولا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه[١٦]. ففي جميع الأحيان هو عمل يعرف بضده، وهو يخالف أصلاً، فالأصل في الإنسان اللين والرفق، مع وجود العنف داخله بالقوة، وأمور خارجية تثيره وتوجهه إلى أمر غير سوي، وعنيف..

- **تعريف قاموس علم الاجتماع:**

أما في معجم (علم الاجتماع)، فإن العنف يظهر عندما يكون ثمة فقدان للوعي لدى أفراد معينين، أو في جماعات ناقصة المجتمعية، وبهذه الصفة يمكن وصفه بالسلوك (اللاعقلاني).. ففقدان الوعي، أو نقصه، يحول دون دمجه بين مجتمعه، أو يؤدي إلى تعطيل العقل، وسيره مسيرة لا عقلانية.. كلها تروم إلى أن الأمر غير طبيعي، مع أنه موجود في الطبيعة الإنسانية.

---

١٥ - ولد في القرعون (في لبنان حالياً) عام ١٩٠٢ م، وانتقل مع أسرته إلى دمشق عام ١٩٠٨م. إضافة إلى قدري طوقان و عمر فروخ، يعد جميل صليبا، - حسب د .يحيى عبد الرؤوف جبر أستاذ اللغة العربية في جامعة النجاح الوطنية-، أحد ثلاثة شاميين عرفوا بتفوقهم العلمي في العصر الحديث، وبجهودهم الكبيرة في خدمة العلم والتراث العلمي العربي. اهتم الثلاثة إلى حد كبير بإماطة اللثام عن إسهامات المسلمين – والعرب منهم – في تقدم البشرية، والقيام على العلوم المختلفة قروناً كثيرة، ابتداءً من القرن الثامن الميلادي وإلى أواخر القرن السابع عشر. أوفدته وزارة المعارف السورية عام 1921م، إثر ملاحظة نبوغه و تفوقه، في بعثة دراسية إلى فرنسا لمتابعة تحصيله العالي، حيث التحق بجامعة السوربون في باريس، وحصل منها على دبلوم التربية من معهد علم النفس عام ١٩٢٣ م وعلى درجة الإجازة في الآداب فرع الفلسفة عام ١٩٢٤ م ، ثم الإجازة في الحقوق عام ١٩٢٦ م. قدم إلى جامعة باريس أطروحة في فلسفة ابن سينا، وأطروحة في نظرية المعرفة على مذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية، فمنحته هذه الجامعة درجة الدكتوراه في الآداب عام 1927م (حسن، ديب علي. ٢٠٠٥. جميل صليبا بعد ثلاثين عاماً على الرحيل. أوراقه تبعث من جديد. الثورة عدد ٢٠٠٥/٩/٩. تاريخ الولوج ١٥ حزيران ٢٠٠٩.)

١٦ - المعجم الفلسفي، للدكتور جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

- **تعريف بول فولكي:**

يرى (بول فولكي) في قاموسه التربوي: أن العنف هو اللجوء غير المشروع إلى القوة، سواء للدفاع عن حقوق الفرد، أو عن حقوق الغير.. كما أن العنف لا يظهر بحدة، إلا في حالة وجود الفرد في مجموعة ما، وهو اللجوء غير المشروع.

- **تعريف أندري لالاند[١٧]:**

١. ركز (أندري لالاند) على تحديد مفهوم العنف في أحد جزئياته المهمة، على أنه عبارة عن (فعل، أو عن كلمة عنيفة)، وهذا ما يدخل في نطاق العنف الرمزي، فأول سلوك العنف هو الذي يبتدئ بالكلام، ثم ينتهي بالفعل. "وتوسعة دائرة التعريف من العنف الفيزيائي إلى الرمزي أو الإيمائي، وهذا ما صوره القرآن الكريم في: {عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءَهُ الأَعْمَى}(عبس/ ١،٢) ، فالعتاب هنا واقع على سيد البشر - عليه السلام - في حين أن المعاتب عليه لا يرى، فهو أعمى - على حد تعبير القرآن الكريم-، ولكن كان العتاب شديداً[١٨]، "وَجَاءَ لَفْظُ الْأَعْمى إِشْعَارًا بِمَا يُنَاسِبُ مِنَ الرِّفْقِ بِهِ، وَالصَّغْوِ لِمَا يَقْصِدُهُ"[١٩].

وهذا التوسع في تعريف القرآن الكريم لمفهوم العنف أكثر عمقاً وحقانيةً من النظريات الإنسانية، وهذا ما سنلاحظه في الفصول التالية.

---

١٧ - أندريه لالاند (André Lalande):فيلسوف فرنسي-(١٨٧٦-١٩٦٣) ولد في ديجون، ودرس في عدة مدارس ريفية، إلى أن انتقل إلى مدرسة هنري الرابع، فدار المعلمين العليا، ما بين ١٨٨٣ و ١٨٨٨. نال شهادة في الفلسفة عام ١٨٨٨، وشهادة الدكتوراه في الآداب عام ١٨٩٩. وفي سنة ١٩٠٩ صار أستاذاً مساعداً في الفلسفة بالسوربون، وأستاذ كرسي عام ١٩١٨، ثم عمل أستاذاً بالجامعة المصرية. تخرج على يديه الفوج الأول من طلاب قسم الفلسفة. ألف (المعجم الفلسفي)، المعروف بمعجم لالاند. ينظر(الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، عربي-انجليزي/ تأليف كميل الحاج ص ٤٨٨-٤٨٩.)

١٨ - في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي(ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ (٦/ ٣٨٢٥).

١٩ - تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي،(٦٥٤هـ/ ٧٤٥هـ)، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق، د.زكريا عبد المجيد النوقي) د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، لبنان/ بيروت(١٠/ ٤٠٦).

- **العنف عند ابن خلدون[٢٠]:**

رأى ابن خلدون أن العنف نزعة طبيعية، "ومن أخلاق البشـــــر فيهم الظلم والعدوان، بعضـهم على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه، امتدت يده إلى أخذه، إلا أن يصـده وازع"[٢١]. وقد تعرض ابن خلدون للعنف في نظريته عن الصـــراع، عندما عرف الصـــراع بأنه: هجوم البدو على الحضـــر، وتأسيس الدولة. أما أسبابه، فيردها إلى العصبية، و تعني عنده: "الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصـــرة". وأساس العصبية عند ابن خلدون هو الاستعداد الفطري الذي يدفع الفرد إلى نصرة قريبه بالدم، والدفاع عنه.

كما ورد العنف في شكله المؤسســـي (جزءاً من ممارسات السلطة الحاكمة) في الخطاب الســياسي عند ابن خلدون، إذ يلاحظ أن هناك حضــوراً مكثفاً لمفاهيم العنف، والمفاهيم الدالة على الاســتبداد[٢٢]. وهذا لا يحمل على وجه الإطلاق، لأننا وجدنا العنف عند من ينعتون بالحضـــريين أو المدنيين، ولم يكن التمدن حائلاً أو مانعاً من ممارسة العنف. فمع وجود ثورة في التكنولوجيا والمعرفة، أصــبح العنف ســمة من ســمات هـذه الثورة والتكنولوجيا، وقد بدا عند الحضــريين ما بدا عند البداوة، ولكن عندما تمتد عين الأخ على متاع أخيه، فهو الدافع لاستعمال العنف. والتطور الاجتماعي الذي واكب التاريخ الإنساني، وغير من معايير المناصرة، حيث كانت العصــبية والأرحام هما الجامع للحراك الاجتماعي، وأما اليوم فالمصالح الشخصية وتوافق المصالح، أضحت الجامع بين الأقوام والألوان، وحتى بين أديان _ في بعض الأحيان _ مختلفة، وتلك العصبية تروم إلى تحقيق مصالح معينة.

---

٢٠ - عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضــرمي الإشبيلي(١٣٣٢ - ١٤٠٦م) مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلســي الأصل، عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصـــر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن(٧٨٤-٨٠٨هـــ)، حيث تُوُفِّيَ عام ١٤٠٦ عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة، تاركاً تراثاً ما زال تأثيره ممتداً حتى اليوم. ويعتبر ابن خلدون مؤســس علم الاجتماع الحديث، وأباً للتاريخ والاقتصــاد.(موقع تاريخ الإســلام و ابن خلدون في إســلام أونلاين).

٢١ - مقدمة ابن خلدون(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الســلطان الأكبر)، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضـــــرمي)١٣٣٢م-١٤٠٤م)، دار القلم، ١٩٨٤، بيروت،(ص/٦١).

٢٢ - العنف في تراث علم الاجتماع، أســماء جميـل، مجلـة النبـأ، العـدد ٨٤ تشـــــرين الثـاني ٢٠٠٦م http://annabaa.org/nbahome/nba84.

وأما مقولة أن العنف من أخلاق البشـــر، فتلك مبناها أن الكينونة البشـــرية أو الفطرة البشـــرية تحمل في ثناياها الاستعداد لممارسة العنف، وأشار إلى وجود وازع أو رادع يردعه عن هذه الممارسة.

- **العنف عند الأوروبيين:**

وفي أوروبا، عكست الأفكار التي سادت في القرون الثلاثة الأخيرة (الثامن عشـــر والتاسع عشـــر والعشـــرون) اهتماماً واضحاً بالطبيعة البشرية، وعلاقة الفرد بالدولة، لتشمل ضمناً موضوع العنف والطبيعة النزاعية للإنسان[٢٣].

ويعد (توماس هوبز)[٢٤] أبرز المعبّرين عن أفكار تلك المرحلة، "أن حضـــور العنف في التاريخ الإنســاني مرده إلى الميل الدائم لدى الإنســان للصـــــــراع، والذي تغذيه الدوافع والرغبات المتنافســة. فالعنف الذي لازم الحياة الإنســانية هو النتيجة الحتمية المترتبة عن الإنصات لصوت الميولات الغريزية والاندفاعات النفسية العدوانية"[٢٥]، إذ يرى أن الطبيعة الإنســانية مشــبعة بالعنف، فالناس يتحركون بواســطة الرغبات نفســها، فمســألة إشــباع الطبيعة الإنســانية بالعنف هذه، فيها غلو في التقييم، مع أنه يعكس الحقيقة الإنســانية في كثير من المراحل، ولكن الذي يقوي هذا الجانب هو تغذية هذا الميل بالدوافع والرغبات والتنافس. يقول (فرويد): "إذا لم ينحدر الإنســان من ســلالات عريقة في القتل، لماذا نهت الوصـايا السـماوية عن القتل، وكان النهي قوياً"[٢٦]. وهذه الرغبات عادة ما تكون مستبدة وملحة، إما لأنها البديل الذاتي للحاجات البيولوجية الجامحة، وإما لأن إشباعها يشكل بحد ذاته سبباً كافياً للسعي إلى تجديدها، غير أن الإشباع الشخصـــي أو الجماعي محدود دائماً،

---

٢٣ - المصدر نفسه.

٢٤ - توماس هوبز و 5 .أبريل (1679 - 1588 هو فيلسوف إنكليزي، كتابه الشهير، في عام ١٦٥١، لقياثان وضع الأساس لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من وجهة نظر نظرية العقد الاجتماعي . ويُـــذكر هوبز اليوم لعمله في الفلســفة الســياســية، بالرغم من إســهاماته في مجالات شــتى، منها التاريخ، الهندســة ، الفيزياء الغازات، ثيولوجيا، الأخلاق، الفلســفة العامة، و العلوم الســياســية .بالرغم من ذلك كله فنظرية هوبز عن أن الطبيعة الـبشـــريـــة هـي مـهـتـمـة ذاتـيـاً بـالـتـعـاون، قـد ظـلـت صـــامـدة في حـقـل عـلـم الإنســـان الفلسفي .(http://www.marefa.org/index.php)

٢٥ - العنف، بحث قيم ومنشـــور ولكن لا يحمل اســـم الكاتب ولا أي معلومات لآخر، وينظر كتيب: فاعلية برنامج إرشـادي مقترح لزيادة مرونة الأنا لدى طالبات الجامعة الإسـلامية بغزة، الباحثة: ولاء اسـحق حسـان، إشراف: الدكتور نبيل كامل خان، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، الجامعة الإسـلامية غزة، عمادة الدراسـات العليا، كلية التربية، قسم علم النفس، إرشاد نفسي.

٢٦ - الأسس البيلوجية لسلوك الإنسان، مصدر سابق، ص ٣٦٣.

وذلك لأن الأغراض القابلة لإشباع هذه الرغبات تشكل كمية محدودة، ويترتب على مركب (الرغبة والندرة) هذا، تنافس دائم بين الناس. وبما أن أياً من الأفراد ليس قوياً بما فيه الكفاية ليفرض هيمنته بصورة دائمة، فإن عدم استقرار التنافس بين الناس يعرضهم لـ(مأكلة عالمية)، أو(حرب الجميع ضد الجميع).

وعلى خلاف (توماس هوبز)، يرى كل من (جان جاك روسو[٢٧])، و(كارل ماركس[٢٨])، أن العنف لا يمثل حالة طبيعية، فقد وجد (جان جاك روسو) أن الطبيعة البشرية أصيلة وخيّرة، وأن فسادها أمر تقرره الحضارة الإنسانية.

بينما وجد (كارل ماركس) أن العنف هو سمة للحالة الاجتماعية التي أفسدها الاستئثار بوسائل الإنتاج، فالتنافس بين الناس ذو أصل اجتماعي، يتعلق بملكية وسائل الإنتاج، لذلك فإن الصراع ليس بين الجميع ضد الجميع، كما ذهب (توماس هوبز)، وإنما هو صراع بين الطبقات".

كما أن اهتمام (كارل ماركس) انصب على العنف الثوري، والذي يقع بين الأنظمة الاجتماعية والحضارية، وأعتقد أن العرب لم يكونوا موفقين في تعريب كلمة (revolution)، لأن "الثورة تدرس على أنها ظاهرة اجتماعية تقوم بها فئة أو جماعة ما، هدفها التغيير (لا تشترط سرعة التغيير) وفقاً لأيدولوجية هذة الفئة أو الجماعة، ولا ترتبط بشرعية قانونية. كما تعبر عن انتقال السلطة من الطبقة الحاكمة إلى طبقة الثوار"[٢٩]. فإذا كانت لا تشترط السرعة، وهو عكس الفوضوية والإرباك الجماهيري والإتيان على الأخضر واليابس، وهذه النظرة حولت العالم إلى غابة ترتع بالمفترسات وسباع الطير، وجعلوا للحياة تعريفاً على أنها

---

٢٧ - جان جاك روسو 28 يونيو1712 ، جنيف 2 - يوليو1778 ، إيرمينونفيل هو كاتب وفيلسوف جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر العقل، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية .حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.(دين الفطرة، جان جاك روسو، نقله الى العربية، عبدالله العروي، المركز الثقافي العربي ط الولى ٢٠١٢م ص٦)

٢٨ - كارل هانريك ماركس، فيلسوف ألماني، واقتصادي، وعالم اجتماع، ومؤرخ، وصحفي واشتراكي ثوري(٥ مايو ١٨١٨م - ١٤ مارس ١٨٨٣م). لعبت أفكاره دورًا هامًّا في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية. واعتبر ماركس أحد أعظم الاقتصاديين في التاريخ. نشر العديد من الكتب خلال حياته، أهمُها بيان الحزب الشيوعي(١٨٤٨)، ورأس المال(١٨٦٧–١٨٩٤). ينظر: (سيرة مختصرة وعرض للماركسية، كتب: في جويلية–نوفمبر ١٩١٤ نشر لأول مرة: عام ١٩١٥ في الموسوعة الكبرى، الطبعة ٧، المجلد ٢٨)

٢٩ - المشاركة السياسية للمرأة في ثورتى مصر وليبيا ٢٠١١ دراسة انثروبولوجية ميدانية مقارنة، مروة تهامى،، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠١٣،(ص/٧).

تستحق من أجلها القتل والفتك والنيل من الآخرين، "وخلال تناوله للصراع ربط (ماركس) بين كل من التغيير والصـــراع و العنف، مؤكداً الدور الإيجابي الذي يؤديه العنف في حركة التاريخ، فالصـــراع يشير إلى وجود خلل في البنية الاجتماعية، أما العنف فهو شرط أساسي لتجاوز هذا الخلل ولإحداث التغيير، فهو (مولد كل مجتمع قديم يحمل في طياته مجتمعاً جديداً، كما أنه الأداة التي تحل بواســطتها الحركة الاجتماعية مكانها، وتحطم أشــكالاً سياسية جامدة وميتة).

أما (إميل دوركايم[٣٠])، فقد وجد في أثناء بحثه في التبديات الموضـوعية لإشـكاليات القهر والتسـلط في الحياة الاجتماعية، أن العنف ظاهرة ثقافية أتت مع رياح التطور الاجتماعي، ومع تحول المجتمعات الإنسـانية من مجتمعات بسـيطة إلى مجتمعات مركبة. وقد جانبه الصواب في توجهه، لأن الإنسان عندما يستعمل العنف فهو يستمع إلى داخل كيانه. وكما قلنا: الإنسان كائن مفطور على الشـــر، كما هو مفطور على الخير، فالتغذية من أي جانب أتت تتقوى وتتهيمن:[فـأَلْهَمَهـا فُجُورَهـا وَتَقْواهـا قـد أفلح من زكـاهـا وقـد خـاب من دساها](الشمس٧-١٠). "فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها" الإلهام: إيقاع الشـيء في النفس. وقوله عزّ وجلّ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها، وهذا جواب القســم، وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قد أفلحت نفس زكاها الله عزّ وجلّ، قاله ابن عباس، ومقاتل والفراء، والزجاج. والثاني: قد أفلح من زكّى نفســه بطاعة الله وصــالح الأعمال، قاله قتادة، وابن قتيبة. ومعنى زَكَّاها: أصــلحها وطهّرها من الذنوب. قوله: وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّــاها، فيه قولان أيضــاً: فإن قلنا: إن الفعل لله، فمعنى «دساها»: خذلها، وأخملها، وأخفى محلها بالكفر والمعصية، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح.

وإن قلنا: الفعل للإنســان، فمعنى «دســاها»: أخفاها بالفجور. معنى «دسّــاها» جعلها قليلة خسيسة[٣١].

والتطور على جميع الأصعدة والمستويات يؤثر في دينامية الفعل وليس في جوهره.

---

٣٠ - إميل دوركايم 15 ابريل 15 - 1858 نوفمبر 1917 فيلسوف وعالم اجتماع فرنســي .أحد مؤسســي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معاً. أبرز آثاره: في تقسيم العمل الاجتماعي De la division du travail social عام 1893، و قواعد المنهج السوسيولوجي Les Règles de la méthode sociologiqueعـام .1895 (ينظر: أميـل دوركـايم: ملمح من حيـاتـه وفكره لأنثروبولوجي، د. عبدالله عبدالرحيم يتيم إضافات العدد٢٥ شتاء ٢٠١٤م)

٣١ - زاد المسير في علم التفسير مصدر سابق(٤/ ٤٥١) بشيء من التصرف.

وأكد(سبمنسر[٣٢]) في تصوره للنزاع والعنف: أنه قائم بين الجماعات بسبب الاختلاف في طرائقها الشعبية وأعرافها، في حين اختلف (كمبلوفتش) عن (سبمنسر) في اعتقاده بأن النزاع متأصل في طبيعة المجتمع الإنساني، وهو يبدأ من الجذور الأولى للنشأة الإنسانية؛ إذ إن الرسوس Races ذات نشأة جينية متعددة، وهذا يعني وجود عدائية موروثة في الرسوس البشرية ضد بعضها، مما يحول هذه الحالة إلى وضع مستمر وصيغة للتعامل على المستوى الإنساني[٣٣].

يعد (زيمل) أبرز من تعامل مع ظاهرة العنف – بمستواه الاجتماعي- كما يتبدى على شكل تعبيرات عدائية تصدر عن الأفراد، إذ وجد أن هذه التعبيرات تؤدي وظائف إيجابية للنظام الاجتماعي، إذ إنها تعمل على استمرار العلاقات تحت ظروف التوتر والضغط، ومن ثم تحول دون انحلال المجموعة وتفككها بانسحاب المشاركين فيها.

يعزو (توينبي) ظاهرة العنف في المجتمعات الحديثة إلى انعدام الذاتية الفردية، وانسحاق الفرد في آلية الحياة الميكانيكية من جهة، وفي آلية الحياة الاجتماعية، من جهة أخرى[٣٤]. ويتهم كلاً من الرأسمالية (بتأكيدها القيم التنافسية)، والشيوعية (بتغييبها للفردية، وتأكيدها على الجماعة) بأنهما سبب في ظهور العنف بالكثافة التي تشهدها المجتمعات الحالية[35].

---

٣٢ - هربرت سبنسر(Herbert Spencerهو فيلسوف بريطاني 27)ابريل 8 - 1820 ديسمبر.(1903 مؤلف كتاب (الرجل ضد الدولة) الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. كان سبنسر، وليس داروين، هو الذي أوجد مصطلح (البقاء للأصلح). رغم أن القول ينسب عادة لداروين وقد ساهم سبمنسر في ترسيخ مفهوم الارتقاء، واعطى له أبعاداً اجتماعية، فيما عرف لاحقاً بالداروينية الاجتماعية. وهكذا يعد سبنسر واحداً من مؤسسي علم الاجتماع الحديث. يعتبر سبنسر أحد أكبر المفكرين الإنجليز تأثيراً في نهاية القرن التاسع عشر ولد سنة ١٨٢٠ وتوفي سنة ١٩٠٣ وهو الأب الثاني لعلم الاجتماع بعد أوجست كونت الفرنسي، [1]اشتهر بنظريته عن التطور، وقد استند على هذه النظرية في وضع الأسس لنسق ومنظومة اجتماعية (سوسيولوجية) تؤكد التطور تجاه تعقيد اجتماعي متزايد وارتفاع درجة الفردية، فالمجتمع في نظره مثل الكائن الحي المعقد، يتصف بحالة من التوازن الدقيق ولا ينبغي ألاّ يسمح إلّا لعملية التطور الطبيعية بالتأثير في نموه. (عجم علم الأخلاق، ايغور كون، دار التقدم ١٩٨٤، ص ٢٢١)

٣٣ - من ماهيات ثورة ١٤ تموز الحلقة الخامسة(العنف) د.عقيل الناصري الحقيقة جريدة يومية سياسية عامة 10/03/2015.

٣٤ - المصدر نفسه.

35 - العنف في تراث علم الاجتماع، ثقافية عامة، بتصرف. العنف السياسي ضد المرأة المصرية- عقبة في طريق المشاركة السياسية، إعداد: فاطمة قناوي، ولاء جاد الكريم، شارع مصر حلوان الزراعي - المطبعة – ح المعادي.

ومنهم من درس[٣٦] العنف الاجتماعي في إطار العلاقات النظامية التي تحددها القوانين المدونة أو المتعارف عليها، ففي هذه العلاقات يتوقع كل شخص فيها سلوك وأخلاق الشخص الآخر، ومثل هذا التوقع يفهمه الشخص الذي يكون العلاقة الاجتماعية، ويساعده في تحقيق أهدافه وطموحاته، لكن كل علاقة اجتماعية معرضة لاحتمالين: الاحتمال الأول هو عدم قدرة الشخص على معرفة توقع سلوك الشخص الآخر الذي يدخل في علاقة معه، والاحتمال الثاني هو معرفة الشخص توقع سلوك الشخص الآخر، بيد أن هذا التوقع لا يساعده في تحقيق طموحاته وأهدافه، وفي هذه الحالة تتحول العلاقة إلى صراع بين الطرفين، ويصبح العنف حتمياً"[٣٧].

هذا ما تناوله المفكرون وعلماء الاجتماع، وكما رأينا لم يكن هناك توافق بين هذه التعريفات، فمنهم من أرجعه إلى الكينونة الإنسانية، ومنهم من أرجعه إلى طبيعة المجتمع، ومنهم من فسره بصراع الطبقات. ففي جميع الحالات صور العنف بأنه سلوك يبدر من الإنسان وهو غير مرحب به، ولا يعتبر حالة تبدر من إنسان سوي، وفي حال سوي. ومن الجانب السياسي، أصبح هذا المفهوم دائرة سوء على الآخر، من قبل الآخر، بمعنى أنه تهمة هذا العصر يطلقها الكل على الآخر، فالحكومات تطلقها على المعارضة، والمعارضة على الحكومات، والزوج على زوجته، والزوجة على زوجها، والفصائل تطلقها على بعضها، والغرب على الشرق، والشرق على الغرب. ولا نختلف على أن القائم بالعنف هو الإنسان، والواقع عليه أيضاً هو الإنسان، إذن الإنسان يُتأثر ويُؤَثِر، ويَعنِفْ ويُعنَفْ.

لقد شكلت أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ منعطفاً جديداً لبروز مصطلح جديد يحمل مفهوماً معبئاً غربياً إلى الساحة العالمية، وتحديداً[٣٨] إلى العالم الإسلامي، وقد تمحورت الأحاديث والحوارات والمبررات حول العنف، وكما صاغه الغرب، وما تلته من حروب استباقية واستباحة الحرمات، فكان العنف ذريعة مخجلة بأيدي أمريكا لضرب خصومها، أو ابتزازهم. وعندما نتحدث عن العنف نتناوله فقط من جانبه السياسي، ووفق ما رسمه الغرب، والمدان فيه والمتهم هم المسلمون، مع أن العنف - كما أشرنا، وفق جميع التعريفات - ظاهرة بشرية، والأفكار والمفردات ليست إلا ذريعة أو مسوغ لتلك الممارسات. وقد "لوحظ في السنوات الأخيرة في المجتمعات الإنسانية تردد وشيوع كلمة

---

٣٦ -(تالكوت بارسونز).

٣٧ - العنف في تراث علم الاجتماع، ثقافية عامة بتصرف. العنف السياسي ضد المرأة المصرية .. عقبة في طريق المشاركة السياسية، إعداد: فاطمة قناوي، ولاء جاد الكريم، شارع مصر حلوان الزراعي - المطبعة – ح المعادي

٣٨ - ينظر: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، إبراهيم الحيدري، دار الساقي، ٢٠١٥م،(ص/٩).

العنف، فأصـــبحت أكثر الكلمات تداولاً في الإعلام العالمي، وفي الأحاديث اليومية العادية، كما ارتبطت بكثير من الأحداث والظواهر، مثال: "التطرف والعنف – العنف الأســـــري- العنف المجتمعي – الإدمان- جنوح الأحداث - الإرهاب والعنف – العنف الأبوي، وغيرها".

عرف التاريخ البشـــــري أشكالاً عديدة من العنف تتراوح بين التجويع والإعدام، ومن السمات المميزة للقرن الـ٢٠، أنه شهد الحرب العالمية الأولى والثانية، وانتهت الحرب الثانية بالكارثة النووية (هيروشيما)، والعديد من الإبادات الجماعية، وأشكال من العنصـــــرية والاضـطهاد، ومن الحروب الاسـتعمارية، وحروب المقاومة والتحرير، والأنظمة العسـكرية، ومعسكرات الاعتقال والإجرام"[٣٩].

ولا يخفى على أي متخصـــص، أو حتى غير متخصـــص، زيادة نبرة العنف في المجتمعات، وتقلص مساحة الطيبة والتسامح. وتزداد الصورة وضوحاً حين نتتبع نمط جرائم القتل في السنوات الأخيرة، فعلى الرغم من كون القتل فعلاً شديد العنف في حد ذاته، الا أن حوادث القتل الأخيرة تشير إلى حجم هائل من القسوة والوحشية والرغبة في الانتقام"[٤٠]. "ونرى وفق النظريات التي عرضـتها الأبحاث، أنه لا بد من تثبيت الحقائق التالية قبل الدخول في تفاصيل هذا العالم (العنف) المتشابك والمتناقض، والتي من شأنها إنارة الطريق للدراسة:

١- إجماع أغلب المؤرخين والمفكرين بأن تاريخ البشـــــرية هو تاريخ العنف، حيث تُشير الأرقام أنه وخلال ٥٥٠٠ سنة وقع في الأرض ما يقارب ١٥ ألف حرب وصراع (بمعدل ٢- ٣ صراعات وحروب في الســنة)، قتل فيها أكثر من (٣٥٤٠) مليون إنســان[٤١]، ولم تعش البشـــــرية في حالة وئام وسلام إلا في غضون ثلاثمائة سنة ليس أكثر. "الإنسان كائن عنيف وعدواني بطبعه، على اعتبار أنه يتوفر على أهواء وغرائز فطرية تحتم عليه القيام بسلوكات

---

٣٩ - http://edorous.com/philosophie-

٤٠ - تحليل ظاهرة العنف واثره على المجتمع، د. علي إسماعيل مجاهد عضو هئية التدريس- الأكاديمية المكلية للشرطة

٤١ - كما تشير الأرقام أيضاً إلى أنه في القرن السابع عشر هلك(٣،٣) ملايين إنسان، وفي القرن الثامن عشر هلك (٥،٢) ملايين، وفي القرن التاسع عشر هلك (٥،٥) ملايين إنسان، أما الحربان العالميتان فقد حصدتا (٩،٥) مليون إنســـان في الأولى، وما يقارب الخمســـن مليون في الثانية. وإن ما نراه اليوم من إنجازات العصـــور الغابرة كالأهرامات وغيرها يخفي عنفاً إنسانياً قل نظيره، حيث تقول (روزا لوكسـمبرغ) (١٨٧١- ١٩١٩) "إن التاريخ لم يثبت لنا أكثر من أن جميع الحروب والحضـــارات التي قامت حتى الآن كان عمادها الدم والجماجم، جماجم الفقراء بدءاً من الملايين التي سحقت تحت حجارة الفراعنة، ووصولاً إلى الملايين الإفريقية التي شـــرب الفراعنة رأس المال في أوروبا وأمريكا نخب حضارتهم المزيفة بجماجمها في أسواق النخاسة، والتي ستبقى جرحاً غائراً في ضمير البشرية.(العنف مقدمات ونتائج).

ذات نزعة تدميرية قصد بها إشباع تلك الغرائز، ورغم أن للإنسان عقلاً فإنه لا يقوى على كبح جماح تلك النزعة التدميرية، الأمر الذي يستوجب استخدام كل الوسائل للتخفيف أو الحد من خطورة التهديد الذي يتوعد المجتمع والحضارة الإنسانية"[٤٢]. وقد جاء هذا الوصف على حصر الإنسان في جانبه الحيواني، دون الوقوف على جانبه الخيري والتزكوي، العالم ليس فارغاً من الخير، وكذا الإنسان. والنماذج المستعرضة في هذا السياق نماذج جزئية.

٢- الإشكالية المرافقة لمفهوم العنف، من حيث ضبط المصطلح وتحديده، أنه قد يختلط بالمقدس، فالعنف عامة، والعنف المقدس، في النهاية، شيء واحد. فالفكر الأثنولوجي[٤٣] يقبل بوجود كل معاني العنف في المقدس، ولكنه يضيف إلى ذلك بأن المقدس يتضمن شيئاً آخر غير العنف العام، وقد يكون هذا الشيء نقيضاً للعنف، فهناك النظام والفوضى، الحرب والسلم، الخلق والتدمير، حتى ليبدو أن المقدس يتضمن أشياء متنافرة إلى درجة يعجز معها الأخصائيون عن حل هذا التشابك، بل عجزوا حتى عن إعطاء تعريف مبسط للمقدس.

٣- تغليب المظهر السياسي للعنف على باقي المظاهر العنيفة، حتى ليكاد يبدو أن العنف لا يتمظهر ولا يتجسد إلا عبر السياسة، وتغييب الأشكال الأخرى (الأسري والاجتماعي).

تعاطي أغلب المثقفين مع العنف عبر ما يفرزه من نتائج، وما يخلفه من آثار، وليس عبر أسبابه المكونة له، إذ يتم تغييبها لأغراض التوظيف السياسي غالباً"[٤٤] ❐

٤٢ - سيغموند فرويد.

٤٣ - الإثنولوجيا علم الأجناس البشريّة وخصائصها وأخلاقها وتفرّقها..

٤٤ - الفكر السياسي العنف مقدمات ونتائج، سهيل العروسي، ص١٢٦.

أدعياء اليهود للمسيحانية في العصر الإسلامي
حركة داود الروحي العمادي نموذجاً

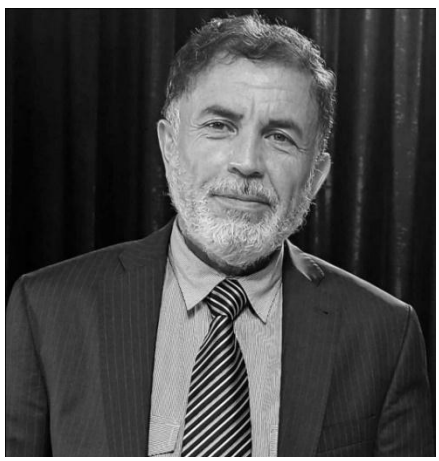

أ.د. فرست مرعي

المقدمة

✍ إذا كانت الدراســـات والبحوث قد اهتمت إلى حد ما بأدعياء النبوة في التاريخ الإسـلامي، فإن مثل هذه الدراسـات لم تتطرق إلى اليهود الذين ادعوا المسـيحانية بالمفهوم التوراتي، أو النبوة والمهدية بالمفهوم الإســلامي. والســبب في اعتقاد الباحث يعود بالدرجة الأولى إلى عدم اهتمام المؤرخين بهذه المجالات التي تخص فئة هامشــية تنتمي إلى أهل الذمة ليس لها تأثير على مجريات الأمور في الدولة الإسـلامية، فضـلاً عن قلّة المعلومات في هذا الجانب.

وقد شـهد العالم الإسـلامي ظهور العديد من الحركات اليهودية المسيحانية الكاذبة، حيث كانت البلدان الإسـلامية تعد وبحق أرضـاً خصـبة لمثل هذه الأفكار، نتيجة الحرية والأمان الذي عاشــه اليهود في ظل الإســلام، تلك الحرية التي منحتهم مســاحة كبيرة من التفكير والدرس والبحث، وصــلت بهم حد دراســة التأويلات والتفســيرات الباطنية والصــوفية

كالقبالة[1]، ومكنتهم من طرح ادعاءاتهم بدون أية مواربة أو مخاوف. وقد كان من أهم تلك الحركات المسيحانية: حركة أبو عيسى الأصفهاني، حركة اليوذعانية، وحركة داود الروحي، وغيرها.

يرجع اختيار الباحث لهذه الحركة نموذجاً للدراسة، لأن الروايات المتعلقة بالمسيح الدجال - على حد تعبير الباحث اليهودي الألماني (إريك براور) - هو أهم مادة مفردة نمتلكها حول تاريخ اليهود الكورد[2]، كما أن هذه الحركة لم تلق الدراسة ولم تشبع بحثاً من قبل المؤرخين المسلمين. فضلاً عن ذلك، فإن الروايات المتعلقة بتلك الحادثة قليلة جداً، لذا حاولت - بقدر الإمكان - إلقاء الضوء عليها، مستفيداً في هذا الجانب من روايات المؤرخين والباحثين اليهود، ودائرة المعارف اليهودية (الإنسكلوبيديا اليهودية)، لعلها تضفي مورداً

---

[1] - القبالة: هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود. والاسم مُشتَّق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو التقبل أو ما تلقاه المرء عن السلف، أي (التقاليد والتراث)، أو (التقليد المتوارث). وكان يُقصَد بالكلمة أصلاً: تراث اليهودية الشفوي المتناقل، فيما يعرف باسم (الشريعة الشفوية)، ثم أصبحت الكلمة تعني، من أواخر القرن الثاني عشر= «أشكال التصوف والعلم الحاخامي المتطورة» (إلى جانب مدلولها الأكثر عموماً، باعتبارها دالاً على سائر المذاهب اليهودية الباطنية منذ بداية العصر المسيحي). وقد أطلق العارفون بأسرار القبَّالاه (مقو باليم بالعبرية، والقبَّاليون بالعربية) على أنفسهم لقب (العارفون بالفيض الرباني). ومصطلح (قبالة) واحد من مصطلحات أخرى تشير إلى المدلول نفسه، فالتلمود يتحدث عن (رازي هتوراه)، أي (أسرار التوراة). وقد كان يُشار إلى المتصوفين بعبارات: (يورديّ مركافاه)، أي النازلون إلى المركبة، و(بعلي هاسود)، أي أسياد أو أصحاب الاسم، و(إنشي إيموناه)، أي رجال الإيمان، و(بني هيخلاه دي ملكا)، أي أبناء قصر الملك. وكان القبَّاليون يرون أن المعرفة، كل المعرفة (الغنوص أو العرفان)، توجد في أسفار موسى الخمسة، ولكنهم كانوا يرفضون تفسير الفلاسفة المجازي، وكانوا لا يأخذون في الوقت نفسه بالتفسير الحرفي أيضاً. فقد كانوا ينطلقون من مفهوم غنوصي أفلاطوني مُحدَث، يُفضي إلى معرفة غنوصية، أي باطنية، بأسرار الكون، وبنصوص العهد القديم، وبالمعنى الباطني للتوراة الشفوية. (لمزيد من المعلومات راجع: عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج ٥، ص ٣٤٥).

[2] - يهود كردستان، أكمله وأصدره: رافيل باتاي، نقله إلى العربية: شاخوان كركوكي وعبد الرزاق بوتاني (أربيل: دار ئاراس،٢٠٠٢)، ص ٦٣.

جديداً على التاريخ الإسلامي عامةً، وتاريخ كوردستان خاصة، وتوضح من جانب آخر طريقة استيعاب وتفكير القوم لهذه الحركة، وانعكاسها على مجمل الأوضاع السياسية والدينية في تلك الحقبة المهمة من التاريخ الإسلامي.

أما الموضوع، فقد وقع اختياري عليه لسببين؛ أولهما: دراسة الحركات اليهودية المسيحانية في ظل الخلافة العباسية، وأثرها على اليهود في مختلف أقطار المشرق الإسلامي. ومحاولة تفنيد آراء بعض المستشرقين والمؤرخين اليهود، حول تعرض اليهود لأشكال من الاضطهاد والتمييز والتهميش، أدت إلى ظهور مثل هذه الادعاءات. حيث كان المستشرق الفرنسي (كلود كاهين) واضحاً في التعليق على هذا الموضوع الحساس، في معرض كتابته عن الأقليات غير الإسلامية – أهل الذمة (اليهود) خلال العصر الإسلامي-، ومقارنته بوضعهم في الحقبة المسيحية الوسيطة في أوروبا بقوله: "ليس ثمة شيء في الإسلام في القرون الوسطى يمكن تسميته تحديداً بمعاداة السامية".

كما إن الموضوعية تحتم علينا أن نحاول مقارنة عدم التسامح المسيحي بنظيره الإسلامي، لما لهما من أوجه شبه وأوجه اختلاف، فالإسلام - بغض النظر عن العديد من الاضطرابات والقلاقل- قد أظهر من التسامح والود إزاء اليهود الذين عاشوا في بلاد المسلمين أكثر مما أظهرته أوروبا[٣].

أما المستشرق اليهودي - البريطاني – الأمريكي (برنارد لويس)، الذي يعتبر مؤلفه (اليهود في الإسلام) أكثر تقييماً للاعتدال بشأن وضع اليهود تحت النفوذ الإسلامي في العصور الوسطى الإسلامية، فيقدم تفسيره الخاص لإحساس اليهود بوضع أفضل تحت حكم الإسلام منه في ظل المسيحية، قائلاً: "عندما نقارن موقف المسلمين من اليهود، ومعاملتهم إياهم، في القرون الوسطى، بوضع اليهود بين جيرانهم المسيحيين في أوروبا الوسيطة، فإننا نرى عدداً من المقابلات الصارخة... إن معاداة اليهود في المجتمع الإسلامي ليست من جهة لاهوتية... إنها بالأحرى ذلك الموقف المعهود من قبل الغالب إزاء المغلوب، موقف الأغلبية إزاء الأقلية، دون ذلك البعد اللاهوتي الإضافي، وبالتالي البعد النفسي الذي يضفي على نزعة معاداة السامية لدى المسيحيين طابعها الأوحد والخاص"[٤].

---

[٣] - مارك ر. كوهين: بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى، ترجمة: إسلام دية ومعز خلفاوي، قدم له: صادق جلال العظم (كولونيا- ألمانيا: منشورات الجمل،٢٠٠٧)، ص ٢٠ -٢١.

[٤] - كوهين: بين الهلال والصليب، ص ٢٢.

أما السبب الثاني، فهو أن هذا الموضوع، وهو اضطهاد الشعوب الإسلامية لليهود، فيما يعرف بـــ(معاداة السامية)، قد صار لغة العصـــر، وموضوعه. هذا من جانب؛ ومن جانب آخر، فإن مثل هذه الموضوعات لا تدعم كراهية الإســـرائيلي لغيره من البشـــر، وترسخ في وجدانه حب الأنا وتفردها فحســـب؛ بل إنها تلقى رواجاً وقبولاً على كافة الأصـــعدة في إسـرائيل، وتدرس في المدارس والجامعات الإسرائيلية. أضف إلى ذلك، أن غالبية هذه النخبة من المؤرخين الإســـرائيليين هم من مؤلفي كتب التاريخ المدرسية، والجامعية، في مراحلها المختلفة، في إســـرائيل. ومن هؤلاء: مناحيم شترن، وأريئيل ربابورت، وبروريا بن باروخ، في العصـــرين اليوناني والروماني، وبت تسيون عراقي كلورمان، ويســـرائيل جرشوني، في فترة ما بعد ظهور الإسلام[٥].

ولبيان تهافت مثل هذه الادعاءات التي ليس من ورائها طائل، فإن معاملة الفاتحين المسلمين لليهود كانت حسنة في فترة الفتوح وما بعدها في العصـــــرين الأموي والعباسي، قياســـاً بما لاقوه على يد البيزنطيين والســـاســـانيين.. فقد كانت تدابير الإمبراطور البيزنطي (هرقل Heraclius) شديدة ضدهم، بحيث جعلتهم يعملون مع العرب المسلمين في الشام ضـد الروم البيزنطيين، حتى وصـل الأمر بالخليفة الأموي معاوية بن أبي سـفيان إلى إسـكان جماعة منهم في مدينة (طرابلس) (= اللبنانية) المعرضة لهجمات الأسطول البيزنطي[٦].

وجاءت الفتوح الإسـلامية بتحسـن كبير في وضـع اليهود، وأكد الخلفاء الراشـدون ذلك في وصـــاياهم بأهل الذمة. وتعطي الروايات اليهودية صـــورة طيبة لنظرة الخلفاء الأوائل للجماعات اليهودية، وخاصـــة في العراق[٧].. وفي الشـــام، كانت المعاملة حســـنة، وعومل

---

[٥] - هاني عبد العزيز السيد سالم: الحركات اليهودية المسيحانية في ظل الإسلام، حركة شبتاي زيفي نموذجاً، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي للتاريخ والحضـــارة الإســـلامية في جامعة مالايا، كوالالمبور، تشرين الاول ٢٠١١م، ص ٩١٢.

[٦] - البلاذري: فتوح البلدان، حققه وعلق حواشـــيه وأعد فهارســـه وقدم له: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (بيروت: مؤسسة المعارف،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص ١٧٤، .

[٧] - عبد العزيز الدوري: اليهود في المجتمع الإســـلامي عبر التاريخ، في أوراق في التاريخ والحضـــارة (بيروت: دار الغرب الإســـلامي، ١٤٢٨هـــــ -٢٠٠٧م)، ج٣، ص ٩٤ – ٩٥ نقلاً عن Cambridge History of Religion in The Middle East.

"اليهود السـامرة"[٨] معاملة خاصـة، لتعاونهم مع العرب المسـلمين.. وكان التزام الأخيرين بالعهود، وحمايتهم لأهل الذمة، مدعاة احترام هؤلاء، ومودتهم. وفوق ذلك، فإن الشـريعة الإسلامية لا تميز بين اليهود وغيرهم، من حيث الوضع القانوني، وهذا يعود إلى نظرة الإسلام المفتوحة لأهل الكتاب[٩].

لقد أكد الإسلام على وحدة الأديان السماوية في الأصل الإبراهيمي، ووفر للآخرين حرية العقيدة، ما داموا يلتزمون بالعهود، ولا يعتدون على المسـلمين، أو يعينون عليهم. وترك المسلمون لأهل الذمة شؤونهم الخاصة وفق شـرائعهم، واستعانوا بالذميين من اليهود والنصارى، في الوظائف المالية والكتابية، للاستفادة من خبراتهم. وكانت سمة التسامح على أشـدها في صـدر الإسـلام، ولا يمكن تفسـير ذلك – كما حاول البعض من المستشـرقين

---

[٨] - السامرة، وهي باللغة العبرية (شومرون)، التي تعني عاصمة مملكة إسـرائيل، التي يوجد فيها جبل جريزيم الذي كان يحج إليه السـامريون في عيد الفصـح. وقد شـكلت السـامرة أقلية صـغيرة العدد في مصـر، أيام سلاطين المماليك. هذا فضلاً عن أن بعض المصادر المعاصـرة قد أشارت إلى أن السـامرة ليسـت من اليهود، ومع هذا فقد عاملهم سـلاطين المماليك على أسـاس أنهم فرقة يهودية ينطبق عليها شـروط أهل الذمة. وقد نشأت هذه الطائفة في فلسطين، بعد سقوط مملكة إسـرائيل -التي انشقت بعد وفاة سليمان- على يد الملك الآشوري (تجلات بلاصـر) عام ٧٣٨ ق.م الذي أجلى اليهود عن فلسـطين إلى نواحي شـمال بلاد ميديا (= كوردسـتان)، وأحل محلهم بعض القبائل في سـكنى عاصـمة المملكة، وهي مدينة السـامرة القديمة، التي يعيشـون حولها، والتي قامت على أنقاضها مدينة نابلس. ويذهب بعض الباحثين اليهود إلى أن نشأة هذه الفرقة ترجع إلى أيام السبي البابلي عام ٥٨٦ ق.م. وفي هذا التاريخ بنى السـامريون هيكلهم فوق جبل جرزيم. وقد اشـتدت العداوة بين هذه الفرقة وبقية اليهود، عندما رفضوا المساهمة في بناء الهيكل الثاني، إذ كانوا يعتبرون أن المكان المقدس لليهودية هو جبل جرزيم في نابلس، وليس جبل صـهيون وأورشـليم. وقد أضـاف هؤلاء إلى التوراة عبارات توحي بقدسـية هذا الجبل. ومن المعروف أن السـامرة يصـعدون (جبل جرزيم) ثلاث مرات في السـنة، حاملين معهم حمامة ذهبية، ليقدموها قرباناً على المذبح في أعلى الجبل، وهم لا يحجون إلى القدس، ذلك لأن جبل جرزيم يحتل عندهم مكاناً مقدسـاً، بدلاً من القدس، وهم يقدمون الشاة في عيد الفصح محتفظين بعظامها سليمة. ينظر: محاسن محمد الوقاد: اليهود في مصر ـ المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة (د،م، الهيئة المصـرية العامة للكتاب،١٩٩٩)، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

[٩] - البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٨.

وتلامذتهم التفوه به-؛ بحاجة العرب المسلمين إلى الشعوب الأخرى في الإدارة، وغيرها، بل هي الثقة بالنفس، وروح التسامح[١٠].

عقيدة انتظار المخلص الموعود من نسل داود: المسيحانية"Messianism"

اصطلحت العبرية على استخدام لفظ (مشيحوت)، للتعبير عن مبدأ الإيمان بخلاص شامل يتحقق على يد الملك المسيح (هامشيح)، الذي يعتبر قدومه مؤشراً لبداية مستقبل مثالي بكل ما فيه. وهي مأخوذة من الفعل العبري (ماشح)، الذي يعني، في عبرية العهد القديم، أن يمسح بالزيت المقدس. أما مصطلح (المسيحانية/Messianism)، فهو مشتق من اللغة العبرية، من الفعل: (ماشيح Mashiach)، الذي يعني: "الممسوح بدهن الزيت المقدس- هامشيح": "The Anointed one"، على عادة بني إسرائيل في مسح الطفل، أو الملك المتوج، بدهن الزيت، كسِمة للقداسة "Yehoshua" أي (يهوه المنقذ)، وقد حور الاسم واتخذ صيغة (يشوع): "Yeshu"، وهو الاسم الذي عرف به السيد المسيح -عليه السلام-، والذي يعني "الربُّ يخلص"[١١].

وقد ترددت اللفظة اسماً ومصطلحاً معاً، في الكتاب المقدس: العهد القديم، والجديد، ولمرات عديدة. ففي (سفر صموئيل الثاني) (٥١/٢٢) نقرأ: "أحمدك يا رب، وأورنم اسمك بين الأمم نصراً عظيماً يمنح ملكه ويظهر رحمته لمن مسحه، لداود وذريته إلى الأبد"[١٢].

وجاء في (سفر اشعيا): "سيخرج من جذع يسي (والد نبي الله داود -عليه السلام-) وينمو غصن من أصوله، روح الرب ينزل عليه.. لا يقضي بحسب ما ترى عيناه. ولا يحكم بحسب سماع أذنيه، بل يقضي للفقراء بالعدل، وينصف الظالمين بكلام كالعصا، ويميت الأشرار بنفخة من شفتيه. يكون العدل حزاماً لوسطه، والحق مئزراً حول خصره، فيسكن الذئب مع الخروف، ويبيت النمر بجانب الجدي"[١٣].

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل المسح بالزيت (مسحاء الله)، وينهى العهد القديم عن المساس بهم، كما جاء في (سفر أخبار الأيام الأول) (٢٠/ ٢٢): "لا تمسوا مسحائي،

---

١٠ - عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ج٣، ص ٩٥.

١١ - عرفان عبد الحميد فتاح: اليهودية عرض تاريخي، والحركات الحديثة في اليهودية (عمان: دار عمار للنشر، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م) ص٢٥-٢٦. نقلا عن The Encyclopedia of Religion

١٢ - الطبري: التفسير ٣٥/٦،

١٣ - العهد القديم، سفر اشعيا :١١، وانظر أيضاً: سفر صموئيل الأول :١٣/١٦ (فحلّ روح الرب على داود من ذلك).

ولا تؤذوا أنبيائي". وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة، فكان (شاؤول) و(داود) من هؤلاء المسحاء. ثم أطلقت كلمة مسيح مجازاً على كل مختار منذور. فقد ورد في (سفر اشـــعيا): "إن كورش الملك الفارسي(=الأخميني) كان مســـيحاً للرب. لأن الرب أخذ بيده لإهلاك أعداء بني إسـرائيل، وإقامة الهيكل من الجديد".

وجاء في (الإنجيل): "وبينما هو يفكر (يوســـف النجار) في هذا الأمر، ظهر له ملاك الرب في الحلم، وقال له: "يا يوسف ابن داوود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأة لك، فهي حبلى من روح القدس، وستلد ابناً تسميه (يسوع)، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم"[١٤]. وجاء أيضاً: "ولما بلغ الطفل يومه الثامن، وهو يوم ختانه، سمي **يسوع**، كما سماه الملاك قبلما حبلت به مريم"[١٥].

ومع تخصيص جذع يسـي (والد النبي داود-عليه السلام-) بدور القيام بمهمة المسيحانية المنتظرة، وتحقيق الخلاص النهائي لبني إسرائيل على يده، فإن الاسـم واللقب قد أطلقا على آخرين لا يمتون بصلة رحم إلى الفرع المنتخب إلهياً من بين فروع بني إســـرائيل الأخرى (بني يعقوب –عليهم السلام-).

وقد شاع استخدام هذا الفعل في كتاب العهد القديم، للتعبير عن مسح الكهنة والأنبياء والأمراء، وبعض الأدوات والأشياء. وهو تقليد كان شائعاً لدى شعوب الشـرق الأدنى القديم. ولما كان المسح بالزيت يضع الشخص الممسوح في مكانة أعلى من جميع إخوانه، لكي يكون في خدمة الرب؛ فإن ذلك يجعله أكثر قرباً من يهوه، كما يجعله مختاراً منه، ويقوم بالحكم نيابة عنه، ويمنح بني إســـرائيل البركة باسم يهوه، وينفذ شـــريعته، وخططه، وكل ما يريد على الأرض، كما يجعل منه ملكا مقدساً لا تنتهك حرمته. ومن خلال مسح الملك، وتسلحه بالروح الســـماوية، فإنه يتلقى حكمة خارقة، ولأنه قد أصـــبح ملاك يهوه؛ فهو ينفذ كل رغباته على الأرض. وهو يعرف المسـتقبل، ويتمتع بحياة أطول من كل البشـــــر، كما أن خبراته عظيمة، ويمكنه تحقيق ما يعجز عنه الآخرون.

ثم تطور المفهوم في عصـــر التلمود، حيث أصبح يستخدم فقط للدلالة على ملك يأتي في المسـتقبل، مزوداً بقوى من الرب الذي اختاره، لينفذ مهمة تخليص بني إســـــرائيل من

---

[١٤] - العهد الجديد، إنجيل متى: ١/٢٠-٢١.

[١٥] - العهد الجديد، إنجيل لوقا: ٢/١٢، و٤/١٦: "روح الرب عليّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين".

الأعداء، ويحكمهم كملك عظيم، ويخضع باقي الشعوب الأخرى لسيطرته الدينية والسياسية[١٦].

وقد كانت فكرة الخلاص في العهد القديم إحدى الأفكار التي شوهها أحبار التلمود، ومعاصريهم من أدباء الأبوكاليبس[١٧]، أو الأدب الرؤيوي، فبدلاً من التمسك بدعوة الأنبياء بأن يكون مجيء الخلاص مرتبطاً بعودة بني إسرائيل إلى الطريق القويم، في عبادة الرب، ونبذ عبادة الأوثان، وكافة الموبقات الأخرى؛ من انحلال خلقي، وفساد اجتماعي، نحى أحبار التلمود، ومعاصروهم من الكهنة، وأدباء الأبوكاليبس، بمفهوم الخلاص منحى عنصرياً، حيث أصبح يشير إلى الإيمان بمجيء ملك يهودي ترسله السماء، يتميز بقدرات قتالية خاصة، يقود بني إسرائيل، ويضعهم -طبقاً لهذا المفهوم المتطور - على قمة السلم البشري. وتحت تأثير قبول عقائد أخرى (= الغنوصية)، المتمثلة في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وعقائد ثنوية إيرانية، تبعد عن شريعة موسى، وتحت تأثير العنصرية والدونية، التي يتحدث منها أولئك الأحبار، نتيجة الهزائم العسكرية المتكررة التي لحقت بهم على يد الآشوريين والبابليين واليونان والرومان، وضع أحبار التلمود شروطاً أخرى لمجيء هذا الملك المسيح، عرفت باسم (مخاض المسيح)، هي في مجملها حالة الكوارث المدمرة الشاملة للعالم أجمع، تتبعها حاله سلام وهدوء أبدي، يتميز فيها اليهود -كما يعتقدون - بوضع السيادة على كافة أنحاء المعمورة، متعبدة، طائعة، مقدمة القرابين، لتتخذ من صورة الإله التي يرسمها بنو إسرائيل في هذا التراث، محطاً للعبادة، وتصبح عبادة الشعوب لصورة هذا الرب، خضوعاً لبني إسرائيل في الوقت ذاته.

وفي مجموعة أخرى، عرفت بـ (معجزات المسيح)، يتحدث فيها أحبار اليهود عن تصورهم لوضع غيرهم من الأمم الأخرى في عصر المملكة المسيحانية، يقول الربي يوسى:

---

[١٦] - منى ناظم الدبوس: المسيح اليهودي ومفهوم السيادة الإسرائيلية، سلسلة نحن وهم ١(القاهرة: الاتحاد للصحافة والنشر،١٩٨٦)، ص٢٨-٢٩، ٥٣.

[١٧] - كلمة يونانية تعنى الكشف أو الإظهار. ويطلق مصطلح أدب الأبوكاليبس على المؤلفات التي تهتم بالكشف عن الأشياء الغامضة التي تقع فيما وراء الطبيعة، والخافية عن العين البشرية. وقد تبلور هذا الأدب في القرن الأول الميلادي، بهدف حث بني إسرائيل على التمسك بالشريعة. للمزيد راجع: منى ناظم الدبوسي: المرجع السابق، ص ٢٦

"سيجلس الرب المبارك، ويسحق الأغيار شيئاً فشيئاً، ولا يقدرون على البقاء أمامه، لأن التوراة تكون عليهم نيراً عظيماً، يحاولون التخلص منه"[١٨].

فقد أطلق على الملك الأخميني (كورش الثاني) (٥٥٩-٥٣٠ ق.م)، لقب (المسيح المنتظر)، تكريماً له، جرّاء قضائه على المملكة الكلدانية (البابلية)، واحتلال عاصمتها (بابل)، عام ٥٣٩ق.م، وإصداره أوامر تقضي بالسماح ليهود الأسر البابلي بالعودة إلى (فلسطين)، ومساعدتهم مادياً من أجل إعادة بناء المعبد السليماني (هيكل سليمان)، الذي دمره الملك البابلي (نبوخذ نصر) عام٥٨٦ ق.م.. فجاء في (سفر اشعيا): "وهذا ما قاله الرب لكورش، الذي مسحه، وأخذ بيمينه، ليخضع له الشعوب، ويضعف سلطان الملوك، حتى يفتح أمامه المصاريع، فلا تغلق في وجهه الأبواب: أسير قدامك، فأمهد الجبال، وأحطم مصاريع النحاس، وأكسر مغاليق الحديد، وأعطيك الكنوز الدفينة، والذخائر المخبأة، فتعلم إني أنا الرب، إله إسرائيل، الذي دعاك باسمك، {أي الممسوح}[١٩].

كذلك أطلق الاسم في (سفر زكريا) على شخصيتين، هما: الكاهن الأعظم يشوع، والملك زربابل، وهو حفيد الملك (جيهوى أشين)، وكان وقتها زعيماً ليهود المنفى، الذين عادوا من بابل إلى يهودا (=المملكة الجنوبية قبل تدميرها على يد نبوخذ نصر)، بموافقة الملك كورش الثاني. وعين (زربابل) في ظل حكم الملك (داريوس الأول)، في سنة ٥٢١ق.م حاكماً لمقاطعة يهودا (=أورشليم- القدس، وأطرافها)، وكان آخر حكامها من بيت داود. ويتحدث (كتاب زربابل)، الذي كتب في زمنه، والذي قيل أنه وجد منقوشاً على الحجر، عن رؤى رآها زربابل (بذر بابل) عن ظهور المسيح[٢٠].

وقد ألفت أعمال كثيرة عن الآمال المسيحانية التي نشأت عن كتاب زربابل، وتقول دائرة المعارف اليهودية: "رغم أنه من الصعوبة تحديد تواريخ مختلف الأعمال التي

---

[١٨] - هاني عبد العزيز السيد سالم: الحركات اليهودية المسيحانية في ظل الإسلام، ص ٩١٢.

[١٩] - العهد القديم، سفر اشعيا،٤٥-١ و١٤-٢٨، وقد صور سفر ارميا، في عبارات ثأرية، مصير الملك الكلداني نبوخذ نصر، الذي دمر أورشليم، وخرب المعبد السليماني (الهيكل)، وسبى اليهود إلى مدينة بابل، فيما سمي بالسبي البابلي. ينظر: سفر أرميا ٧/٣١.

[٢٠] - بركات أحمد: محمد واليهود، نظرة جديدة، ترجمة: محمد علي مراد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م) ص٢٠٤.

يتكون منها هذا الأدب المسيحاني، فلا يستبعد أن يكون بعضها سابقاً حتى على كتاب زربابل... وقد كان لهذه الكتابات تأثير كبير على اليهود في العصور الوسطى"[٢١].

وتزامنت الفكرة دائماً مع حقب المحن والفتن والملاحم، وموجات الاضطهادات والتصفيات الجماعية لليهود على أيدي خصومهم Trauma Suffering، وحالات نفسية تتسم بالإحباط والخذلان Frustration، وأن ظهور المنتظر الغائب، والمنقذ الموعود، من نسل داود، هو سفينة النجاة، وطريق الخلاص مما يعانون من مذلة وصغار، وضياع وتشتت، وغياب سلطان، وما يتجرعون من قسوة وظلم وامتهان، وما يحسونه من إحباط ويأس وخذلان في ديار العبودية والشتات Bandag of Exile[٢٢].

ولقد تعرض اليهود، ومؤسساتهم الدينية، إلى حملات عديدة من القتل والتخريب والهدم على يد أعدائهم، ومنها:

١. التدمير الأول لأورشليم وهيكل سليمان عام ٥٨٦-٥٨٧ ق.م، على يد الملك الكلداني البابلي (نبوخذ نصر)، ثم الأسر البابلي.

٢. التدمير الثاني لأورشليم وهيكل سليمان، على يد القائد الروماني (تيتوس)، عام ٧٠م، وفرضه قسراً إجلاء بني إسرائيل عن (فلسطين). ويبدو أن اليهود الذين عاشوا في شمال الجزيرة العربية، وجنوبها (اليمن)، هم من هؤلاء اليهود[٢٣].

٣. المذبحة الهائلة التي أنزلها الإمبراطور الروماني (هادريان)، عام ١٣٢م، باليهود، إثر فشل حركة التمرد الفاشلة التي قادها الزعيم اليهودي (شمعون باركو خيبا Simon Bar Kochiba)، الذي انتحل صفة المسيحانية، وادعى أنه المسيح المنتظر، وقد قتل (باركو خيبا)، ومعه عدة آلاف من اليهود، بعد استسلامهم للإمبراطور الروماني، الذي دمر (أورشليم)، وبنى على أنقاضها مستعمرة رومانية، أسماها (كولونيا إيليا كابتولين)[٢٤].

---

٢١ - Vol. XI, ،Messianic Movements, Encyclopedia Judaica (Jerusalem 1971) Column 1413.

٢٢ - عرفان عبد الحميد: اليهودية، ص٢٩، نقلاً عن Encyclopedia Britannica، مادة اليهودية.

٢٣ - فاروق الدملوجي: تاريخ الأديان – الألوهية وتاريخ الآلهة (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ٤٥٩؛ ويذكر الكاتب أن عدد اليهود الذين قتلوا على يد تيتوس من سكان أورشليم (القدس) بلغ مليوناً من الأنفس.

٢٤ - بركات أحمد: محمد واليهود نظرة جديدة، ص٣٤؛

وبناء على ما تقدم، فقد ســـــرت إلى بنية العقيدة اليهودية عناصر رؤيوية ذات مضــامين أخروية ، فصــارت العقيدة تبعاً لذلك تتضــمن الإشــارة إلى مرحلتين متتابعتين، أولاهما: تمهيدية، تسـود فيها المظالم، وتعم المفاسـد، ويبتلى بنو إسرائيل فيها عادة بالحكم الأجنبي، وسـطوته، والقهر والاضـطهاد والقسـوة والمعاناة. وهذه المرحلة التمهيدية؛ تبدأ بعد أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً وفساداً، مما يستدعي عودة النبي (إيليا) من السماء، الذي سيمهد - بجهاده وقتاله ضد أعداء بني إســـرائيل- للخلاص، ثم يصعد إلى (جبل الكرمل) ليعلن نهاية الفواجع والكوارث، بل والتاريخ Consummation of History، وقيام عهد جديد، هو العهد المسَائي على الأرض.

ومع ظهور السيد المسيح – ببشارته-، ولأنه من جذع (يســـــي)، ومواليد (بيت لحم)[٢٥]، فقد افترقت الســـبل باليهود مع مجيئه، فاعتقدت طائفة منهم أنه المنقذ الإلهي المرتقب، وأنه المقصـود بما ورد في الأسـفار عن المسـيا من أن اسـمه : المسـيح بن يوسـف، واحتجت هذه الطائفة بما جاء في نبوءة النبي (اشـعيا) عنه: "ولكن السـيد الرب نفســه يعطيكم هذه الآية: ها هي العذراء تحبل وتلد ابناً، وتدعو اســمه (عمانويل)، يأكل زبداً وعسلاً، إلى أن يعرف كيف يرفض الشـــر ويختار الخير[٢٦]. فآمنوا برسالة السيد المسيح، واتبعوه، وصـــاروا يشـــكلون فرقة : يهودية – مســـيحية: – Judaizing Christians Christianized Jews، وقد اســـتمرت هذه الطائفة، التي لفقت في عقيدتها بين اليهودية والمسيحية في الوجود، ردحاً طويلاً من الزمن، رغم أن اليهود والنصارى رفضوا معاً الاعتراف بهم[٢٧]، حتى أن الراعي المسيحي (خريسوستوم Chrysostom) – الذي عاش أواخر القرن

---

[٢٥] - لرد دعوى المسيحية، أنكر اليهود أن يكون السيد المسيح – عليه السلام – من مواليد بيت لحم، وهو الأمر الذي أكدته الأناجيل: (ولما ولد يســـوع في بيت لحم اليهودية) (إنجيل متى :١/٢)، وفي (إنجيل لوقا:٢): المدينة التي سيخرج منها المخلص الموعود.. وبعد أن فشل اليهود في رد نسبة اليهود إلى داود، قالوا: إن السيد المسيح من مواليد الناصــرة، واستدركوا: (أمن الناصرة يخرج شيء صالح؟)، (إنجيل يوحنا: ٤٦/١).

[٢٦] - العهد القديم، سفر اشعيا: ١٤/٧، وقارن بإنجيل متى: ١٨/١٠

[٢٧] - لرد دعوى المسيحية أنكر اليهود أن يكون السيد المسيح – عليه السلام – من مواليد بيت لحم، وهو الأمر الذي أكدته الأناجيل: (ولما ولد يســـوع في بيت لحم اليهودية) إنجيل متى :١/٢، وإنجيل لوقا٢: المدينة التي سيخرج منها المخلص الموعود؛ وبعد ان فشل اليهود في رد نسبة اليهود الى داود،

الرابع الميلادي – اضطر للتنديد بهذه الطائفة بمدينة (أنطاكية) باسم المسيحية، التي كانت آنئذ قد غدت ديانة رسمية للإمبراطورية البيزنطية.

أدعياء اليهود للمسيحانية قبل الإسلام

على الرغم من أن المسيح المخلص غير مذكور بشكل صـــريح في (التوراة)، إلا أن هناك إشـارات له، ولعصـــــره، في بعض أسـفارها. كما أن بحث هذه الفكرة عند اليهود، والخوض في تفصـيلاتها، أضـفيا على المسـيح المخلص أوصـافاً معينة، يتميز بها عن بقية البشـــــر، ويختلف فيها عنهم. فقد قالوا إنه يجب أن يكون من نسـل النبي داود – عليه السلام –، وأن يكون قاضياً، ومعلماً للتوراة، كما يجب أن يكون نبياً، بل أفضل الأنبياء بعد موسى - عليه السـلام -، وأن ولادته يجب أن تكون في اليوم التاسـع من آب، طبقاً للتقويم العبري. ثم لا بـد أن تكون هنـاك موطئـات لظهوره، وعلامـات، ذكروهـا ونـاقشـــوهـا في أدبياتهم. وقبل ظهوره لا بد أن يظهر النبي (الياهو) (= إيليا = الخضـــــــــر، في التراث الإسلامي)، بفترة قصيرة، يعلن عن ذلك. كما يجب أن يظهر قبله مسيح آخر اسمه (المسيح ابن يوسـف)، من قبيلة (أفراييم (= ابن يوسـف)، موطئاً، وممهداً، ويخوض حروباً، حيث يسـقط في آخرها صـــــريعاً على أبواب (أورشـليم). وسـيقود المخلص اليهود منتصـــــراً، ويأخذهم إلى (فلسطين)، حيث سيحكم العالم منها، وتخدمه الأمم والشعوب.

وطبقاً لما يذكره اليهود، فإنَّ العصـر المسيحاني سيكون عصـراً ذهبياً، تنعدم فيه المجاعة والحروب والصـــــراعات بين الناس، وتعم الرفاهية والسـعادة، ويزول الحزن والأمراض من بينهم، بل وتطول أعمارهم، ومن يموت وعمره مائة يعتبر صغيراً، كما جاء في (سفر اشعيا): "لا يموت هناك طفل أيام، ولا شيخ لم يستكمل أيامه، لأن صغير السنِ يموت وهو ابن مائة سـنة، والذي يموت دون مائة فإنَّه ملعون"[٢٨]. وتذكر الأدبيات المسـيحانية أن هذه الحقبة ستطول لألفي سنة، قبل حلول يوم القيامة.

فقالوا: إن السيد المسيح من مواليد الناصرة، واستدركوا: (أمن الناصرة يخرج لهم شيء صالح)، إنجيل يوحنا: ٤٦/١.

[٢٨] - الاسـم أورشـليم ليس عبرياً، وفي التوراة هناك صـورتان لاسـم المدينة، هما: يروشـلم، ويروشـلايم، وهذا الاسـم الثاني هو المسـتعمل بين اليهود، واسـتعمل العرب منذ ما قبل الإسـلام عدداً من الاسـماء، منها: أوريشـلم، وأوريشـلوم، وأوريسـلم، وغيرها، وقد ورد بعضـها في شـعرهم. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان.

وبعد رفض عامة اليهود الإقرار بمسيحانية السيد المسيح، تنامت دعوات المسيحانية، وعلى تعاقب القرون، فادعاها بحسب التسلسل التاريخي:

١- بين الأعوام ٥٢ و٤٥ للميلاد ظهر رجل يهودي من (مصر)، وادعى بأنه نبي، وتبعه حوالي ثلاثون ألف رجل، فقادهم إلى (جبل الزيتون)، عند (أورشليم)، وقال لهم بأن حيطانها ستسقط بأمره، وسيحررها من سيطرة الرومان، ثم دارت الدائرة على أتباعه على يد الجيش الروماني.. ويظهر مما ورد في (العهد الجديد) أن هذا المتنبئ بقي حياً بعد هذه المعركة[٢٩].

٢- شمعون باركوخبا، يهودي ظهر في (فلسطين) في القرن الثاني الميلادي، وادعى بأنه من نسل الملك داود، وقاد ثورة ضد الحكم الروماني في الأعوام ١٣٢-١٣٥م، انتهت بقتله، وأتباعه، على يد القائد الروماني (يوليوس سيفردس)[٣٠].

٣- في حدود عام ٤٤٨م ادّعى يهودي من (جزيرة كريت) بأنه موسى، وأنه أرسل ليخلص اليهود. وقد وعد من كان في الجزيرة منهم بأن يأخذهم عن طريق البحر الأبيض المتوسط إلى (فلسطين)، دون مراكب، حيث يفلق لهم البحر، كما فلقه موسى (عليه السلام)، وقد ضرب لهم موعداً لذلك. فلما جاءوا البحر، نادى على البحر أن ينشق، ولكنه لم ينشق، ومع ذلك فقد أمرهم أن يقفزوا فيه، فأطاعوه وقفزوا، فغرق منهم من غرق، ونجا منهم من نجا. أما المخلص المزيف، فقد اختفى ولم يعثر له على أثر [٣١].

٤- في حوالي ٦٤٥م أعلن رجل من يهود أفريقية عن ظهور المسيح، وزعم أنه الموكول بإعادة الأسباط العشرة المفقودين إلى أرض الميعاد، وجمع حوله ما يقرب من أربعمائة رجل من الحاكة والقصارين، وهجم بهم على مجموعة من أديرة المسيحيين، وحرقوا ثلاثة منها، وقتلوا أحد رؤسائهم. فقبض على اليهودي، فصلب، وقتل أتباعه[٣٢].

---

[٢٩] - أعمال الرسل: ٣٨/٢١؛ إن العدد كان أقل مما ذكر.

[٣٠] - بركات أحمد: محمد واليهود نظرة جديدة، ص١٨٤.

[٣١] - Encyclopedia Judaica Messianic Movement, pp234؛ بركات أحمد: محمد واليهود نظرة عصرية ، ص ٢٠٤.

[٣٢] - عرفان عبد الحميد فتاح: اليهود، ص ٣٣؛ جعفر هادي حسن: الدونمه بين اليهودية والإسلام، ص٢٧ نقلاً عن.S.W. Baron, Social and Religious History of the Jew, Vol 5, p.184.

أدعياء اليهود للمسيحانية في العصر الإسلامي

لقد سكن الجزيرة العربية يهود كثيرون، كما حكمت اليمن أســـرتان ملكيتان يهوديتان، ومن المرجح أن تكون الآمال المســيحانية قد ثبتت أفئدة اليهود العرب أثناء تدمير المملكة الحميرية على يد الأحباش، وما تبعها من اضـــمحلال لمركزهم. والإشـــارات المختلفة، التي ساقها المؤرخ ابن إسحاق (المتوفى سنة ١٥١هـــ) للنبوءات اليهودية المتعلقة ببعثة (نبي)، قد تكون نتيجة لقراءة مختلفة لبعض الكتابات اليهودية المســيحانية. وكان ابن إســحاق، وعلماء المســـلمين الذين جاءوا من بعده، يظنون أن اليهود - الذين تنبأ أحبارهم بمبعث نبي - كانوا في حقيقة الأمر ينتظرون مبعث النبي محمد -صـــلى الله عليه وســـلم-، "أقيم لهم نبياً من وســط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصــيه به"[٣٣]. وهذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، أن أياً من الأنبياء الإســـرائيليين، الذين جاءوا من بعد موسى (عليه الســـلام)، في تعاقبٍ متطاولٍ، حتى ظهور المســيح (عليه الســـلام)، لم يدّع أنه النبي الموعود في هذه النبوءة[٣٤]. وأنهم حين أعلن النبي محمد - صـــلى الله عليه وسلم- نبوته، جحدوا هذه النبوة عامدين[٣٥].

ولكن يهود الحجاز - فيما يبدو - لم يروا أيّ آية، ولم يشـهدوا تحقق أيّ نبوءة، وقد ذكر ابن إسحاق: "وقد دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يهود إلى الإسلام، ورغّبهم فيه، وحذرهم غيرة الله وعقوبته، فأبوا عليه، وكفروا بما جاءهم به. فقال لهم (الصـحابة) معاذ بن جبل، وســعد بن عبادة، وعقبة بن أمية: يا معشـــــــر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رســول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصــفونه لنا بصــفته. فقال رافع بن حريملة، ووهن بن يهوذا (= يهوديان): ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتابٍ بعد موسى(عليه السلام)، ولا أرسل بشيراً ونذيراً بعده..."[٣٦].

---

[٣٣] - سفر تثنية الاشتراع: ١٨ / ١٨.

[٣٤] - مولانا محمد علي: حياة محمد ورســـالته، نقله إلى العربية: منير البعلبكي، الطبعة الســـابعة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ص ٤٦؛ هاشم يحيى الملاح: موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصـــــر الرسالة، هيئة كتابة التاريخ، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة (بغداد: دار الشؤون الثقافية،١٩٨٨)، ص ٢٥.

[٣٥] - ابن هشام: السيرة النبوية، حققها وضبطها: مصطفى السقا وآخرون (بغداد، مطبعة وأوفسيت منير، ١٩٨٦)، ق١، ج١، ص٢٠٤.

[٣٦] - السيرة النبوية لابن هشام، ق١، ج٢، ص٥٦٣- ٥٦٤.

وعلى أية حال، فقد ادعى العديد من اليهود أنهم المسيح المخلص (المنتظر)، وهم حسب التسلسل التاريخي:

١- في عام ١٠٢هـ/٧٢٠م، أيام الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، ادّعى يهودي سوري اسمه (سفيروس)، أو (سيرينوس= سيرين Serenas)، أنه المسيح المخلص[٣٧]، وتنبأ بمعجزة تعود بها (فلسطين) إلى اليهود، وادعى (سيرينوس) أنه نبي، لا لليهود وحدهم بل للمسلمين، كذلك ألغى بعض أحكام الفقه اليهودي، التي مصدرها التلمود وليست التوراة، التي تحرم أطعمة بعينها، وسمح بالزواج دون عقد، بل ذكر عنه، وعن أتباعه، بأنهم لم يكونوا يصلون. وقد صدقه جمع كبير من اليهود، بل وحتى المسيحيين، وجمع أموالاً ومتاعاً، بحجة استعمالها في طرد المسلمين من (فلسطين)، وإقامة دولة اليهود. وقد ذاعت شهرة (سيرينوس) حتى وصلت إلى (إسبانيا) (الأندلس)، التي كانت في ذلك الوقت تحت الحكم الإسلامي. وبهذا الصدد يذكر أحد المعاصرين: "أن يهود ذلك البلد قرروا النزول عن ممتلكاتهم، ووضعوا أنفسهم تحت قيادة هذا الشخص، الذي كانوا يشبهونه بالمسيح"[٣٨].

وقد ألقي القبض عليه بعد بضع سنوات، في عام ١٠٦هـ/٧٢٤م، في أيام الخليفة هشام بن عبد الملك، في رواية، وفي رواية إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك. ولما سأله الخليفة هشام عن مدّعاه، أجابه بأن دعوته كانت لتضليل اليهود، والسخرية منهم، وأن ادّعاءه لم يكن عن إيمان وعقيدة، فترك أمره إلى أبناء ملته، وقيل بل أمر بقتله[٣٩].

٢- عبيد الله أبا عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، وقيل كان اسمه ابن عيسى عاديا (عوفيد)، هناك خلاف بين المصادر الإسلامية واليهودية في التوقيت الذي ابتدأ الأصفهاني

---

[٣٧]. هناك خلاف في تسمية هذا الشخص في المصادر، ما بين سيرين وسيرينوس، فبينما يذكره المؤرخ العراقي المشهور عبد العزيز الدوري، والمؤرخ الهندي، بـ (سيرين)، يلاحظ بأن الباحث العراقي جعفر هادي حسن يطلق عليه (سفيرنيوس). ينظر: عبد العزيز الدوري: اليهود في المجتمع الإسلامي عبر التاريخ ج٣، ص١٠٧؛ بركات أحمد، مرجع سابق، ص٢٦، جعفر هادي: المرجع السابق، ص٢٦.

[٣٨]- بركات أحمد: محمد واليهود، ص٢٦؛ نقلاً عن جراتز: تاريخ اليهود (فيلادلفيا، ١٨٩٤م)، الجزء الثالث؛ رحلة بنيامين التطيلي: ترجمة عزرا حداد، تقديم: عباس العزاوي (بيروت، دار الوراق للنشر المحدودة،٢٠١١)، ص ٢٤٣.

[٣٩] - بركات أحمد: مرجع سابق، ص٢٦؛ عبد العزيز الدوري: أوراق في التاريخ والحضارة، ج٣، ص١٠٧؛ جعفر هادي حسن: مرجع سابق، ص٢٦.

دعوته، ففي حين تشير المصادر اليهودية إلى أن زمن ادعائه بأنه المسيح المنتظر جاء في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م)، وفق دائرة المعارف اليهودية[٤٠]، وفي زمن آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد(١٢٧-١٣٢هـ/ ٧٤٤ - ٧٥٠م)، حسب مرجع آخر[٤١]، اعتماداً على كتاب (الملل والنِحل) للشهرستاني (المتوفى سنة ٥٤٨هـ). يلاحظ بأن المصادر الإسلامية تذكر بأن الأصفهاني دعا إلى نفسه في بداية قيام الخلافة العباسية، في زمن الخليفة أبو جعفر المنصور(١٣٦-١٥٨هـ)، وكان قد ابتدأ حركته في أواخر حكم الدولة الأموية. ويعتقد أنها استمرت حتى أيام الخليفة أبو جعفر المنصور. وقال لليهود إن للمسيح خمسة رسل، يأتون قبله واحداً بعد الآخر، وزعم أن المسيح أفضل ولد آدم[٤٢]. ويذهب ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦هـ) أن محمد بن عيسى كان يؤمن بأن عيسى نبي بعثه الله بالإنجيل إلى بني إسرائيل، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم- نبي بعثه الله بشريعة القرآن إلى بني إسماعيل (عليه السلام)[٤٣]، وزعم أن الله كلّمه وأمره بتخليص اليهود من أيدي الأمم العاصية الظالمة. وحرم أبو عيسى أكل اللحوم، وشرب الخمر، والطلاق، وأوجب سبع صلوات (سبع مرات في النهار سبحتك على أحكام برك)[٤٤]. وكان أبو عيسى اليهودي خياطاً أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، ونسب إليه تأليف عدة كتب، واعتبر أتباعه ذلك معجزة، لأنه لم يكن يقرأ ويكتب. وظل أبو عيسى ثائراً ضد الخلافة العباسية لعدة سنين، وعندما هوجم من قبل جيش الخليفة المنصور، خط حول أتباعه خطاً بعود آس، وقال لهم أقيموا داخل الخط فليس ينالكم عدو أو سلاح، فكان الجيش العباسي يحملون عليهم حتى إذا بلغوا الخط تراجعوا عنهم خوفاً من طلسم أو عزيمة، ولكن أبو عيسى خرج من الخط وحده على فرسه، وقاتل الجيش العباسي، وقتل عدداً منهم، ثم قتل، وانهزم

٤٠. (Hayytim J Cohen –Amnon Netzer) " Isfahan " Encyclopedia Judaica, (Jerusalem, 2007) Vol, 10, pp,79-80

٤١- رحلة بنيامين التطيلي، ٢٤٣.

٤٢ - الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص ٢٣٩.

٤٣- الملل والأهواء والنحل، تحقيق: عبد الرحمن عميرة وزميله (بيروت: دار الجيل، د،ت)،ج١، ص ١٧٩؛ عبد العزيز الدوري : مرجع سابق، ص ١٠٧.

٤٤ - المزامير، ١١٩ / ١٦٤.

أصـحابه. وفي رواية أخرى يذكر الشـهرسـتاني أنه قتل على يد جيش المنصـور، في منطقة (الري)[٤٥].

وكان (سـنباذ)، وهو أحد القادة الإيرانيين، من أهالي منطقة نيسـابور التابعة لإقليم خراسان، قد ثار ضد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م، انتقاماً منه بسب قتله لأحد قادة الثورة العباسية (أبو مسلم الخراساني)، في ٥ شعبان ١٣٧هـ/ ٧٥٥م. واسـتطاع أن يجمع حوله الكثير من الأتباع، في مدة قصـيرة، واحتل - في البداية- (قومس) (=كومش)، ووضـع يده على الخزائن التي كان أبو مسـلم قد أودعها في تلك المدينة، ثم ما لبث أن أعلن عزمه على التوجه صـوب بلاد العرب المقيمين الحجاز، وأعلن اعتزامه هَدم الكعبة المشـرفة. ويعتقد أن الداعي اليهودي أبو عيسـى الأصفهاني استغل انشغال المنصور بحركة سنباذ، فثار هو الآخر، فكان أن قضـى قائد المنصور (جهور بن مرار العجلي) على حركتي سنباذ المجوسي، وأبو عيسـى اليهودي، مرة واحدة، وقتل غالبية أتباعهما في منطقة (الري)، سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م[٤٦].

٣ - في الحقبة نفسها، ادعى أحد أتباع (أبو عيسـى الأصفهاني)، واسمه (يوذعان)، أو يهوذا، من مدينة (همدان)، ادعى أنه المسـيح المخلص، وقد حرم الخمر، وأكل اللحم، كما فعل أبو عيسـى، وشـرع أيضا صلوات وصياماً، وكان يرى بأن الأعياد والسبت ما هي إلا رموز قد بطلت، بعد أن هدم الهيكل. وكان أتباعه يجبرون اليهود على اتباع ممارسـاتهم، وكان أيضـاً يحث على الزهد والإكثار من الصـلاة، وكان يقول بأن للتوراة ظاهراً وباطناً، وتنزيلاً وتأويلاً. وقد خالف في تأويلاته عامة اليهود، كما خالفهم في التشـبيه، ومال إلى

---

[٤٥] - الملَل والنحل، ج٢، ص ٢٣٩.

[٤٦] - ادوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمه إلى الفارسية: علي باشا صالح، ترجمه إلى العربية: أحمـد كمال الـدين حلمي، تقـديم: محمـد علاء الـدين منصـور(القـاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٥م)، ص ١٦٤؛ وقد توهم المسـتشرـق البريطاني (براون) في توقيت خروج (سـناذ)، والصحيح هو سنة ١٣٧هـ وليس كما قال ١٤٠هـ والخطأ الآخر الذي وقع فيه (براون) هو أن أبو مسـلم أودع أمواله في مدينة (قومس)، والصـحيح أنه أودعها في مدينة (الري). ينظر بهذا الصـدد: غلام حسين صديقي: الحركات الدينية المعارضة للإسلام في إيران في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ترجمة: مازن إسماعيل النعيمي، (دمشق: دار الزمان، ٢٠١٠)، ص ٨٠- ٨٢؛ فرست مرعي: محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية(صنعاء: ألوان للطباعة والنشر،١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص٣٩- ٤٠.

القدر، وأثبت الفعل حقيقة للعبد، وقدر الثواب والعقاب عليه، وشـدد في ذلك[٤٧]. ويذكر أحد مؤرخي الأديان، أن اليوذعانية، أو المقاربة، هم كالباطنية في المسـلمين[٤٨]. وتشـير بعض الروايات بأن شـرذمة من أتباعه كانت باقية إلى عام ٩٣٨م[٤٩].

٤- في عهـد الخليفـة العبـاسي أبي جعفر المنصـور، توفي حـاخـام العراق الأكبر ورأس الجالوت[٥٠] في الدولة الإسـلامية، وكان اسـمه (الجاؤون سـليمان)، ويبدو أنه لم يترك ولداً يخلفه في وظيفته، وكان أحق المرشحين لهذا المنصب ابن أخيه (عنان بن داود)، فعارض في انتخابه أكبر رجلين باقيين على رأس اليهود في الدولة الإسـلامية، وهم: دوداي بن نحمن، مدير الأكاديمية البابلية في (فومبديثة) (= فم البداق – قرب الأنبار) - نهر دعة (= بالقرب من مدينة الفلوجة الواقعة على نهر الفرات)، و يهوداي بن البصير، عميد الأكاديمية البابلية في (سـورا) (= منطقة الفرات الأوسـط – قرب مدينة الحلة)، بسـبب ما ذكر عنه من فسـاد السيرة وسـوء الأخلاق وقلة التقوى، واختارا لزعامة يهود العراق الأخ الأصغر لـــ(عنان بن داود)، وكان اسـمه (حنانيه بن داود)[٥١]، لا سـيما وأن بعض علماء اليهود قد تأثروا بآراء المعتزلة وأصـحاب (الكلام) من المسـلمين، فصـاروا ينتقدون تعاليم الربانيين، ويتحفزون

---

٤٧ - الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص ٢٤٠.

٤٨ - فخر الدين الرازي: اعتقادات فِرق المسـلمين والمشـركين، مراجعة وتحرير: علي سـامي النشـار (بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م)، ص ٨٣.

٤٩ - جعفر هـادي: المرجع السـابق، ص ٢٨؛ Haim Hillel Ben – Sassoon. (Messianic Movement), Encyclopedia Judaica, VOL 14, pp118.

٥٠ - رأس الجالوت: أو أمير المنفى – تعتبر بعض المأثورات (يهواكيم) آخر ملك من سـلالة داود أنه أول رأس جالوت عرف به، وكان رأس الجالوت - في أيام عزّه- القاضي السـامي لجماعات اليهود، ولم تضـيق الشـريعة اليهودية سـلطته وتنظيمه إلا قليلاً. وبقي هذا المنصـب شـاغراً إلى عهد الفاتحين العرب المسلمين، فرجع إليه حينئذٍ بهاؤه، وأن جميع رؤساء الجالوت، الذين قاموا منذ القرن السابع الميلادي حتى القرن الحادي عشرـ منه، كانوا من سـلالة (بسـتاني)، الذي بواسـطته تجدد عز هذا المنصب، وتأيد موقفه السياسي. ينظر: يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، هامش ٢ ص٩٧.

٥١- الشـهرسـتاني: الملل والنِحل، ج٢، ص ٢٣٨. ابن حزم الفصـل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص ١٧٨؛ علي بن محمد الفخري: تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الاديان، تحقيق وتقديم: رشيد الخيون (بيروت: مدارك،٢٠١١)،ص ٢٨٨- ٢٨٩؛ الدوري: مرجع سابق، ص ١٠٧.

للخروج على أحكام التوراة وقيودها. وكان على رأس هذه الحركة ثلاثة من علماء اليهود، هم الربيون: أفراييم، واليشع المعلم، وحنوكة[٥٢]، فوجدوا في ثورة (عنان) ضالتهم المنشودة، ونصبوا (عنان بن داود) على رأس حركتهم. فأسرع الربانيون[٥٣] بالشكوى إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي أمر بحبس (عنان). ويروي بعض المؤرخين أن (عنان) هذا لقي الإمام أبا حنيفة النعمان (المتوفى سنة ١٥٠هـ) في السجن، فأشار عليه أن يدعي أنه صاحب دين، وأنه يؤمن بعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام- نبيين، وأنه اختار الأعياد طبقاً لرؤية الهلال، بدلاً من الحساب الفلكي، وأنه يصر على أن آراءه ليست بآراء اليهود القدماء، وليس ثائراً على رأس الجالوت، لذا أطلق على حركته اسم (القرائيين)، أو بني المقرأ[٥٤]. وبعد إطلاق سراحه رحل إلى (فلسطين) هو وأتباعه، حيث شيدوا لهم كنيساً[٥٥]، وإن كان بعض الباحثين المحدثين يرفض رواية السجن هذه، ويرجحون أنه لا

٥٢- رحلة بنيامين التطيلي، ص ٢٢٧-٢٢٨.

٥٣ - الربانيون أو الربانيون أو الربيون: هم جمهور اليهود المعروفون أكثر من غيرهم، وتعني كلمة (ربانيم) بالعبرية الإمام الحبر الفقيه، وقد عربت هذه الكلمة إلى (رباني)، ووردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ...} سورة المائدة ، الآية ٤٤ ، وقد سمي أبناء هذه الفرقة (ربانيين) إشارة إلى اتباعهم تفسير علماء اليهود وفقهائهم في المشنا (= نص التلمود)، والتلمود، وتقيدوا بذلك حتى صار هذا الاسم سمة عامة لهم. وكانت رئاسة اليهود (= الجالوت) لواحد من الربانيين، وهم أكبر طوائف اليهود في تلك الآونة، وكان له حق الإشراف على أبناء الطوائف الثلاث من: الربانيين والسامريين والقرائين. والربانيون هم حالياً جمهور اليهود الذين ينقسمون الى طائفتين كبيرتين وهم: الاشكناز، وهم يهود أوروبا وشرقها، والسفارديم، وهم اليهود الذين استقروا في حوض البحر الأبيض المتوسط، بعد هروبهم من الأندلس إثر محاكم التفتيش الإسبانية. ينظر: فرست مرعي الدهوكي: لمحات من تاريخ اليهودية والنصرانية ومخططاتهما ضد الإسلام، الطبعة الثانية (صنعاء: المنتدى الجامعي للنشر والتوزيع،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص ٤٩ – ٥٠.

٥٤ - ريجارد كوك: بغداد مدينة الإسلام، نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه: فؤاد جميل ومصطفى جواد (بغداد: مطبعة شفيق،١٩٦٢)، ص ٦٢ - ٦٣.

٥٥- القرائيين كلمة مشتقة من المصدر (قرأ)، بمعنى قرأ –دعا- نادى- وذلك لأنهم لم يؤمنوا بغير (المقرأ) أي ما يقرأ فيه، وهي التوراة التي لم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود، كما أنهم لم يتقيدوا بما جاء في التلمود، ويعتقدون بسابق القدر، ويعتمدون على الأهلة في تقويمهم وحساب أعيادهم

صحة لها من أساسها، وينفون ما زعمه باحثو الربانيين من تأثر القرائين بالشيعة الأثني عشرية، وأن (عنان) كان تلميذاً للمعتزلة الذين وقفوا موقف الحذر من بعض الأحاديث النبوية، وتحرجوا من اعتبار الحديث مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامي، كما أن رفض (عنان بن داود) للتلمود ليس مردّه الحقد على الربانيين، بل بسبب الصراع على منصب رئيس الجالوت، كما قيل[٥٦].

ويرجح البعض عودة نشأة هذه الفرقة إلى فترة سابقة على عصر (عنان)، وإلى أن جذور تاريخ القرائيين يمتد إلى أعماق التاريخ اليهودي، كما ذكر أحد المؤرخين أن (العانانية) نسبة إلى (عانان بن داود)، وأشار بأنها فرقة غير القرائيين، الذين يرجع تاريخ نشأتهم إلى فترة سابقة في التاريخ اليهودي[٥٧].

وقد اعتبر مؤرخو عصر المماليك، أن الربانيين والقرائيين بمثابة الفرقة الواحدة، وذلك رغم أنه كان لكل من الفرقتين معابدها الخاصة. فقد اتفق القراءون، والربانيون، على استخراج ستمائة وثلاث عشرة فريضة من التوراة، كما اتفقوا على نبوة موسى وهارون ويوشع، وعلى نبوة إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهو (إسرائيل)، وأبنائه الاثني عشر (الأسباط)، ولم يعترف القراؤون بغير هؤلاء[٥٨].

٥- في بداية القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، ادعى رجل يهودي اسمه سلمون (سليمان)، ظهر في (فلسطين)، بأنه المسيح المخلص الذي تنتظره اليهود: "إنَي مرسل رسولي، فيعد الطريق أمامي، ويأتي فجأة إلى هيكله (المعبد)، السيد الذي تلتمسونه، وملاك

ومواسمهم، مما أوجد فروقاً في هذه الناحية بينهم وبين الربانيين. وقد شبههم بعض المؤرخين العرب بالمعتزلة في الإسلام، والحقيقة أن هذا التشبيه لا يطابق الواقع، ولعل السبب في ذلك هو الخلط بينهم وبين الفريسيين، وهم فرقة يهودية ظهرت في بداية العصر ـ المسيحي، أي إنها كانت معاصرة للسيد المسيح (عليه السلام)، وكانت تناصبه العداء. ينظر: مراد فرج: القراءون والربانيون، ص ٢٩ – ٣٠.

٥٦- حسن ظاظا :الفكر الديني اليهودي أطواره ومذهبه (دمشق: دار القلم،٢٠٠٢)، ص٢٩٥. قاسم عبدة قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى العصر العثماني، ص١١٢.

٥٧- المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٧٢، ٤٧٦. قاسم عبده، أهل الذمة، ص١١٢.

٥٨- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١٣، ص٢٥٣، انظر أيضاً: مراد فرج، القراؤون والربانيون، ص١١٣، ١١٦.

العهد الذي ترضون به. ها إنِي آتٍ، قال رب الجنود"[٥٩]. وكان (سلومون) يسافر من مكان إلى آخر، يعد اليهود بأنه سيجمعهم بعد شهرين ونصف إلى أورشليم (القدس)، وقد تعجب اليهود من ادعائه، لأنه كان كاهناً، والكاهن من نسل قبيلة (لاوي)، وليس من نسل نبي الله داود (عليه السلام)، الذي هو من نسل (يهوذا)[٦٠]، الذي هو شرط في المسيح المخلص، كما تمت الإشارة إليه سابقاً. وكان يقول للناس بأنه سيذهب إلى (مصر)، "وآتي بإخوتنا منها إلى أورشليم". وكان (سلومون) الكاهن من فرقة القرائين[٦١]، وهو أول قرائي يدعي أنه المسيح[٦٢].

٦- في عام ١١٧٢م/٦٠٤هـ ظهر يهودي في مدينة (فاس) بالمغرب، اسمه (موسى الدرعي)، وكان من علماء اليهود المعروفين، وقال لليهود بأنه المسيح، وأنه سيحقق معجزته في الليلة الأولى من الفصح اليهودي (= التسع من شهر نيسان). وقد أمر أتباعه أن يبيعوا أمتعتهم، وأن يصبحوا مدانين للمسلمين، وذلك بشراء ما قيمته ديناراً بعشرة دنانير، من أجل أن يحققوا ما جاء في التوراة: وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين، حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين"[٦٣]. وقال لهم، في تعليل ذلك: لأنَهم سوف لا يرونهم بعد ذلك. ولكن عيد الفصح جاء ومضى ولم يحدث شيء، وأصبح الذين صدقوه فقراء صعاليك بسبب دَينهم للمسلمين، وهرب الدرعي إلى فلسطين، ومات هناك[٦٤].

تصدي علماء الكلام اليهود لأدعياء المسيحانية

لقد تصدى أكابر متكلمة اليهود لدعاوى الوقاتين، ونددوا بتنبؤاتهم عن ميعاد ظهور المسيا (المسيح المنتظر)، كما هو واضح في كتابات سعديا بن يوسف الفيومي(٨٩٢-٩٤٢م)، وموسى بن ميمون(١١٣٥-١٢٠٤م)[٦٥]، ويوسف البو(١٣٨٠-١٤٤٤م)، المتأثرين بالنزعة

---

٥٩ - سفر ملاخي: ١/٣.

٦٠ - فرست مرعي الدهوكي: لمحات من تاريخ اليهودية والنصرانية، ص ١٥٠ ملحق رقم (١).

٦١ - جعفر حسن هادي: مرجع سابق، ص ٢٩.

٦٢ - المرجع نفسه، ص ٢٩.

٦٣ - سفر الخروج، ١٢ / ٣٦.

٦٤ - جعفر هادي حسن: الدونمه بين اليهودية والإسلام، ص ٢٩ - ٣٠.

٦٥ - موسى بن ميمون: ولد موسى بن ميمون فى قرطبة عام٥٣٠هـ / ١١٣٥م التي كانت تخضع لحكم المسلمين آنذاك. وقد ظل هناك حتى عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٥م؛ إذ رحل إلى مصر، وهناك قضى

بقية حياته إلى أن توفي. وينحدر موسى من أسرة عريقة يرجع نسبها إلى يهوذا هنَّاسي، بل إن بعض الباحثين يرجعون نسبه إلى الملك داود. وكان أبوه ميمون قاضياً في المحاكم الدينية مشهوراً= =ومتمكناً في الدراسات الدينية وعلم الفلك والرياضيات، وتلقى ابن ميمون دروسه الأولى في الأندلس، حيث تمتزج فيها علوم العالم وثقافاته. وفي ظل هذه البيئة التي انصهرت فيها كل تلك الثقافات المختلفة نشأ موسى نشأة علمية فلسفية ودينية؛ فقد اهتم الأب ميمون بتعليم ابنه التوراة والتلمود وغيرهما من علوم الدين اليهودي. كما تتلمذ على يد عدد من المسلمين حاملي مشعل الحضارة والعلم في ذلك الحين؛ أمثال يوسف بن صديق الأندلسي- الذي كان لدروسه أثر عظيم في تكوين عقلية ابن ميمون العلمية، وكذلك ابن أفلح الأشبيلي الذي درس على يده بالأندلس علم الفلك؛ هكذا اطلع ابن ميمون على كتابات المسلمين في المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والطب. وعن ترحال موسى بن ميمون وأسرته نعرف أنه عندما دخل الموحدون إلى قرطبة عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م خيروا أهل الذمة من اليهود والنصارى المقيمين فيها بين اعتناق الإسلام أو الرحيل عنها، فرحل بعضهم وبقي البعض الآخر ممن أظهر الإسلام وأبطن اليهودية منتظراً فرصة اللحاق بمن خرج. هكذا خرجت أسرة ميمون إلى جنوب إسبانيا حيث مدينة (المرية)، وهناك عاشت الأسرة اثنتي عشرة سنة حتى فتحها الموحدون عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م. وطبقاً لنظام التخيير السابق الذكر اضطرت الأسرة إلى اعتناق الإسلام وحفظ القرآن والاشتغال بالفقه. ولكن حينما سنحت الفرصة بالرحيل، غادرت أسرة ميمون (المرية)، متوجهة إلى مدينة (فاس) المغربية، في العام نفسه. ونتيجة لتشدد الموحدين، اضطرت أسرة ميمون إلى الإبحار خفية في عام٥٦٣هـ/ ١١٦٥م إلى (عكا)، ثم مكثت فيها ما يقارب ستة أشهر، حيث اضطرت للنزوح إلى (مصر)، بسبب المعاملة الوحشية من الصليبيين للمسلمين واليهود الخاضعين لسلطانهم، كما أن مصر كانت تتميز بقدر كبير من التسامح الديني وحرية العقيدة، هذا إضافة إلى المعاملة الحسنة من قبل الأيوبيين لأهل الذمة. وفي مصر، تولى موسى بن ميمون رئاسة الطائفة اليهودية عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وقد كان ذلك بدعم من الناصر صلاح الدين الأيوبي، ووزيره القاضي الفاضل، تقديراً منهما لدور العلم والعلماء. كما أن موسى كان قد عيَّن ابنه إبراهيم خلفاً له في رئاسة الطائفة، وظلت هذه الوظيفة تتوارث داخل أسرة موسى بن ميمون حتى القرن الرابع عشر الميلادي، وقد كان من نتائج تولى موسى رئاسة الطائفة أن أخذ في محاربة كل الخرافات والأساطير الموجودة في الديانة اليهودية، كما حارب كل العادات السيئة الموجودة في الصلوات والطقوس الدينية. ونتيجة توطيد علاقته بالناصر صلاح الدين وأسرته وحاشيته، عمل طبيباً للملك الناصر، كما استعان به الناصر على تهدئة يهود اليمن، في أوقات اندلاع أعمال الشغب والتمرد. ينظر: عبد المجيد، محمد بحر: اليهود في الأندلس، (القاهرة: الهيئة المصرية

العقلية الاعتزالية. فأنكر هؤلاء دعاوي الوقاتين، وسحرهم، وشعوذتهم، وأكدوا وقرروا أنه لا يجوز لأحد التنبؤ بقدوم المنقذ الإلهي (المسيح المنتظر)، "فعِلْمُ ظهوره لا يعلمه إلا الله"[٦٦]، مع تأكيدهم للمقاصد الغائية للمسيحانية، من أن ظهور المخلص بشارة لدخول بني إسرائيل الأمان، وأن الإنسانية ستجد طريقها الصحيح إلى الدين الحق، وتعاليم التوراة وشرائعه، وستنعم البشرية بالرشاد تحت ظل مبادئ العدل والإخوة والمساواة، وستسقط كل العوائق والموانع التي كانت تحول دون الانكباب على دراسة التوراة، والاستهداء بتعاليمه، وستنتهي عصور الخصومات والحروب، وتنعم البشرية بالسلام والرفاهية بمجيء وقيام السيادة الإلهية على الخلق أجمعين. فصار الوقاتون يبحثون عن تاريخ محدد لظهور المسيا اليهودي، فحدد بعضهم عام ١٠٩٦م، وهو عام بدء الحملات الصليبية، عام ظهور المخلَّص، والسنة المنشودة للخلاص النهائي المحتومThe Year Of The Deliverance.

ولما أثبتت الأحداث أن الحروب الصليبية كانت شؤماً ودماراً كاملاً ليهود أوروبا، إذ جعل الصليبيون شعارهم الأول: "الثأر للسيد المسيح من قتلته اليهود"، واتهموا اليهود بموالاة المسلمين، مما جر إلى سلسلة متعاقبة من حملات الاضطهاد والتنكيل والمذابح الجماعية، ومصادرة الأموال والممتلكات، وفرض الإقامة الجبرية على اليهود في مناطق مقفلة، حصروا فيها (Ghetto)، وألزموا بلبس القبعات المدببة (The Jew Hat)، ووضع شرائط صفراء على صدورهم، بغية فرزهم وفصلهم عن المسيحيين (The Yalow Badge)[٦٧].

وهكذا انتهى الأمل بالخلاص بنتائج سلبية، ومعاناة قاسية.. وفي القرنين التاليين للحروب الصليبية، عاد الوقاتون إلى تحديد تواريخ أخرى لمجيء المخلص من آل داود، فافترضوا عامي ١٣٤٨م و١٤٠٣م ميقاتاً معلوماً لظهوره، استخلاصاً من الرؤويات المبثوثة في (سفر دانيال)[٦٨].

العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٧٠م)، ص٨٩- ٩٠؛ هاني عبد العزيز السيد سالم: الحركات اليهودية المسيحانية في ظل الإسلام ، ص ١٣ - ١٤ .

٦٦ - العهد القديم: سفر زكريا، ٢٣/٣٤.

٦٧ - عرفان عبد الحميد: مرجع سابق، ص ٣٣ - ٣٤.

٦٨ - فرست مرعي: لمحات من تاريخ اليهودية والنصرانية، ص ٤٤ - ٤٨.

داود مناحيم بن سليمان ابن الروحي العمادي (١٠٩٩ - ١١٦٠م)

هناك تضارب واختلاف في تدوين حادثة فتنة (داود بن سليمان الروحي (الرائي) بين المصادر اليهودية والإسلامية، فالمصدر الإسلامي الوحيد عنه هو كتاب (بذل المجهود في إفحام اليهود)، لصموئيل(السموأل) بن يحيى بن عبده المغربي (المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م)، الذي اعتنق الإسلام ببغداد سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م[٦٩]، وغادرها الى إقليم (أذربيجان)، حيث خدم بيت (بهلوان)، وأمراء دولتهم، وتوفي في مدينة (مراغة) سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م[٧٠]. فيما لم يشر المؤرخ الشهير ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) إلى هذه الحادثة، رغم معاصرته لها.

أما المصادر اليهودية، فكلها تستند في روايتها إلى رحلة (بنيامين بن يونا التطيلي)[٧١]. وتختلف هذه المصادر في اسم بطل هذه الفتنة، فبنيامين يسميه (داود الروئي)، ويقول المؤرخ اليهودي (ابن ويرغه)، في كتابه (سبط يهوذا)، إنه (داود الداود). وفي (سلسلة التواريخ)، لابن يحيى، إنه (داود المنصور). وفي رواية: أن لفظة (الروئي) محرفة عن لفظة (الرازي)، نسبة إلى مدينة (الري)، المدينة الإيرانية المعروفة، التي كانت عاصمة لإقليم الجبال، والتي بنيت مدينة طهران في شمالها[٧٢]. أما بخصوص المصادر الإسلامية، وتحديداً كتاب (بذل المجهود في إفحام اليهود)، فإنه يسميه (مناحيم بن سليمان)، ويعرف بابن الروحي[٧٣].

ويعتقد أحد الباحثين اليهود المحدثين، بأن اسم (مناحيم) مختلق، أطلقه هذا المسيح الدجال على نفسه، لأن التقاليد اليهودية تقول إن المسيح المنتظر يحمل اسم مناحيم، أي (المعزي)، وعليه يمكن البت أن الاسم الكامل لبطل هذه الفتنة هو: داود بن مناحيم بن سليمان المعروف بابن الروحي.

وبشأن تاريخ هذه الفتنة، فيمكن تحديده في خلافة (محمد بن المستظهر)، الذي بويع له بالخلافة في ١٢ ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م، ولقب بالمقتفي لأمر الله، وتوفي سنة

---

٦٩ - رحلة بنيامين التطيلي، ص ٢٤٤.

٧٠ - المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

٧١ - المصدر نفسه، ص ٢٤٣ – ٢٤٦.

٧٢ - المصدر نفسه، ص ٢٤٤ هامش٣.

٧٣ - السموأل بن يحيى المغربي: إفحام اليهود، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عبد الله الشرقاوي (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد،١٤٠٧هـ)،١٨١.

٥٥٥هـ/١١٦١م[٧٤]. وهذا واضح من قول الرحالة (بنيامين): "وقبل عشر سنوات قامت في (العمادية) فتنة داود ابن الروحي". ولما كان من المعلوم أن (بنيامين) زار (إيران) حوالي سنة ١١٧٠م، لذا يبدو أن التاريخ التقريبي لوقوع الحادثة صحيح. كما يمكن الاستئناس بما أورده (بنيامين) من أن (داود الروحي) قد تلقى العلم في (بغداد) على يد رأس الجالوت، ورأس المثيبة. ولما كان رأس المثيبة (علي بن إسرائيل اللاوي) قد تولى رئاسة المثيبة من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٦٠م، لذا أمكن القول بأن (داود ابن الروحي) قام بحركته في حدود سنة ١١٦٠م/٥٥٥هـ[٧٥].

وإذا كان (بنيامين) و(السموأل) يتفقان من حيث المبدأ في نشأة هذه الفتنة، ودواعي أسبابها، فإنهما يختلفان في أسلوب روايتها. فالأول يدافع عنه، وينسب إليه الخوارق والمعجزات؛ بسبب يهوديته[٧٦]، في حين يتحامل الثاني عليه بالطعن والتشهير؛ لكونه قد دخل في الإسلام، وهاجم اليهود واليهودية في كتابه (بذل المجهود في إفحام اليهود)[٧٧].

ولد (داود) في بداية حروب الفرنجة عام ١٠٩٩ م، في منطقة (حبتون) (=خفتيان – هبيتون)[٧٨]، من ضواحي بلدة (العمادية)، الواقعة في كوردستان العراق. وقد اختلف البلدانيون، والمؤرخون، في تحديد موقعها، ولكن وفق المصادر السريانية، والإسلامية، فإنها تشكل الجبال المطلة على نهر الزاب الكبير من الجهة الشرقية (= جبال شيرين المطلة على

---

٧٤ - يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، مع ملحق بتاريخ يهود العراق في القرن العشرين بقلم مير بصري، الطبعة الثانية (لندن: دار الوراق،١٩٩٧)، ص ١٤٣ هامش (١).

٧٥ - رحلة بنيامين التطيلي، ٢٤٤.

٧٦ - المصدر السابق، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

٧٧ - المصدر نفسه، ٢٤٥؛ والغريب أن أحد الكتاب اليهود المحدثين يدافع عن السموأل اليهودي الذي أسلم بقوله: "ففي كتاب إفحام اليهود للصموأل (السموأل) ب. يحيى المغربي، وهو يهودي دخل في الإسلام، نجد رواية أكثر واقعية لانتفاضة الروي؛ بغض النظر عن تحامل الكاتب على اليهود"، إريك براور: يهود كردستان ٦٣.

٧٨ - هبتون: حبتون – حفتيون، جبل بنواحي الموصل، وهو من أعمال الموصل. ينظر، ياقوت الحموي: معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٩٨٦)، ج٢، ص ٢١١، ج٥، ص ٢٢٣؛ وفي نص آخر له يقول: "ثم يقلب في أرض حفتيون من أرض الموصل حتى يخرج في كورة المرج من كور الموصل" ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج٣، ص ١٢٣، ولعل حفتيون تصحيف من النساخ.

بارزان، وجبال برادوســـت- نواخيين ، وجبال حرير في محافظة أربيل)[٧٩]. وكان يعيش في منطقة العمادية آنذاك، حوالي ٢٥ ألف يهودي، يتفاهمون بالعربية والترجوم (= الآرامية الشـــــــرقية)، وفق رواية الرحالة اليهودي (بنيامين التطيلي)[٨٠]. وتلقى (داود) العلم في (بغداد) على يد رأس الجالوت فيها (دانيال بن ســليمان حســداي)، وعلى يد رأس المثيبة (علي بن إســـرائيل اللاوي (١١٥٢ – ١١٦٠م). كان داود شاباً ذكياً، وسيماً، طليقاً في الكلام، حضــر دروساً في الجامعة النظامية، وحضــر حلقات أرباب التصوف في بغداد، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني (١٠٧٨ – ١١٦٥)، وســمع منه كتابه (الفتح الرباني والفيض الرحماني)، كما حضـــــر دروس الشـيخ عدي بن مسـافر الأموي، في (الموصـل)[٨١]، وبعدها سـافر إلى (دمشـق)، وانتقل بعدها إلى (بيت المقدس)، فوجدها بيد الفرنجة، فعاد إلى بغداد، وانتقل إلى خراســان. وكان اليهود وفيري العدد في إقليم الجبال، حســب رواية البلداني الإســلامي

٧٩ - جان موريس فبيه: آشور المسيحية، ترجمة: نافع توسا، مراجعة وتدقيق: يوسف توما (بغداد: منشــورات الفكر المســيحي،٢٠١١)، ج١، ص ١٥٢، حيث يضــيف بأنه اعتماداً على كتاب العفة والملاحظة المدونة في العدد ٩٠ المخصــصــة للربان (قام إيشــوع)، حيث يقول: "يقع جبل حيوتون الذي سيؤسس فيه الربان إيشوع ديره على بعد عشرة أميال من دير بيث عاوي (= يقع على بعد خمسة أميال غرب مدينة عقرة)"، المرجع نفسه، ص ١٥٢ - ١٥٣؛ وهفتون:" بليدة من نواحي أربل، تنزلها القوافل لمن يريد أذربيجان، وخفتيان: قلعتان عظيمتان من أعمال أربل، أحداهما على طريق (مراغة)، يقال لها خفتيان الزرزاري، والأخرى خفتيان ســـــــرخاب بن بدر، ويكتب في الكتب خفتيذكان". وقد وردت في رســائل صــموئيل بن علي رأس مثيبة بغداد باســم خفتيذكان زرزاران. ينظر: رحلة بنيامين التطيلي، ص ١٨٥-١٨٦؛ ولمزيد من المعلومات ينظر: ســليمان صــائغ الموصــلي: تاريخ الموصل (مصر: المطبعة السلفية،١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)، ج١، ص ٦٠؛ فرست مرعي: الفتح الإسلامي لكردستان (دمشق: دار الزمان، ٢٠١١)، ص ١٤٢.

٨٠ - يبدو أنه هناك مبالغة من قبل الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي في تقدير عدد اليهود في تلك المنطقة الجبلية النائية من كوردستان (= العراق)، ولعله يقصد يهود إيران وكوردستان.

٨١ - محمد عبد الحميد الحمد: دور اليهود في الحضــارة الإســلامية (الرقة :٢٠٠٦)، ص٢١٩، وكان الباحث قد اعتمد على كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، للمستشــرق السويســري (آدم متز)، في تدوين المعلومات الخاصــة بدراســة داود الروحي على يد علماء المســلمين؛ ولكنني بمراجعة المرجع المذكور لم أجد النص المدون في المتن، لذا اقتضى التنويه.

المقدسي (المتوفى سنة ٣٦٧هـ)[٨٢]، وهذا ما جعل المستشرق السويسري (آدم متز) يقدرهم بأكثر من ثمن سكان العراق وخراسان[٨٣].

لمعت في خيال (داود) فكرة تحرير القدس من يد الفرنجة (=الصليبيين)، فكيف الوصول إلى ذلك؟ حَول الفكرة إلى عمل، وادعى أنه المسيح المنتظر، وأن الله أوكل إليه مهمة تحرير القدس الشريف، وأنه سيعيد العدل إلى هذه الربوع. نالت فكرته الرضا والقبول. وادعى أنه يعرف اسم الله الأعظم، فهو إذن من العارفين بالله. قال (بنيامين التطيلي): "لقد تضلع بالتوراة والفقه والتلمود وسائر العلوم، وبرع بلغة المسلمين ودياناتهم، ونبغ بفنون السحر والشعوذة، ودخل في روحه أن يعلن العصيان على الأتابك قطب الدين بن مودود التركماني (٥٤٤-٥٦٥هـ/١١٤٩- ١١٦٩م)، في خلافة المتقي لأمر الله العباسي، في منطقة طبرستان (= مازندران - جنوب بحر الخزر – قزوين)، وجمع حوله يهود جبال تلك المناطق، ودعا إلى مقاتلة الصليبيين، وقال لليهود: إن الله قيضني لفتح القدس، وإنقاذكم من نير الاستعباد، فآمنت به مجاميع من البسطاء، وحسبوه المسيح المنتظر"[٨٤].

ولما خرج (داود الروحي)، طلبه عامل السلطان مودود، وسأله: "أمن صحيح أنك ملك اليهود؟ قال داود: نعم، فأمر بالقبض عليه، وزجّه في السجن، وعقد مجلساً للنظر في هذه الفتنة. فإذا بداود قد اختفى، وظهر في بلاد السلطان في (الموصل)، وهو طليق من الأغلال والقيود. فدهش السلطان، وقادة الجيش، وسأله السلطان: كيف شخصت إلى هنا؟ ومن أطلق سراحك؟ فأجابه داود: بحكمتي ودهائي وحدهما، وأنا لست خائفاً منك، ولا أخشى وزراءك. فأمر السلطان (= سنقر بن مودود) حراسه بأن يقبضوا على (داود)، لكن هؤلاء كانوا يسمعون صوته، ولا يرون شخصه. فهال السلطان هذا الأمر، وسمع صوت (داود) يقول: إنني الآن ذاهب في طريقي. فشاهده الجميع وهو يبارح المكان، وتبعه السلطان وجنده ووزرائه، حتى أشرفوا على شاطئ النهر (قيزل أوزون). فرأوا داود ينشر طيلسانه فوق الماء، ويعبر عليه إلى الجانب الآخر... أما داود، فقد نطق ببعض التعاويذ، ونطق باسم

٨٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٦)، ص ٣٥٣.

٨٣ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة، ١٩٨٣) ج١، ص ٦٢.

٨٤ - رحلة بنيامين التطيلي، ص ١٨٦ - ١٨٧.

الله الخفي (= الأعظم)، فقطع بيوم واحد ما مسيرته عشـرة أيام، فبلغ مدينة (العمادية)، وقص على أتباعه ما حدث..."[٨٥].

كتب السلطان السلجوقي (سنقر بن مودود) إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله(٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦١م) بأخبار (داود بن الروحي) اليهودي، فطلب الخليفة من رأس الجالوت، ورأس المثيبة، في بغداد، بإجراء اللازم، فحرروا كتاباً إلى داود، جاء فيه: "ليكن بمعلومك أن موعد ظهور المسـيح لم يحن بعد، وليس لدينا براهين عن قرب ظهوره، وهذا الأمر لا يتم بشـق عصـا الطاعة. وإنا مطالبوك بالكف عما أنت فيه، وإلا حرمناك من أن تكون من جماعة بني إسـرائيل". وأرسـلت نسـخة من الكتاب إلى الرئيس (زكاي)، والى الفلكي المعروف ببرهان الفلك في الموصـل، ليردعوا داود عن زيفه وأباطيله، ولكن داود لم يرتدع[٨٦] . يقول (بنيامين التطيلي) بهذا الصـدد: وبواسـطة الحيلة، أرسـل الرئيس (رأس المثيبة في الموصل) زكاي(= زكاي بن سليمان حسداي) إلى حمي داود عشـرة آلاف دينار، فدخل على داود وهو يغط في النوم، وذبحه في فراشه، وتخلص العباد من شـره، وأرسل رأس الجالوت إلى الأمير زين الدين علي بن بكتكين التركماني(٥٣٩ -٥٦٣هـ/١١٤٤-١١٦٣م) مبلغاً جسيماً، وقدره مائة ألف دينار ذهباً، لكي يعفو عن اليهود في منطقة العمادية[٨٧].

لقد تجاهلت المصادر الإسلامية (داود بن الروحي)، ولم تذكره، والسؤال: هل قصة داود مختلقة؟ أم هي حقيقية؟ يبدو أن قصـة داود بن الروحي حقيقة تاريخية، ولكن المؤرخين الإسلاميين أهملوها، ولم يتعرضوا لتدوينها، بسبب عدم أهميتها من وجهة نظرهم، ولأنهم لم يذكروا إلا النذر اليسير من أخبار أهل الذمة من اليهود والنصارى، وما جاء في كتبهم من النتف القليلة عن أخبار هؤلاء، أوردوها على سـبيل العرض ليس إلا، أو أنهم ذكروها لعلاقتها بتاريخ الخلافة، واشـتراك المسـلمين فيها. بينما كانت هذه الأخبار مهمة من وجهة نظر مؤرخي يهود، ورجالتهم، لأنها تلقي ضـوءاً على الجوانب السـياسـية والثقافية والاجتماعية للمجتمع اليهودي، ضمن دولة الخلافة العباسية آنذاك[٨٨].

---

٨٥ - المصدر نفسه، ص ١٨٧ - ١٨٨.

٨٦ - رحلة بنيامين التطيلي، ص ١٨٨ – ١٨٩؛ يوسـف غنيمة: نزهة المشـتاق في تاريخ يهود العراق، ص ١٤٦.

٨٧ - رحلة بنيامين التطيلي، ص ١٨٩.

٨٨ - يوسف غنيمة: نزهة المشتاق، ص ١٤١.

فالعالم اليهودي (السموأل بن يحيى بن عباس المغربي اليهودي)، بعد اعتناقه الإسلام سنة (٥٥٨هـ - ١١٦٢م)، كتب كتاباً سمّاه (بذل المجهود في إفحام اليهود)، تعرض فيه لقضية داود بن الروحي بإسهاب، جاء فيه: "خاطب داود اليهود بقوله: لعلكم تقولون: لأي شي استفزنا داود؟ لسنا نريدكم لحرب أو لقتال، ولكن لكي تكونوا واقفين بين يدي هذا القائم، ليراكم هناك من يخشاه من رسل الملوك الذين ببابه، وينبغي أن يكون مع كل واحد منكم سيف يخفيه تحت أثوابه"[٨٩].

تعاطف اليهود في البداية مع داود، وعندما انكشف أمره، وقتل، وصفوه بصاحب الفتنة المحتال. ولكن اليهود عانوا وبال المشقة والخسارات والفقر في منطقة العمادية، أما ماذا حدث ليهود بغداد أثناء ظهور داود؟ قال يحيى بن عباس المغربي: "فرح اليهود به، وقدموا أموالهم إلى ممثلي المسيح المنتظر، واكتسى الفقراء ثياباً، واجتمعوا على السطوح ينتظرون الطيران على أجنحة الملائكة إلى بيت المقدس، وارتفع من النساء بكاء خوفاً على أطفالهن من أن يطيروا قبل طيرانهن، فيجوع الأطفال بتأخر الرضاع عنهم. وعندما لم يحصل الطيران، تعجب المسلمون لما اعترى اليهود عندما أسفر الصبح، واختفى ممثلو الدجال داود، وانكشفت الحيلة، فسموا ذلك العام عام الطيران"، وهو عام (٥٥٦هـ - ١١٦٠م)[٩٠]. وفي خبر يورده بنيامين التطيلي: "إن موسى بن ميمون عندما قبض على داود، وعرف بمصيره، قال داود للوالي: إذا قطع رأسه لا يلبث أن يعود للحياة، فأمر الوالي بحز رقبته، وعاجلته المنية، وانتهت هذه الفتنة"[٩١].

ويذكر (السموأل)، الذي كان معاصراً لهذه الحركة، بأنه رأى جماعة من يهود الأعاجم (= إيران) في مدن: خوي، وسلماس، وتبريز، ومراغه، قد جعلوا اسمه (مناحيم) قسمهم. وأما من في العمادية من اليهود، فصاروا أشد مباينة ومخالفة في جميع أمورهم لليهود[٩٢].

وعندما وصل الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الى إيران، بعد عدة سنوات من موت داود الروحي، وجد مجموعة من اليهود يعتقدون بمناحيم المسيح المنتظر، الذي سيظهر مرة أخرى، كما وجد أتباعاً له في العمادية، وغيرها، يسمون (المناحمية)[٩٣].

---

٨٩ - السموأل بن يحيى المغربي: إفحام اليهود، ص١٨٢.

٩٠ - المصدر نفسه، ص ١٨٣ - ١٨٤.

٩١ - رحلة بنيامين التطيلي، ص ٢٤٦.

٩٢ - إفحام اليهود، ص ١٨٢.

٩٣ - رحلة بنيامين التطيلي، ص ١٨٩هامش (٣).

وقد كتب السياسي البريطاني (بنيامين دزرائيلي) (١٨٠٤ – ١٨٨١م)، الذي تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا مرتين (من ٢٧ فبراير/ شباط إلى ١ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٨٦٨م، ومن ٢٠ فبراير/ شباط ١٨٧٤ إلى ٢١ أبريل/ نيسان ١٨٨٠م)، والذي كان من أصل يهودي، رواية عن (داود الروحي – الرحى)، صوره فيها بطلاً قومياً فاتحاً[٩٤].

وقد أطلق اليهود الكورد، الذين هاجروا من العراق، اسمه على إحدى مستوطناتهم في(إسرائيل) (فلسطين المحتلة)[٩٥].

هذه هي صورة اليهودي المتمرد، الذي دفعته القبالة للخروج على السلطة؛ من صورة اليهودي الذليل، إلى صورة اليهودي الرجل الثائر الذي أراد تحرير القدس من يد الفرنجة.

خاتمة البحث

لقد تبين للباحث بعد هذه الدراسة، ما يلي:

أولاً: بشأن أوضاع اليهود في ظل الخلافة الإسلامية، نستطيع الجزم - بعد دراسة لآراء مجموعة من المستشرقين والمؤرخين اليهود-، أنهم قد اتفقوا مع المصادر الإسلامية بشكل كبير على أن معاملة اليهود في المجتمع الإسلامي، في العصر الإسلامي (الوسيط)، كانت أفضل بكثير من معاملتهم من قبل المسيحيين الأوروبيين في تلك الحقبة. كما أن اليهود رحبوا بالإسلام، وتنعموا تحت جناحيه بحياة حرة كريمة، وقبلوا حكمه، وجزيته، وهو ما نلمسه بشكل عملي في الازدهار والرخاء الذي عاشه اليهود في مختلف الدول العربية والإسلامية بعد دخول الإسلام.

كما أكد المؤرخون اليهود، قبل المسلمين، على سماحة الإسلام، وعلى نظرة اليهود للفتح العربي الإسلامي، ثم قبول حكمه، باعتباره المنقذ لهم من نير وظلم الدولة البيزنطية. وأن ما حدث لليهود من أعمال الاضطهاد، والطرد من أسبانيا، ومحاكم التفتيش في أوروبا، على وجه الخصوص، رغم ضلوع اليهود فيها، إلا أنهم في البلدان الإسلامية عامة، والعربية، لم يمروا بما مروا به في الغرب، بل وعاشوا في حرية دينية تامة، ومارسوا شعائرهم، وبنوا المعابد، ومع ذلك عملوا في الخفاء، وحاكوا المؤامرات ضد السلطات المحلية الإسلامية.

---

٩٤ - السموأل بن يحيى المغربي: إفحام اليهود، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عبد الله الشرقاوي (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد،١٤٠٧هـ)،١٨١.

٩٥ - فرست مرعي، فصول من تاريخ يهود كردستان، (دهوك: وزارة الثقافة - دار النشر والطباعة، ٢٠١٣م)، ص١٢٢.

ثانياً: بشأن الحركات اليهودية المسيحانية في المشـــرق الإسلامي، يتضح من البحث أن المسيح اليهودي هو ذلك الشخص الذي من شأنه إنقاذ بني إســـرائيل، وتكوين مملكة داود. أما الفكرة المسيحانية، فتعني خلاص بني إســرائيل من هذا العالم وشــروره وآثامه، وسيادة اليهود للعالم الجديد، تحت قيادة الملك المسيح.

وقد كانت الفكرة المسـيحانية تظهر وبقوة لدى اليهود، عندما تتدهور الأوضـاع، وتقع الكوارث، وتندلع الحروب بين الأشـــرار والأخيار، فضـلاً عن الانحطاط الأخلاقي، وتدهور العلاقات الاجتماعية. ثم تكون النهاية ببشارة إيليا بقدوم المسيح.

وقد ظهرت هذه الفكرة، وبقوة، لأول مرة، بعد دمار المعبد الســليماني (= المســجد الأقصــى)، على يد الملك البابلي نبوخذ نصــر، ثم ظهرت خلال ما تعرضوا له من دمار على يد الغزاة الصــليبيين، والمغول، فيما بعد - حقبة البحث -، ثم عادت للظهور بعد أعمال العنف والاضـطهاد والقمع ومحاكم التفتيش والطرد التي اجتاحت يهود أوروبا في العصـور الوسطى.

ومن أهم الحركات المسـيحانية، قبل داود الروحي؛ حركة أبو يعقوب الأصـفهاني، وداود بن عنان صـــاحب المذهب القرائي اليهودي، واليوذعانية، وغيرها. هذه النماذج وغيرها من المسحاء الكذبة، تؤكد على عنصـرين هامين، **الأول**: كذب وادعاء هؤلاء المسحاء الكذبة، الذين استغلوا ما وصل له اليهود من انتظار وشوق ولهفة في انتظار المسيح الذي سيخلصهم من هذا العالم وشـروره.

أما **الثاني**: طبيعة الظروف المحيطة، سواء أكانت اضـطهاد الجاليات اليهودية في أوروبا، أو الغزو الغربي للعالم الإسـلامي، ولم يكن العالم الإسـلامي طرفاً فيما تعرض له اليهود، فلم يكن العالم الإســلامي ســبباً لظهور مثل هذه الحركات؛ وإنما الحرية والتســامح والرفاهية ورغد العيش، هي عوامل حفزت بعض اليهود على العمل على الســيطرة على إخوانهم، بواسـطة اسـتعمال التصـوف اليهودي (القبالة)، وتوظيفها، مع أسـاليب الشـعوذة والدجل الذي كان يســود المجتمعات اليهودية في إيران، واليمن، وكوردســتان، حيث كان (داود الروحي) على دراية بأن يهود إيران كانوا "أغبى اليهود جميعاً"، على حد تعبير (بنيامين التطيلي)، وهذا ما مكنه من تولي وتبوأ موقع القيادة فيهم. وكان من نتائج هذه الأكاذيب والأوهام فشــل تلك الحركات الذريع، وهو ما عاد بآثاره الســلبية الوخيمة على الجاليات اليهودية نفسها❐

الخيرية في أمة الوسط

د. دحام إبراهيم الهسنياني

من أبرز خصائص الوسطية الإسلامية: الخيرية

إنَّ الوسطيَّةَ من خَصائصِ هذه الأُمَّة، وهي سببُ خَيْرِيَّتِها، ولا تزالُ الأُمَّةُ بخَيْرِ ما حافَظَتْ على هذه الخَاصيَّةِ التي تتميَّزُ بها: خاصية الوسطيَّةِ، التي تُمثِّلُ الاعتدالَ والاستقامةَ على صِراطِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإذا خرَجتْ عن الوسَطِ إلى أحَدِ جانِبَيْه، ففرّطَتْ أو أَفْرَطَتْ، فقد هلَكت، فإنَّ التَّطرُّف مَهْلَكة، التَّطرُّف لا يختَصُّ بالغُلُوِّ والإفْراط، وإنَّما الغُلُوُّ والإفْرَاطُ تطرُّف، والتَّقْصِيرُ والتَّفرِيطُ تَطرُّفٌ أيضاً، وكِلاَهُما مَهْلَكَةٌ للفَرْدِ والمُجْتَمع.

ويمكن الكلام على هذه الخصيصة بما يأتي:

أبرز وجوه الخيرية لهذه الأمّة:

قال الله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**}[٩٦]. وقال تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهَ**}[97]. وقد ذكرت أن من معاني الوسطيَّة الخيريَّة، قال الطبري: مقرّرًا خيريَّة هذه الأمَّة (أمَّة الوسط): "فإن سأل سائل فقال: وكيف قيل: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهَ**}؟ وقد زعمت أن تأويل هذه الآية: أن هذه الأمَّة خير الأمم التي مضت، وإنَّما يقال: كنتم خير أمَّة لقوم كانوا خيارًا، فتغيّروا عمّا كانوا عليه؟! قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما ذهبت إليه، وإنَّما معناه أنتم خير أمَّة، كما قال: {**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ**} [٩٨]، وقد قال في موضع آخر: {**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ**} [٩٩]، فإدخال (كان) في مثل هذا، وإسقاطها، بمعنى واحد، لأنّ الكلام معروف معناه. ولو قال - أيضاً - في ذلك قائل: (كُنْتُمْ) بمعنى التَّمام، كان تأويله: خلقتم خير أمَّة، أو وجدتم خير أمَّة، كان معنى صحيحًا"[١٠٠].

وفي تفسيره لقوله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**} [١٠١]. قال: "وأمّا التّأويل، فإنَّه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار، لأنَّ الخيار من النَّاس عدولهم"[١٠٢]. وقال ابن كثير: "والوسط هنا: الخيار والأجود، كما يقال لقريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيرها"[١٠٣].

وفي تفسيره لقوله تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**}، قال: "يعني خير النَّاس للنّاس، والمعنى: أنَّهم خير الأمم وأنفع النَّاس للنَّاس"[١٠٤].

وممَّا سبق يتَّضح أن الخيريَّة ممَّا فسر به معنى الوسطيَّة، التي ذكرها الله من خصائص هذه الأمَّة، فما هي هذه الخيريَّة التي نعرف بها وسطيَّة هذه الأمَّة؟

---

(٩٦) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٩٨) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.
(٩٩) سورة الأعراف، الآية: ٨٦.
(١٠٠) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤٥/٤.
(١٠١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(١٠٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٧/٢.
(١٠٣) تفسير القرآن العظيم: ١٩٠/١.
(١٠٤) المصدر نفسه: ٢٦٨/١.

قال الطبري في تفسير آية الخيريَّة: "وقال آخرون: معنى ذلك: كنتم خير أمَّة أُخرجت للنَّاس، إذ كنتم بهذه الشّروط التي وصفهم - جلّ ثناؤه - بها، فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمَّة تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتُؤمنون بالله، أخرجوا للنَّاس في زمانكم"[١٠٥].

قال محمد رشيد رضا: والحق أقول: "إنّ هذه الأمَّة ما فتئت خير أمَّة أُخرجت للنَّاس، حتَّى تركت الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر. ثم قال: وقد بيَّن الفخر الرازي كون وصف الأمَّة هنا بالأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والإيمان، علّةً لكونها خير أمَّة أُخرجت للنّاس، فقال: واعلم أنَّ هذا الكلام مستأنف، والمقصود منه بيان علّة تلك الخيريَّة، كما تقول: زيد كريم، يطعم النَّاس ويكسوهم، ويقوم بما يصلحهم. وتحقيق الكلام أنَّه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونًا بالوصف المناسب له، يدلّ على كون ذلك الحكم معلّلاً بذلك الوصف. فهنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيريَّة لهذه الأمَّة، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم، وهذه الطّاعات، أعني الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والإيمان، فوجب كون تلك الخيريَّة معلّلة بهذه العبادات"[١٠٦].

وقال القاسمي: "ثم بيّن وجه الخيريَّة بما لم يحصل مجموعه لغيرهم، بقوله: {**تَأْمرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللهَ**}[107]، فبهذه الصفات فضّلوا على غيرهم ممن قال تعالى فيهم: {**كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**}[108]، {**وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**}[109]. قال أبو السّعود: "{**وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**}[110]، أي إيمانًا متعلّقًا بكلّ ما يجب أن يؤمن به؛ من رسول، وكتاب، وحساب، وجزاء، وإنّما لم يُصرّح به تفصيلاً لظهور أنّه الذي يؤمن به المؤمنون، وللإيذان بأنَّه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة"[١١١].

(١٠٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤٤/٤.
(١٠٦) تفسير المنار: ٦٠/٤.
(١٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(١٣) سورة المائدة، الآية: ٧٩.
(١٤) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(١٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(١١١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٤٣٦/١.

وقد ورد عدد من الأحاديث التي تدلّ على خيريَّة هذه الأمَّة، منها:

روى الترمذي في تفسيره لهذه الآية، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - قال: (إنَّكم تتّمون سبعين أمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله)[١١٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: (أُعطيت ما لم يُعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ فقال: نصـــرتُ بالرّعب، وأُعطيت مفاتيح الأرض، وسـمّيت أحمدَ، وجعل التّراب لي طهورًا[١١٣]، وجعلت أمّتي خير الأمم)[١١٤]. فهذه الأحاديث مع آية آل عمران تبيّن خيريَّة هذه الأمَّة، التي جعلها الله أمَّة وسـطًا، وقد جمع المفسّـرون بين معنيي الخيريَّة والوسطيَّة، حتى جاء أحدهما تفسيرًا للآخر.

ولأهمّيَّة بيان معنى الخيريَّة، سـأذكر أبرز أوجه هذه الخيريَّة، ليتَّضـح لنا هذه الخاصـية البارزة للوسطيَّة:

١- الإيمان بالله:

قال تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بالله**}[115]، فقرن الله – سـبحانه - بين خيريَّة هذه الأمَّة والإيمان به، بل جعل الإيمان هو سـبب الخيريَّة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر فرع عن الإيمان، وأثر من آثاره. وهل يمكن أن نتصـوّر خيريَّةً دون إيمان بالله تعالى؟ والإيمان بالله يشـمل جميع أبواب الإيمان والإسـلام، لأنَّ العلماء ذكروا أن الإسـلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وهنا جاء ذكر الإيمان وحده، فهو يشمل الإيمان والإسلام[١١٦].

وعند التّأمل في معنى الإيمان، كما ورد في حديث جبريل المشـهور، قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه)[١١٧]. نجد الشّـمول والتكامل، كما قال تعالى: {**آمَنَ الرَّسُـولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ**

(١١٢) رواه الترمذي: ٢١١/٥ رقم (٣٠٠١). وابن ماجة: ١٤٣٣/٢ رقم (٤٢٨٨) وأحمد: ٥/٥. والدارمي: ٤٠٤/٢ رقم (٢٧٦٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(١١٣) الطَّهور: ما يتطهر به الإنسـان، والمراد أن المصـلي له أن يتيمم بما على وجه الأرض ما لم يُنجَّس. (لسـان العرب: ٥٠٤/٤، مادة: طهر).

(١١٤) رواه أحمد: ٩٨/١، والبيهقي في الدلائل: ٤٧٢/٥. وابن أبي شـيبة: ٣٠٤/٦، رقم (٣١٦٤٧). وقال ابن كثير في تفسيره: (٣٩٢/١): إسناده حسن.

(٢٠) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(١١٦) الوسطية في ضوء القرآن الكريم، الدكتور ناصر بن سليمان العمر: ٩٦.

(١١٧) سبق تخريجه: ١٨٣.

وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُـلِهِ}[118]. فالإيمان بالله يشـمل الأمور العقديَّة والعمليَّة، الظاهرة والباطنة، ما يتعلّق منها بعالم الغيب والشّهادة، ما كان منها في الدّنيا أو الآخرة.

والإيمـان بـالله أعمق دلالـة وأثرًا ممّا قـد يتصـورّه كثير من النَّـاس، فليس هو مجرّد التّصديق، كما فسّـره بعض المتكلّمين، ممّا أودى بكثير من النَّاس إلى اعتناق مبدأ الإرجاء، وهم لا يعلمون، وهم بهذا السّـلوك والتّفسـير فرّغوا الإيمان من معناه الحقيقي، ومدلوله الصّحيح. وإنّما هو علم واعتقاد وعمل، والإسلام من لوازم الإيمان، فمقتضـى الإيمان بالله وكتبه ورسله، يستلزم العمل بما أمر به الله في كتابه، وعلى لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم -. ولهذا، فإن شـرط الإيمان في تحقيق الخيريَّة، جاء مغنيًا عمّا يشـمله من أركان الإيمان والإسـلام. ولذلك، فإنَّنا قبل أن نحكم بخيريَّة جماعة أو فرد أو عمل، لا بدّ من التّحقّق في توافر شـرط الإيمان فيه، بمعناه الشّامل المتكامل، فقد قال تعالى: {**وَلَوْ آمَنَ أَهْـلُ الْكِتَـابِ لَكَـانَ خَيْراً لَهُمْ**}[119]، مع أنَّهم يـدّعون الإيمـان، ولكن العبرة بـالحقـائق لا بالدّعاوى.

وعند التّأمّل في قوله تعالى: {**وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**}[120]، أجد أن فيه معنى الخير والإنشـاء، فهو خبر عن حقيقة واقعة بإيمان هذه الأمَّة، حيث تميّزت عن غيرها في شـمول هذا الإيمان واستمراره، ويكفي دليلاً عن شمول إيمانها، شهادتها لبعض رسل الله يوم القيامة بأنهم قد بلّغوا رسالة ربّهم إلى أقوامهم. فهذا الإيمان الموجود، والمتحقّق، أهَّلها لهذه الخيريَّة.

ثم فيه معنى الإنشاء والطلب، حيث جعل من لوازم الخيريَّة وجود هذا الإيمان، فكما أن هذا الإيمان موجود في هذه الأمَّة بجملتها، وبخاصّة القرون المفضّلة، فإنّ على من أراد من أفراد هذه الأمَّة أن يكون من خيارها، أن يُحقّق معنى الإيمان في نفسـه، بمعناه الشّـامل المتكامل.

فإذا تحقّق الإيمان تحقَّقت الخيريَّة، وإذا تحقَّقت الخيريَّة في صورتها الشَّـرعية، وجدنا الوسطيَّة في أسمى معانيها، مقرونة بأقوى أركانها ومبانيها[121].

(٢٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٢٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٢٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(١٢١) الوسطية في ضوء القرآن الكريم: ٣.

٢- الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

من خصـــائص هذه الأمَّة العمليَّة: قيامها بالأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، وهذه شـــهادة الله لها: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**}[122]. والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أوجبه الله على من قبلنا، ولكنهم فرَّطوا وضيَّعوا: {**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَـا عَصَـــوْا وَكَـانُوا يَعْتَـدُونَ كَـانُوا لا يَتَنَـاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَـا كَـانُوا يَفْعَلُونَ**}[123]، ونجد مصـداق خيريَّة هذه الأمَّة لقيامها بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، أنَّه منذ بُعِثَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، إلى يومنا الحاضـر، وهذا الرّكن العظيم لم ينقطع، ولم يترك، كما فعل بنو إسـرائيل.

قال الأسـتاذ سـيد قطب: "فهي خير أمَّة أخرجت للنَّاس، لا عن مجاملة، ولا عن محاباة، ولا عن مصـادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - وليس توزيع الاختصـاصـات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: {**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**}[124]. كلا، إنّما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البـشريَّة من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يُحدّد المعروف والمنكر"[١٢٥].

إنَّ هذه الخيريَّة لها أسـباب، ولها حقيقة، حقيقة لا بدّ أن توجد في الواقع، وأن ترى في الحياة، وليست مجرّد تصوّر ذهني، وفلسفة غائبة. وهذه الخيريَّة مسألة نسبيَّة بالنسبة للأمَّة، فقد ترتفع لتبلغ الذّروة، كما كانت الحال في جيل الصّحابة والقرون المفضّلة، وقد تنحسـر في مجموعات وأفراد، كما هي في القرون المتأخرة، وذلك تبعًا لوجود مقومات الخيريَّة وصيانتها[١٢٦].

(٢٧) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٢٨) سورة المائدة، الآية: ٧٨ـ٧٩.
(٢٩) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(١٢٥) في ظلال القرآن: ٤٤٧/٤.
(١٢٦) الوسطية في ضوء القرآن الكريم: ٩٥.

أقوال المفسرين في (الخيرية):

قال المفســـرون: قوله تعالى: {.. **جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطًا**}، أي عدولاً وخياراً، والوسط الخيار والعدل، والآية محتملة للأمرين[127]. قال ابن كثير: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**}، يعني: "خير الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم، وأنفع الناس للناس"، كما قال في الآية الأخرى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطًا**}، أي: "خياراً"[128].

يقول العلامة جمال الدين القاسمي: "أي جعلناكم أمة خياراً لتكونوا شهداء على الناس، أي رقباء قُوَّاماً عليهم؛ بدعوتهم إلى الحق، وإرشـــادهم إلى الهدى، وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضـــلال، فتكون الآية نظير آية: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَر وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**}[129]، فإن الوســـط بمعنى الخيار، وقد صـــرح به في قوله {خير أمة}. وإلى هذا المعنى يشير قول مجاهد في الآية: لتكونوا شهداء لمحمد – صـلى الله عليه وسـلم- على الأمم: اليهود والنصـارى والمجوس، أي شـهداء على حقيقة رســـالته، وذلك بالدعوة إليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو قطب الدعوة وروحها"[130].

وخيرية هذه الأمة من وجوه عدة:

١. أمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر، وإيمانها بالله، كما في الآية الكريمة السابقة.

٢. كونها أكثر الأمم نفعًا للناس، كما فسـر أبو هريرة (رض) الآية الكريمة بقوله: (خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام)[131].

٣. كونها أكثر الناس استجابة للأنبياء، قال – صلى الله عليه وسلم-: (أنا أول شفيع في الجنة، لم يصـدَّق نبي من الأنبياء ما صُـدقت، وإن من الأنبياء نبياً ما يصـدقه من أمته إلا رجل واحد)[132].

٤. كونها لا تجتمع على ضلالة، يقول الرسـول – صـلى الله عليه وسـلم-: (سـألت ربي أربعاً، فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدة: ســـألته أن لا يجمع أمتي على ضـــلالة، فأعطانيها،

---

(٣٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق بن حسن القنوجي: ٣٠٠/١. وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٦٤.

(٣٣) تفسير القرآن العظيم: ٣٩٢/١.

(٣٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣٥) محاسن التأويل: ٢٨٢/١-٢٨٣.

(٣٦) رواه البخاري: ٤٢٨١، بَاب: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾.

(٣٧) رواه مسلم: ١٨٨/١، رقم (١٩٦)، وابن حبان عن أنس، وابن أبي شيبة: ٣٠٤/٦، رقم (٣١٦٥١).

وسألته أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم، فأعطانيها، وسألته أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها)[133].

٥. كون كتابها خير الكتب السماوية، ونبيها أفضل الأنبياء، وتقديمها على الأمم في الحشر، كما في الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: (نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة)[134].

٦. ومما يدل على أفضلية هذه الأمة ما ثبت من احتلالها لنصف الجنة، وكونها أكثر أهل الجنة، كما قال – صلى الله عليه وسلم-: (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ إن الجنة لا يدخلها إلا نَفْسٌ مسلمة، ما أنتم في الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر)[135]. يعني والنصف الآخر من المؤمنين الآخرين.

٧. ومما يدل على خيرية هذه الأمة أيضاً، قوله – صلى الله عليه وسلم-: (أنتم تتمّون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله)[136].

"فهم خيار وعدول، وأصحاب علم وعمل، لا يخلو زمان منهم لما في الحديث: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)[137]. وما دام القرآن موجوداً فهم موجودون، لقوله تعالى: {**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**}[138]، فلولا أن

---

(٣٨) رواه أحمد: ٣٩٦/٦، رقم (٢٧٢٦٧) حديث أبي بصرة الغفاري، والطبراني: ٢٨٠/٢، رقم (٢١٧١).

(٣٩) رواه أحمد: ٢٤٣/٢، رقم (٧٣٠٨)، والبخاري: ٢٩٩/١، رقم (٨٣٦)، بَاب فَرْضِ الْجُمُعَةِ، ومسلم: ٥٨٦/٢، رقم (٨٥٥) بَاب هِدَايَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، والنسائي: ٨٥/٣، رقم (١٣٦٧) باب إِيجَابُ الْجُمْعَةِ، وابن خزيمة: ١٠٩/٣، رقم (١٧٢٠)، والبيهقي: ١٧٠/٣، رقم (٥٣٥٤).

(٤٠) رواه البخاري: ٢٣٩٢/٥، رقم (٦١٦٣)، ومسلم: ٢٠٠/١، رقم (٢٢١) وأحمد: ٣٨٦/١، رقم (٣٦٦١) والترمذي: ٦٨٤/٤ رقم (٢٥٤٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة: ١٤٣٢/٢، رقم (٤٢٨٣)، والبيهقي: ١٨٠/٣ رقم (٥٤١٠).

(٤١) رواه ابن ماجة في الزهد (٣٣٤)، والترمذي في التفسير (١٤ آل عمران: ١١)، وقال: حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤٢) رواه أحمد: ٢٧٨/٥، ومسلم: ١٥٢٣/٣, رقم (١٩٢٠)، بَاب قَوْلِهِ – صلى الله عليه وسلم-: (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ)، والترمذي: ٥٠٤/٤, وأبو داود: ٩٨/٤ رقم (٤٢٥٢)، رقم (٢٢٢٩) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة: ١٣٠٤/٢ رقم: (٣٩٥٢) في المقدمة: باب اتباع سنة رسول الله، وأورده الهيثمي في المجمع: ٢٨٨/٧، وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح،

(٤٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

أناساً موجودون بهذه المثابة ما بقي القرآن، ونزول البلاء ليس دليلاً على عدم وجود الخيار، فإن الأنبياء كانوا موجودين مع حصول الخسف والمسخ بأممهم، فليسوا أعظم من الأنبياء، ولما في الحديث (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث)[139]..."[140].

ومما يدل على خيرية هذه الأمة الوسط، أنها أمة ربانية؛ ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه، حتى اكتمل لها دينها، وتمت نعمة الله عليها، كما قال تعالى: {**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسلام دِينا**}[141]، ولم تنشأ بمجرد المصادفة، أو وجدت في إقليم واحد، أو انتسبت إلى عنصر معين، كبعض الأمم، ولم تنشأ كذلك بإرادة فرد، أو إرادة طبقة، أو إرادة مجلس.. إنما أنشأها الله - جل جلاله - لتؤدي رسالتها في الوجود، كما قال تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطًا**}، فالله هو جاعل هذه الأمة، ومتخذها، وصانعها، لتقوم بدورها في الناس.. وقال تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**}[142]، فالله تعالى هو الذي أخرجها، ولم يخرجها لتتقوقع على نفسها، وتعيش في حدودها، ولمنافعها المادية الخاصة، إنما أخرجها (للناس) كل الناس، بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، أغنياء وفقراء، فهي أمة ربانية مبعوثة للعالمين، كما أن كتابها أنزل ذكراً للعالمين، ونبيها أرسل رحمة للعالمين، وبعثة هذه الأمة بعثة رحمة ويسر، لا بعثة قسوة وعسر.. وقد خاطب الرسول أمته الوسط فقال: (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[143]. فالله تعالى هو الذي بعثها وأخرجها.

ولقد فقه الصحابة هذا المعنى، وأدركوا أنهم مبعوثون من الله تعالى لهداية أمم الأرض، وعبر عن ذلك أحدهم، وهو: ربعي بن عامر (رض) في مواجهة (رستم)، قائد الفرس، محدداً

(٤٤) رواه أحمد: ٤٢٨/٦، والبخاري (٣٣٤٦) في الأنبياء: باب قصة يأجوج ومأجوج، ومسلم (٢٨٨٠) في الفتن: باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، وعبد الرزاق (٢٠٧٤٩) عن معمر، وابن ماجة (٣٩٥٣) في الفتن: باب ما يكون في الفتن، وأخرجه الترمذي (٢١٨٧) في الفتن: باب ما جاء في خروج يأجوج ومأجوج، والبيهقي في "السُّنن" ٩٣/١٠، وابن أبي شيبة (١٩٠٦١).

(٤٥) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: ٦٠/١.

(٤٦) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤٧) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(١٤٣) رواه البخاري: ٢٢٧٠/٥، رقم (٥٧٧٧) بَاب صَبِّ الْمَاءِ عَلَى الْبَوْلِ فِي الْمَسْجِدِ، والترمذي: ٢٧٥/١، رقم (١٤٧) بَاب مَا جَاءَ فِي الْبَوْلِ يُصِيبُ الأَرْضَ، وأبو داود: ١٠٣/١، رقم (٣٨٠) بَاب الأَرْضِ يُصِيبُهَا الْبَوْلُ، والنسائي: ٤٨/١، رقم (٥٦) باب: تَرْكُ التَّوْقِيتِ فِي الْمَاءِ.

مهمة الأمة في عبارات بليغة موجزة: (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[144].

فمن أراد الخيريَّة، فلا بدّ أن يقوم بهذا الرّكن العظيم، حتى تتحقّق له الخيريَّة التي جعلها الله من ميزات الأمَّة الإسلامية. والرسول – صلى الله عليه وسلم - يقول في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري: (من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[145]، فهي خير أمّة أخرجت للنَّاس، لا عن مجاملة، ولا عن محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله جل في علاه عن ذلك علوًّا كبيرًا- وليس توزيع الاختصاصات والكرامات، كما كان أهل الكتاب يقولون: {**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**}[146]، كلا.. إنّما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشريَّة من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يُحدّد المعروف والمنكر [147].

فإذا تحقّق الإيمان، تحقَّقت الخيريَّة، وإذا تحقَّقت الخيريَّة في صورتها الشّرعية، وجدنا الوسطيَّة في أسمى معانيها، مقرونة بأقوى أركانها ومبانيها. وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: (العلم أفضل من العمل، وخير الأعمال أوسطها، ودين الله - عز وجل - بين القاسي والغالي، والحسنة بين السيئتين، لا ينالها إلا بالله، وشر السير الحقحقة)[148].

وقد نجد ضعفًا في زمان من الأزمنة، أو مكان من الأمكنة، ولكنَّه لا يصبح حالة مستقرَّة، ولا تعدم الأمَّة آمرًا أو ناهيًا، ولو كانوا قلَّة قليلة، فالطائفة المنصورة موجودة إلى قيام السَّاعة، وهي طائفة ظاهرة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر..

ولقد ذكر الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في هذه الآية خبرًا وإنشاءً، فهو إخبار عن حقيقة واقعة ومستمرَّة، حيث إنَّ الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر مستمرّ في هذه الأمَّة إلى قيام الساعة، وهو كذلك (إنشاء)، فمن أراد الخيريَّة، فلا بدّ أن يقوم بهذا الرّكن العظيم، حتى تتحقّق له الخيريَّة التي جعلها الله من خصائص هذه الأمَّة.

---

(٤٩) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير: ٣٩/٧.

(٥٠) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم ٤٩.

(٥١) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٥٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٤٤٧/٤.

(٥٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان: ٤٠٢/٣، حديث رقم (٣٨٨٧)

وممّا ســـبق، يتبيَّن لنا أن الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، من أبرز أوجه خيريَّة هذه الأمَّة، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، له صور متعدّدة، وليس محصورًا بحالة أو صفة واحدة كالكلام مثلاً، بل قد يكون باليد أو اللسان أو العمل - كالقدوة مثلاً .

فهي خير أمة في استقامتها وتقواها.

خير أمة في أدائها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والتربوي.

خير أمة في خُلقها وتعاملها الفردي والجماعي.

خير أمة في تحقيق حرية الإنسان وكرامته وحقوقه.

خير أمة في أمنها واستقرارها وعدلها ومساواتها.

خير أمة في تراحمها ورحمتها فيما بينها وبين غيرها.

خير أمة في سيرها الحضاري والإنساني والفكري والثقافي.

خير أمة في التنافس في الخبرات والتدافع الحضاري❐

موجز عن تاريخ فلسطين والقدس

هفال عارف برواري

مقدمة:

الكنعانيون والفنيقيون واليبوسيون ما هم إلا قبائل سامية قادمة من شبه الجزيرة العربية، أقاموا حضارة في بلاد الشام، خاصة في فلسطين التي صارت تعرف بأرض كنعان وعاصمتها (أورسالم)، نسبة إلى (سالم) إله السلام عند الكنعانيين، والذي صار يسمى (يبوس) نسبة إلى اليبوسيين.

وفي الحقيقة، فإن الكنعانيين حينما تركزت حياتهم في فلسطين لم يسلموا من الغزوات والحروب، وجرت تسميتهم أيضا بالعماليق، حيث ثبت للمؤرخين أصولهم التي تمتد إلى (عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن سيدنا نوح عليه السلام).

لقد كان للكنعانيين أصولهم السامية، ولغتهم الخاصة بهم، واسمهم الذي عرفوا به بين الشعوب الأخرى على مدى التاريخ وامتداد الجغرافيا، حتى أن فلسطين عرفت لدى المؤرخين القدامى بأرض كنعان.

وعندما جاء اليهود إلى فلسطين، وقبل أن يحاربوا العماليق من الكنعانيين في عهد سيدنا داود - عليه السلام - استظلوا بالحضارة الكنعانية، وتعلموا منها الكثير، لا سيما وأنهم لم يكونوا يتقنون إلا التجارة.

وعندما انتصروا على الكنعانيين، قاموا بتحريف اسم عاصمتهم (أورسالم) إلى (أورشليم)، فظل الاسم دارجاً عندهم إلى يومنا هذا..

الجـــزء الأول:

لنختصـر تاريخ المنطقة في نقاط موجزة:

١ -هاجر الكنعانيون من موطنهم الأصـلي في الجزيرة العربية، واسـتوطنوا جنوب ديار الشام، في ما يقارب سنة ٤٠٠٠ ق.م، فسميت هذه الأرض بأرض كنعان.

٢ -وسـميت جزء من بلاد الشـام بفلسـطين.. وهناك دراسـات كثيرة ومتشـعبة عن أصـل الكلمة، وأصـل تواجدهم، لكن مختصـــــراً كان اسـمها (فلشـتين)، وقد كان لها وجود منذ الألف الرابعة، ق.م. و اســـم (فلســـتين) أتى من (فلش = بمعنى مزارع) + شـــجرة التين، فأصبحت (فلشتين، فلستين = فلسطين)، أي أنّها تعني (مزارعي أشجار التين).

لكن حدثت هجرات عكسـية من فلسـطين إلى جزيرة العرب فيما يقارب القرن التاسـع عشر ق.م، هذه الهجرة العكسية أعطت أسماء كنعانية فلسطينية لبعض الأمكنة في جزيرة العرب، أي أن (الفلسـتينيون) هم من أعطى (عسـير، وجنوب الحجاز)، أسـماء الأماكن، بعد أن هاجروا من فلسـطين إلى شـبه جزيرة العرب، بسـبب الجفاف في الفترة (٢٣ ق.م -١٩ ق.م).

وهناك رواية تقول إنه في عام ١٣٠٠ ق.م احتلت قبيلة فلســتيا اليونانية ســواحل أرض كنعان، فسميت المنطقة بفلسطين.

والفلســطينيون هم قبائل كنعانية عاشــوا في فلســطين. وأول إشــارة للفلســتينيين بعد اسـتقرارهم على السـاحل الفلسـطيني، هي في سـجلات الملك الآشـوري (أداد نيرارب الثالث) (٨١٠-٧٨٢) ق.م، الذي تفاخر بأنه جمع الجزية من فلستيا.

٣ -أما القدس، فقد سـكنتها قبيلة كنعانية، وهم (اليبوسـيون)، نسـبة إلى قبيلة (يبوس)، واسـتوطنوا التلال المرتفعة للمدينة القديمة، وبنوا على ما يسـمى بجبل صـهيون الآن برجاً لحمايتها في عهد الملك (سالم اليبوسي)، فسميت المدينة باسم (سالم)، ثم تم تغيير الاسم إلى (يور سـالم) (أور سـالم) أي (مدينة السـلام)، وبقي هذا اسـمها إلى حين عهد الملك سـليمان، حيث سميت بـ (أورشليم).

٤ -وفي حدود فلســطين، هاجر إليها (الفينيقيون)، الذين كانوا من بطون الكنعانيين العرب أيضـاً. كما عاش في فلسـطين في ذات الفترة، شـعب (العموريين) أو الأموريين، وهي قبائل عربية نتج عنها على مدى مئات السـنين شـعب (الهكسـوس)، الذي كان له دور بالغ الأهمية في مدينة القدس.

ولم يكن هناك وجود للعبرانيين في القدس وحواليها، فقد كانت أرضـاً للكنعانيين. ويقال أن اسم كنعان هو نسبة لـ(كنعان بن سام بن نوح).

٥ -ورد إليها (إبراهيم -عليه السلام-) من العراق، مهاجراً بأمر الله تعالى إلى أرض كنعان في القرن ال(١٩) ق.م، مع زوجته سارة، وبعض المؤمنين، منهم (لوط ع)، فعبروا نهر الأردن إلى أرض كنعان، لذا سموا بـ(العبرانيين)! أي كان الكنعانيون موجودون قبل إبراهيم (ع) بـ ٢١ قرناً، وقد بين القرآن ذلك: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}، فهي كانت مباركة للعالمين، وليس لشعب أو قبيلة! أو أن هذه الأرض كلها ستكون مباركة لأنَّها ستكون أرض النبوات، ومهبط الرسالات، وساحة الأديان التوحيديّة الكبرى.. وهذا مراد الله بالقداسة ..

و من أولاد إبراهيم هو (إسحاق)، كان له ابن يسمى بـ (يعقوب)، وسماه الله بـ(إسرائيل) أي بمعنى (عبدالله)، وكان له ١٢ ولداً، من بينهم من كان اسمه (يهودا)، ومن اسمه أُخذت لأول مرة كلمة (يهود)، وكانوا في فلسطين، لكن بسبب المجاعة هاجروا إلى مصر ليلتحقوا بـ(يوسف)، الذي كان أحد أولاد يعقوب، واكتسب مكانة رفيعة في الحكم، فقد كان وزيراً للتموين في حكم الهكسوس، الذين كانوا قد قدموا كقوة غازية من بلاد الشام إلى مصر.

لكن بعد تغلب الفراعنة على الهكسوس بعد سنين غابرة، اتهموا سلالة بني إسرائيل بالتهم، فعذبوهم وسخروهم لبناء القبور والأهرامات، وبعد أن اشتد عليهم التنكيل، بُعث إليهم (موسى ع) لإنقاذهم من فرعون وإعادتهم إلى التوحيد. وبعد غرق فرعون في البحر الأحمر، وعبور موسى وقومه البحر هاربين إلى سيناء، تمرد بنو إسرائيل على موسى بسبب ضنك العيش في الصحراء، فأنعم عليهم الله بالطعام والشراب والملك، والمراد بالملك أي أصبحوا أحراراً بعد أن كانوا مستعبدين، وباتوا مستقلين بعد أن كانوا أتباعاً، يملكون شؤون أنفسهم وأمورها بعدما كانوا مملوكين من فرعون وزبانيته يتصرف فيهم كيفما شاء، ومتى شاء..

فأمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة في فلسطين، فامتنعوا قائلين: إن فيها قوماً جبارين، وهم الكنعانيون، وهذا النص القرآني يبين ذلك:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا داخِلُونَ}..

لذلك عاقبهم الله بالتيه في الصحراء أربعين سنة.

فالقول إن القدس يهودية ليس بصحيح، فمن المعلوم أن شـــريعة موسى هي يهودية، لكن موسى ولد وبعث ونشأ في مصـــر، ومات في مصـــر، فصحراء سيناء من ضمن مصـــر! ونزلت عليه التوراة باللغة الهيروغلوفية المصـــرية، في أصلها، في القرن (١٦) قبل الميلاد.. أي أن القدس كانت فيها هذه القبائل قبل موسى بـــ ٢٧ قرناً! واللغة الهيروغلوفية كانت لغة قومه، كما بينه القران أنَّ كل رسـول نزل بلغة قومهم.. {وَمَا أَرْسَـلْنَا مِن رَّسُـولٍ إِلَّا بِلِسَـانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}.

أما اللغة العبرية في الأصـــل، فهي كانت لهجة كنعانية تبلورت كلغة بعد ١٠٠ ســـنة من موت موسى ودخول العبرانيين بقيادة (يوشع بن نون) إلى أرض كنعان!

٦ -في عهد (يوشـع بن نون) دخلوا مدينة (أريحا) في (فلسـطين)، وأنزلوا العقاب عليهم، وقسـموا فلسـطين بين الأسـباط الاثني عشـــــر، ومنهم سـبط (يهودا)، الذي كانت حصـته (يورسالم) [القدس] وما حولها، فحاربوا (اليبوسيين) وانتصروا عليهم بقيادة الملك (طالوت)، المسـمى عند اليهود (شـاؤول)، ومعهم النبي (داود)، واسـترجعوا (التابوت). ومن ثم جلس (داود ع) على عرش فلسـطين، وحول اسـم عاصـمتها (يورسـالم) إلى مدينة (داود). وجاء من بعده ابنه النبي والملك (سـليمان)، وسـمى القدس بـــــ(أورشـليم)، وبنى الهيكل (المعبد)، (الهيكل الأول، في سـنة ٩٦٠ق.م) .. لكن الله أوصى النبي سـليمان أن الهيكل سـيبقى لهم إلى يوم القيامة ما لم يفسـدوا، لكن بعد وفاته عاد اليهود إلى فسـادهم، فخرّب الله عليهم الهيكل، فانتشروا في الآفاق..

أي بمعنى أن هناك فقط (٤١٥ سـنة) في عهد (داوود وسـليمان)في القدس، وكان وجوداً عرضياً ومؤقتاً، وكان الكنعانيون موجودون قبلهم بـ(٤٠) قرناً!

وإبراهيم أبو الأنبياء لم يكن يهودياً ولا نصـــــــرانياً، كما أخبرنا القرآن، لأنه جاء قبل اليهودية والنصرانية:

{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

اليهودية كانت في القرن ١٣، (وإبراهيم ع)في القرن ١٩ قبل الميلاد!

أما النصرانية، فقد كانت في القرن الأول من الميلاد!

لذلك نستطيع السؤال: أين هو وجه المقارنة بين القدس واليهودية؟

فشـــريعة موسى لم تدخل القدس وأرض كنعان إطلاقاً، ودخلها (يوشع بن نون) مع بني إسـرائيل إلى أرض كنعان دخولاً واستيلاءً، وهو موجود في العهد القديم!

٧ -وللعلم فإن القدس وفلســطين احتلت من غزاة متعددين عبر التاريخ، وكأنها مركز الصـراع عبر التاريخ بين الأمم والحضارات إلى الآن!!

فبعد أن انقسمت مملكة يهوذا إلى شطرين شمالاً وجنوباً :

أولاً/ البابليون غزوها واحتكروها لأنفسهم بقيادة (بختنصـــر) (نبوخذ نصّـــر الثاني)، واحتل جنوب المنطقة، ودمر مدينة أورشليم، وأقدم على تدمير [هيكل سليمان]، وذبحهم، وأسر البقية، ونقلهم إلى بابل لما يقارب سنة ٥٨٦ ق.م.

ثانياً/

احتلت من قبل الإمبراطورية الفارســية بقيادة ملك الفرس (كورش)، وســمح بعودة اليهود إلى القدس، ولكن بعضــهم بقي في العراق، والبعض الآخر من اليهود هاجروا إلى القدس في عام٥٣٩ق.م، وتم إعادة بناء الهيكل المهدم، وتم بناء [الهيكل الثاني] عام ٥١٥ ق.م.

ثالثاً/ ثم احتلّ الإغريق أراضي فلسطين، وخضعت للإسكندر المقدوني (حوالي عام ٣٣٣ ق.م) [وهُدم الهيكل للمرة الثانية] خلال حكم المقدونيين، على يد الملك (أنطيوخوس الرابع)، بعد قمع الفتنة التي قام بها اليهود عام ١٧٠ ق.م، ثم خضــعت هذه الأراضي لخلفاء المقدونيين، وهم البطالمة، ثم السلوقيين.

رابعاً/ ثم احتلت من قبل الإمبراطورية الرومانية عام ٦٣ق.م. وكان (هيرودس) من أوائل الحكام، وأبرزهم، الذين عينهم الرومان لحكم القدس (عام ٤٠ق.م)، والذي أصــبح ملكاً على اليهود، وقد قام بتجديد بناء البيت المقدس (حوالي عام ٢٠ق.م)، وأعيد بناء (الهيكل) للمرة الثالثة، وعلق عليه شعار الرومان (النســـر الذهبي)، الذين كانوا يعادون اليهودية قبل (أغسطس).

ولكن بعد قيام ثورة اليهود الأولى ســنة ٦٦م ضــد الرومان، والتي كانت تعرف بالثورة الكبرى لليهود، أقدم الجنرال الروماني (تيتوس)، ابن الإمبراطور (ڤسپاسيانوس)، سنة ٧٠م، على احتلال أورشــليم مرة أخرى، وأقدم على تدمير الهيكل مع أورشــليم! أي تم [تدمير الهيكل للمرة الثالثة].

وفي عاميّ ١١٥ و١٣٢م، قامت الثورة اليهودية الثانية والثالثة، ومن خلالها تمكن اليهود بالفعل من السيطرة على المدينة، وأعلنوها عاصمة لمملكة يهوذا مجددًا، إلا أن الإمبراطور الروماني (إيليانوس هادريانوس) قام بسحق ثورة اليهود الثالثة، و تعامل مع الثوّار بعنف، وأســفر ذلك عن تدمير القدس للمرة الثانية. وتم تخريب أورشــليم تماماً في ســنة ١٣٥ م، وأحرق كل ما فيها، وتم حرق أراضــيها الزراعية! وأخرج اليهود المقيمين فيها، ولم يبق فيها إلا المســيحيون، ومن شــدّة نقمة الإمبراطور على اليهود قام ببناء مدينة جديدة مكانها،

وأصدر مرسومًا بجعل المدينة ذات طابع روماني، وتم تغيير اسمها من أورشليم إلى (إيلياء)، على اســـمه (أيليانوس).. وقد بنى (هادريان إيليانوس) مكان الهيكل معبداً رومانيًا، وأقام لنفسه ولربه جوبيتر تمثالين فيه، تهدّم كل ذلك فيما بعد، وأصبح مكان الهيكل (أو المسجد الأقصى) خاويًا، وكان ممنوعاً على اليهود دخول إيلياء إلا يومًا واحدًا في السنة، ليبكوا على أطلال الهيكل، فهي كانت معروفةً عندهم.. لذلك ففي عهد الفتح، عهد ظهور الإســـلام، ولغاية الفتح، كانت المدينة تسمى (إيلياء) وليس (أورشليم).

نستنتج من ذلك أن أرضية المعبد أو الهيكل هي التي أقيم عليها المسجد الأقصـــى وقبة الصخرة، وقد أرشد اليهود لمكان المعبد عندما فتحها عمر الخليفة، فالمكان لم يكن مجهولاً لهم.. وبعد أن حوّلت الرسالة من اليهود إلى المسلمين، أصبح المسلمون أولى بتراث الأنبياء منهم، وكان الإســراءُ بخاتم النبيين إلى المسجد الأقصـى، وصلاتُه إماماً بالأنبياء هناك، إعلاناً بذلك.

خامساً/ من تاريخ ٣٢٤- ٦٣٦م، يعد استمرار امتداد احتلال الإمبراطورية الرومانية، لكن بإدارة جديدة، بعد أن اعتنق (قســطنطين الأول) مؤســس الدولة البيزنطية (الإمبراطورية الرومانية الشـــــرقية) الدين المسـيحي، وجعلت العقيدة المسـيحية هي عقيدة الدولة.. وباعتبار فلسـطين هي المنطقة التي نشـأ فيها (عيسى ـ ع)، وأمّه (مريم العذراء)، فقد صـار لها مركز متميز وأهمية خاصـة في هذا العهد الجديد، مما حدا بوالدة قسـطنطين (هيلين) المتدينة إلى أن تبارك كل من يزور هذه المدينة المباركة، وتقوم باختيار مواقع لتشـــييد الكنائس وتمجدها مثل كنيســة المهد في (بيت لحم)، وكنيســة القيامة في (القدس) (محل دفن المسيح).

لقد أدى تشـــييد الكنائس في فلســـطين من قبل الإمبراطور، وأمّه (هيلينا)، إلى تحويل فلســطين إلى مركز فني هام.. أما ســياســياً، فقد حذا (قســطنطين) حذو الأباطرة الرومان، فمنع اليهود سـنة ٣٣٥م من التبشـير بينهم، وذلك بسـبب الفسـاد الذي كانوا يعيثون به. وقد منع قسطنطين اليهود من العيش في القدس، أو المرور بها!

وفي ســـنة ٣٩٥م، وبعد وفاة الإمبراطور (ثيوديســـيوس الأول)، انقســـمت الإمبراطورية الرومانية بين ولديه (هونوريوس، وأركاديوس)، فتولّى الأول الإمبراطورية الرومانيّة الغربيّة، وعاصمتها روما. وأما (أركاديوس)، فقد تولّى حكم الإمبراطورية الرومانيّة الشــرقيّة (الدولة البيزنطية)، وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينية)، وتضمّ بلاد الشّام بما فيها فلسطين.

وبعد ذلك بسـنوات، أي في الفترة ما بين ٣٩٧-٤٠٠م، قسـمت فلسـطين إلى ثلاث مناطق إدراية، وهي:

فلسطين الأولى، وعاصمتها (قيسارية مارتين)، وفلسطين الثانية وعاصمتها (بيسان)، وفلسطين الثالثة وعاصمتها (البتراء).

ومن عام (٤٨٤-٥٢٩م) ثار السامريون ضد الحكم البيزنطي مرات كثيرة ، استطاع أخيراً الملك (جستنيانس) إخماد ثورتهم واستتباب الأمن.

سادساً/ وخلال أهم المراحل التاريخية التي مرت بها فلسطين، فقد اجتاحت الدولة الفارسية فلسطين عام ٦١٤م.. قاد ذلك الاجتياح كسرى الثّاني ملك الفرس(٥٩٠-٦٢٨م)، حيث تعرضت مدينة القدس لحصار استمر لمدة ٢٠ يوماً .

هذا وقد ساعد يهود منطقة الجليل الفرس في احتلال فلسطين، بحيث يقال إنّهم قد أمدّوا الفرس بـ ٢٠ – ٢٦ ألف جندي، وأسفرت عن احتلال المدينة بقوة السلاح، وحرق عدد كبير من الكنائس والأديرة، وقتل الآلاف من السّكان المسيحيين وقادتهم .

إلا أنه وبعد مرور أربعة عشر عاماً، استطاع الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠-٦٣٦م) أن ينتصر على الفرس في معركة حاسمة بالقرب من نينوى بالعراق عام ٦٢٨م، ويستعيد القدس.

وقد أخبر القرآن عن هذه الحادثة:

{غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} (سورة الروم، الآيات من ١-٣).

وبعد هذا التاريخ قام (هرقل) بإعادة بناء الكنائس الّتي خرّبها الفرس.

وكان لا بدّ لهذا الإمبراطور من التعامل مع اليهود، الذين قتلوا من مسيحيي القدس أكثر مما قتل الفرس أنفسهم، فقام بقتل بعضهم وطرد الآخرين منهم، ولم يسمح لهم بالاقتراب لأكثر من ثلاثة أميال من القدس.

سابعاً/ وفيما يقارب سنة ٦٢٠م، وقعت حادثة الإسراء لنبي ورسول الإسلام محمد. وقد بين القرآن ذلك:

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.(سورة الإسراء/١).

لم يستمر الحكم البيزنطي لفلسطين طويلاً، إذ التقت القوّات الإسلاميّة مع البيزنطيّة في معركة اليرموك عام ٦٣٦م، وكانت نتيجتها هزيمة القوّات البيزنطيّة. وأخيراً، ينتهي هذا العصر في فلسطين عام ١٦هـ/٦٣٨م، عندما فتح الخليفة (عمر بن الخطاب) مدينة القدس، وتسلم مفاتيحها من بطريركها آنذاك (صفرونيوس) (٦٣٤-٦٣٨م)، الذين طلبوا من (عمر

بن الخطاب) عدم دخولاليهود إلى القدس! لكن (عمر بن الخطاب) بسماحته الدينية سمح بدخول اليهود الذين كانوا مطرودين من القدس في عهد الرومان.

وبعد ذلك بدأت صفحة جديدة من تاريخ القدس الشـريف وفلسطين بدخول المسلمين إليها، ونشـر الدين الإسلامي فيها، الذي أصبح فيما بعد وحتى الوقت الحاضر ثقافة ودين الغالبية العظمى من سكان فلسطين.

ثامناً/ أوروبا، متمثلة بالإغريق والرومان، غزوها واحتكروها لأنفسـهم في عهد الوثنية.. وفي عهد أوروبا المسيحية والتنصير الصليبي، أقدمت أوروبا على احتلال فلسطين وانتزاعها من المسـلمين ودخول المنطقة باسـم الحروب الصـليبية، واحتلوا القدس ودخلوها سـنة ١٠٩٩م، وحولوا بيت المقدس إلى كنيسـة لاتينية، مع مخزن أسـلحة واسـطبلات الخيول، وبقوا فيها ما يقارب الـ ٩٠ سنة!

تاسـعاً/ إلى أن اسـتطاع (صـلاح الدين الأيوبي الكوردي) من تحريرها مرة أُخرى، بعد أن نجح في تأسـيس جيش يقاتل لأجل هدف واضـح ببأس شـديد وعزيمة، مكنه من توحيد البلاد الإسلامية في مصـر والشام، وتقوية الصف الداخلي، وقتال الصليبيين والانتصار عليهم في كثير من المعارك، لا سيما معركة حطين، التي جرت في سـنة ٥٨٣ هـ الموافق في سـنة ١١٨٧م، والتي كُسـرت على أثرها شوكة الإفرنجة، وأسـر ملكهم، مما مهد لصلاح الدين الطريق نحو التوغل تجاه سـاحل الشـام، وفتح مدنه وحصـونه، حتى جاءت اللحظة التاريخية ألا وهي فتح بيت المقدس، ودخول مدينة القدس في ليلة الإسراء والمعراج في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ الموافق لـسنة ١١٨٧م.

عاشراً/ بقي الوضـع هكذا إلى حين اندلاع الحرب العالمية الأولى في القرن المنصـرم، واستطاعت بريطانيا سنة ١٩١٧م من احتلال فلسطين، وطرد قوى الخلافة العثمانية منها ، وأصـدر حينها وزير الخارجية البريطاني آنذاك آرثر بلفور (وعد بلفور) الشـهير، الذي نص على أن [حكومة صـاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسـطين للشعب اليهودي]!

وفي سنة ١٩٢٠م تم عقد (مؤتمر سان ريمو) للقوى المنتصـرة في الحرب العالمية الأولى، وقرر منح بريطانيا حق الانتداب على فلسـطين. وفي سـنة ١٩٣٠م لجنة ملكية بريطانية ووثيقة حكومية توصـيان بتحديد هجرة اليهود إلى فلسـطين من كل بقاع العالم! وفي سـنة١٩٤٧م الأمم المتحدة توصي بتقسـيم فلسـطين إلى دولتين عربية ويهودية، وبإخضـاع مدينة القدس، والمناطق المحيطة بها، لسـيطرة دولية، وذلك عقب إعلان بريطانيا إنهاء انتدابها.

وفي سنة ١٩٤٨م الإعلان عن ولادة دولة إسرائيل، وإعلان استقلالها، بعد انتهاء الانتداب البريطاني..

ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى ولغاية الآن الشعب الفلسطيني يقاوم هذا الاحتلال والتغيير الديموغرافي المبرمج لأهل الأرض، والقرارات المجحفة التي تتخذ في حقهم..

والآن اليهود يحتكرون القدس وفلسطين لأنفسهم ..

لكن الملاحظ أن:

كل الشعوب احتكروها وانتسبوها لأنفسهم، إلا الإسلام والمسلمين! لأنه الدين الوحيد الذي يؤمن بديانة الآخرين، ويحترم مقدساتهم. لذلك فإسلامية القدس ليست مصلحة إسلامية بحتة، بل هي مصلحة عالمية، لأن الإسلام فتح أبوابه لكل الديانات مع مقدساتهم وطقوسهم التعبدية. فلا غرابة أن تجد أن كثيراً من أوقاف الكنائس الموجودة في القدس مكتوبة عليها أن الوقف هي لأُسر مسلمة يتوارثونها، لأن المسلمين مؤتمنون على مقدسات الآخرين، ومحايدون حتى بالنسبة للفرق النصرانية التي كانت تحارب بعضها بعضاً.

لقد بقي الصليبيون ٢٠٠ سنة في المنطقة ، لكن أين هم الآن؟ فللتاريخ سنن لا تتغير!

أما ادعاء اليهود بوجود (هيكل سليمان) تحت المسجد الأقصى، فقد قلبوا باطن الأرض تحت بيت المقدس ليحصلوا على آثار هيكل سليمان منذ ١٩٦٧ م لكن لم يروا إلا آثار الأيوبيين!

الجـــزء الثاني

نصوص توراتية حول فلسطين وأهلها

الكل يعرف قصة سيدنا إبراهيم (ع) وهجرته من (أور) الكلدانية في جنوب العراق الحالي، حوالي نهاية القرن التاسع عشر (ق.م)، نحو أرض كنعان، وما رافقها من ملابسات.. وللعلم، أن القبائل الأمورية العربية هي التي كانت تسكن أور أيام دولتها (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م).

وسنركز في هذا الحيز على أن هنالك شعباً في أرض كنعان ينتمي لنفس الأصول العربية هم الكنعانيون، ويسكنون (فلسطين) قبل وأثناء هجرة إبراهيم (ع).

ومن الأمور الواجب ذكرها أن التوراة الحالية المتداولة تشير للهجرة بأنها لم تكن إلا لامتلاك الأرض الموعودة (من النيل إلى الفرات، وقلبها فلسطين)، وليس من أجل التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، كما هو مذكور في القرآن الكريم!!

وحول الأرض (فلسطين) ترد هذه النصوص:

-قال الرب لأبرام

[اعلم جيداً أن نسلك سيكونون غرباء في أرض غير أرضهم، فيستعبدهم أهلها]،(١٣-١٥،التكوين)، أي أن إبراهيم لم يكن من سكان فلسطين الأصليين!؟

وعندما دخل إبراهيم يندب سارة عند وفاتها، ويبكي عليها، فلما قام من أمام جثمانها، قال لبني حث (سكان الخليل):

[أنا غريب ونزيل بينكم، دعوني أملك قبراً عندكم لأدفن فيه ميتي من أمامي]، فأجابه بنو حث: [اسمع لنا يا سيدي، الله جعلك رفيع المقام فيما بيننا، فادفن ميتك في أفضل قبورنا، لا أحد منا يمنع قبره عنك لتدفن فيه ميتك]، (٣-٦، ٢٣، التكوين).

وهذا ما حصل لإبراهيم (ع) كذلك، والذي توفي عن مئة وخمساً وسبعين سنة، حسب ذكر التوراة:

[فدفنه إسحق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة تجاه منمرا، في حقل عفرون بن صوحر الحثي، وهو الحقل الذي اشتراه من بني حث، هنالك دفن إبراهيم وامراته سارة]،(٩-١٠، ٢٥، التكوين).

وهذه النصوص تدل دلالة قاطعة أن علاقة إبراهيم (ع) وأولاده مع أهل فلسطين لم تقم على أساس عدائي، وذلك أن الأرض لم تكن مقسمة بحدود، وأن جميع أطياف المنطقة ذات جذر واحد، هو الجذر الجذر العربي (السامي)، وإلا لم يكن يحدث التجانس بينهم.

في نحو عام (١٧٢٠ ق.م) هاجر آل يعقوب (إسرائيل) إلى مصر، في القصة المعروفة بعد محاولة قتل يوسف (ع) من قبل إخوته، وقد عانوا ما عانوا على يد فراعنة مصر، إلى أن عاد بهم موسى (ع) نحو فلسطين الأرض المقدسة حوالي (١٣٠٠ ق.م)، وشاهدها من بعيد، ولم يدخلها حيث مات ولا يعرف قبره إلى الآن.

تسلم قيادة بني إسرائيل بعد (موسى ع) فتاه (يشوع بن نون)، بعد أن ترك موسى (ع) شرائع التوراة لهم، وتبلورت التعاليم اليهودية التي جاء بها موسى (ع)، وتوجه نحو فلسطين، وكانت آهلة بالسكان، واستخدم القسوة المفرطة في تدمير مدنها، ومنهم المديانيون.

[فاندفع الشعب نحو المدينة، وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، حتى البقر والغنم والحمير]،(٢-٦، يشوع)، لتبدأ علاقة أخرى مع أهل البلاد.. وهذا بالضبط عكس ما فعله أهل فلسطين عندما استقبلوا إبراهيم (ع) وعشيرته، وأعطوهم أفضل أراضيهم، وأسكنوهم بينهم، كما لاحظنا آنفاً.

بعد موت (يشوع بن نون)، حكم الإسرائيليين من يسمون بالقضاة، الذين استمر حكمهم بين عامي (١١٢٥ - ١٠٢٥ ق.م)، ولكن بقت النزعة العشائرية تتحكم بهم، فلكل سبط قاضٍ خاص به، وحدثت أول مواجهة بينهم، حيث تقول التوراة:

[ونزل الفلسطينيون إلى المعركة، فانهزم بنو إسرائيل، وهرب كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً، فسقط منهم ثلاثون ألف رجل، واستولى الفلسطينيون على تابوت العهد]، (١٠-١١، ٣، القضاة).

وكانت هذه أولى نكبات بني إسرائيل من النكبات الكثيرة التي ابتلوا بها على مدار التاريخ.

وفي هذه الفوضى بين داوود (ع)، عدو أول ملك إسرائيلي مخلوع بعد عصر القضاة اسمه شاؤول (طالوت)، حيث انحاز داوود (ع) للفلسطينيين، وسكن معهم، وفي إحدى المعارك تمكن الفلسطينيون من شاؤول (طالوت)، وقتلوا أولاده الثلاثة، وانتحر هو بإلقاء نفسه على السيف، تقول التوراة:

[وعندما جاء الفلسطينيون في اليوم التالي ليسلبوا القتلى، عثروا على شاؤول (طالوت)، وعلى أبنائه الثلاثة، صرعى في جبل جربوع، فقطعوا رأس شاؤول (طالوت)، ونزعوا سلاحه]، (٨-٩، ٣١، صموئيل الأول).

أسس داود (ع) دولة إسرائيل، ودام حكمه من (١٠١٠-٩٧٠ق.م)، بعد ان انتصر على حلفائه بالأمس (الفلسطينيون)، وانقلب عليهم، وقتل قائدهم جالوت.

وعن عائدية أورشليم (القدس) لليبوسيين، يرد النص التالي بين سيد وخادمه في سفر القضاة، أي في الفترة التي سبقت دخول داوود (ع) إليها:

[حَوِل بنا إلى مدينة اليبوسيين هذه فنبيت فيها، فقال له سيده: لا تنزل في مدينة غريبة لا أحد فيها من بني إسرائيل]، (١١-١٢، ١٩، القضاة).

والحقيقة أن سكان أورشليم (القدس) من اليبوسيين قد عاشوا مع بني بنيامين، أحد الأسباط فيها، حيث ورد ما يلي:

[أما اليبوسيون المقيمون في أورشليم، فلم يطردهم بنو بنيامين، وأقاموا مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم]، (٢١، ١، القضاة).

[وسار الملك – داود - ورجاله إلى أورشليم لمحاربة اليبوسيين سكانها، فقال لهم هؤلاء، وهم يظنون أنه لا يقدر أن يدخلها أحد: لا يمكنك أن تدخل إلى هنا، فحتى العميان والعرج يصدونك]، (٦-٩، ٥، صموئيل الأول).

والذي نريد قوله بأن أورشليم (القدس) لم يبنها داود (ع)، وربما كانت تحتوي على مقام إبراهيم قبل ذلك بكثير، والذي تم طمسه ببناء (هيكل سليمان) مكانه.

وتقول التوراة عند دخول داوود إلى أورشليم، وكان يحمل تابوت العهد:

[وكان داوود وجميع بني إسرائيل يرقصون بكل قواهم، وينشدون على أنغام القيثارات والرباب والدفوف والصنوج]، (٦-٥، صموئيل الثاني).

وتقول التوراة إن ابنة الملك شاؤول، الذي قتله الفلسطينيون، والعدو اللدود لداوود، رأت ذلك، فاحتقرت داوود، وعيرته:

[ولما دخل التابوت أورشليم نظرت ميكال ابنة شاؤول من الطاقة، ورأت الملك داوود يقفز ويرقص أمام الرب، فاحتقرته في قلبها]، (١٦-٦، صموئيل الثاني).

ويتبيّن من خلال هذا الاستعراض، واستناداً إلى كتبهم المقدسة، أن هذه الأرض ليست لليهود!❐

المصادر:

اعتمدنا في كتابة هذا المقال على بعض المصادر، ومنها كتابات للدكتور سعد الديوةجي، نشرنا على صفحته على الفيسبوك.

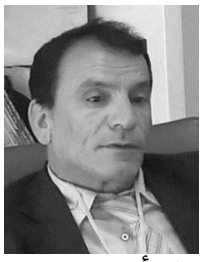

مع النبي يونس عليه السلام

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

✍ لبث النبي يونس - عليه السلام - يدعو قومه دون أن يستجيب له أحد من عموم قومه سوى رجلان. الأمر الذي بث شيئاً من اليأس لديه تَجاههم، وأنه مهما لبث يدعوهم فلن يستجيبوا، كون عقيدة الأوثان غدت مترسّخة فيهم.

هنا اتّخذ قراراً بأن يهجرهم، ويتركهم في عبادة أوثانهم، دون أن يأمره الله بذلك، فقد اجتهد بهذا القرار، وقام بتنفيذه.

الأمر الملفت للنظر هنا أن قومه وبعد أن هجرهم، تركوا عبادة الأوثان، واهتدوا إلى الإيمان بوحدانية الله وعبادته. وقد حصل ذلك بعد مغادرة نبيهم، حيث أرسل إليهم سُحباً سوداء، اسودَّت على إثرها الطبيعة التي كانوا فيها، الأمر الذي جعلهم يُراجِعون أنفسهم، ويصلون إلى قناعةٍ بأن ذلك بداية عِقاب من الله الذي في السماء نتيجة عدم إيمانهم به. كانت هذه نقطة التحوّل الكُبرى في حياتهم، نقطة مراجعة النفس في العقيدة الوثنية التي كانوا عليها. فلجأوا إلى الله بالتضرّع كي يعفو عنهم ويغفر لهم ما قد بدر منهم، حيث اجتمعوا كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، بل جمعوا حتى حيواناتهم أيضاً، وقد ارتدوا ثياباً رثّةً، وغدوا ينثرون الرماد الأسود على رؤوسهم، ويبتهلون إلى الله الواحد الأحد بالعفو والمغفرة.

هنا تقبَّل الله عز وجل التوبة منهم، وأزاح عنهم كل ذلك السواد، وعادت حياتهم طبيعية كما كانت، لكن على قاعدة إيمانية بالله دون عبادة الأوثان.

إذن، الأنبياء هم بشر، لكنهم يتميّزون بأن الله عز وجل يصطفيهم لمهمّة النبوّة، وهذا يكون لخير الناس، لأنهم يدعون إلى الصلاح، وعلى الأغلب يكون ذلك عندما يستشري الفساد وتتسع رقعته في المجتمع، كما يبيِّن القرآن الكريم. فالأنبياء هم النخبة الصالحة التي تدعو إلى الصلاح، ولذلك من المهم للغاية أن نتعرَّف عليهم، وعلى تصرّفاتهم، على أحاديثهم، على ما كان يحصل معهم في سائر علاقاتهم مع الناس. والقرآن الكريم قد جعل حضوراً لكل هذه المعرفة بأنبياء الله -عليهم صلوات الله وسلامه-، من خلال الكثير من السور والآيات القرآنية. وقد ذكر عدداً منهم، وما ذكره القرآن هو غاية في الأهمّية عمّا جرى معهم. فالأنبياء، ولكونهم بشراً، فإنهم عندما

يتصرّفون دون وحي، ليس بالضرورة أن يصيبوا دائماً، والصواب الكامل يكون فقط عندما يتصرّفون بمقتضى الوحي. وهذا أمرٌ بالغ الأهمّية، وهو أن الإنسان لا يعلم أشياء كثيرة، ولذلك ربما يقع في أخطاء، بحسن نيّة، وقد صوّب الله -عز وجل- لأنبيائه عندما لم يصيبوا وفق اجتهادات اجتهدوا بها. فاستجابوا لهذا التصويب، وتعلّموا أكثر مما لم يعلموا، نضجوا أكثر. وهكذا يكون الإنسان، فعندما يخطئ، يتعلّم من خطئه، لأن الإنسان مهما كان عالِماً لا يمكن له أن يستغني عن تصويب الله -عز وجل- له.

وقد ورد ذكر ٢٥ نبياً ورسولاً في القرآن الكريم، منهم ١٨ في سورة الأنعام لوحدها، والبقية في سور متفرّقة. لكن هؤلاء ليسوا كل أنبياء ورسل الله على مدار التاريخ البشري، فهؤلاء فقط ما تم ذكرهم في القرآن الكريم.

[**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**]النساء٢٤.

مع النبي يونس نتعرَّف على أمرٍ بالغ الأهمّية، وهو أن الله عز وجل يمكن له أن يستغني عن الأنبياء والرسل في هداية الناس. فهي ليست حاجة الله إلى الأنبياء من أجل الهداية، وأن الهداية لا يمكن لها أن تكون إلاّ من خلالهم، كونهم من البشر ــ وهم أقرب إليهم، بل هي حاجة البشر ــ إلى الله كي يصطفي لهم الأنبياء من أصلابهم. ومع النبي يونس عليه السلام تتأكّد هذه الحقيقة، فقد اهتدى قومه عندما خرج عنهم، وهذا كمثال بأن الله يمكن له أن يهدي الناس بدون وجود أنبياء ورسل. وهنا ما يمكن استنتاجه، أن الإنسان يمكن له أن يتّعظ بما يجري من حوله، لأن الأنبياء والرسل لن يلبثوا على مدار التاريخ البشري، بل سيأتي من يكون خاتماً لأنبياء الله ورسله. وهذا ما حصل بعد كل تلك القرون الطويلة بين النبي يونس عليه السلام، وبين محمّدٍ عليه الصلاة والسلام. ولعلّنا الآن في أطول فترة من الزمن خلت من وجود الأنبياء، أي بما يزيد عن ألفٍ وأربعمائة سنة لا نبي ولا رسول فيها. ورغم ذلك بقي الدين، بل إن أعداد المؤمنين في زيادة من قرنٍ إلى قرن. طبعاً بقي القرآن هو كِتاب الهداية الأول، لكن إلى جانبه لبث قرآن الطبيعة مستمرّاً تتجلّى فيه آيات الله عز وجل❐

مقالات

- في الذكرى (١٥٢) ليوم الصحافة العراقية	حامد محمد علي
- غياب التدافع بين البرامج في العمل الإسلامي يفضي إلى الانشقاقات	محمد صادق أمين
- حديث حول انتحال القرآن من الكتاب المقدس	د. سعد الديوه‌جي
- هكذا غنى العقل سمفونية الحداثة على وجه القمر	د. سامي محمود

في الذكرى (١٥٢)
ليوم الصحافة العراقية

نبذة مختصرة عن المطابع والصحف العراقية في العهد العثماني

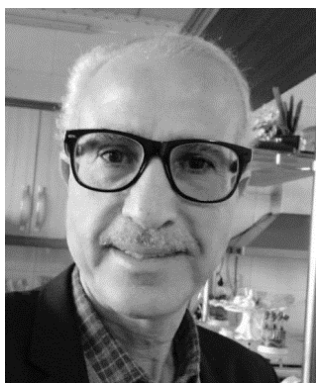

حامد محمد علي

✍ يرتبط تاريخ الصـــحافة، في أي بلد، بتطور الطباعة فيها ارتباطاً وثيقاً. وفي العراق ارتبط نشــوء الصـحافة بظهور المطابع، حيث رافق تأسـيس مطبعة ولاية بغداد، في العهد العثماني، صدور أول صحيفة عراقية باسم (زوراء) في (١٥) حزيران ١٨٦٩، وهو اليوم الذي تحتفل فيه أسـرة الصحافة العراقية سنوياً..

بهذه المناسـبة وددت أن أشـير - ولو باختصـار- إلى بدايات نشـوء الطباعة والصـحافة في العراق، والتي تأثرت - كما تأثر غيرها من جوانب الحياة- بالأوضـاع السـياسـية للبلد عامة.. أرجو أن يكون هذا المقال بداية لدراسـات أوسـع وأعمق عن الصـحافة العراقية ومراحلها التاريخية وتطورها ومواقفها.

مدحت باشا ومطبعة الولاية وجريدة (زوراء)

يعتبر مدحت باشا واحداً من الولاة العثمانيين المتميزين الذي اشتهر بإصلاحاته الواسعة في العراق.

ويعتبر - بالرغم مما يؤخذ عليه- واحداً من أنشـــط الولاة في مجالات الإعمار والتطوير، حيث يعتقد الكثيرون أن ما قام به مدحت باشــا في العراق من إصــلاحات لم يكن بمقدور الدولة العثمانية أن تقوم به خلال قرون. حيث انعكسـت نتائج هذه الأعمال بوضـوح على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعب العراقي.

قبل أن يتولى ولاية بغداد، كان مدحت باشـــا ســـفيراً لبلاده في (باريس)، وهذا ما جعله يتأثر بمبادىء الثورة الفرنســية، كما تأثر بالنهضــة الحضــارية التي شــهدتها أوروبا عامة، وفرنسا على وجه الخصوص.. وعلى الرغم من أن فترة ولايته لم تكن طويلة، حيث بدأت في ١٨٦٩، وانتهت في ١٨٧٢، هذا فضــلاً عن عدم توفر موارد مالية كافية لديه، إلا أنه قام بمجموعة من الأعمال والإصلاحات لتحقيق مستوى من التقدم.

ما يهمنا هنا، والذي يعتبر من روائع أعمال مدحت باشا، هو شــراء وتأسيس أول مطبعة في تاريخ العراق، والتي اشــتهرت بمطبعة (الولاية)، والأهم من ذلك هو قيام مدحت باشــا بإصدار أول صحيفة عراقية في هذه المطبعة، باسم جريدة (زوراء)، التي صدر العدد الأول منها في ١٥ حزيران ١٨٦٩، وأغلقت الصحيفة مع احتلال الإنكليز لبغداد عام ١٩١٧. عندما تولى مدحت باشا ولاية بغداد في نيسان ١٨٦٩، كان أول شــيء فكر به هو المطبعة، ولذلك قبل أن يدخل إلى العراق زار (باريس)، واشــترى مطبعة آلية حديثة ومتكاملة وجاء بها مع مجموعة من المختصــين للإشراف عليها وتشــغيلها. كان من بين المتخصــصــين القادمين مع المطبعة، مهندس فرنســـــــي تولى بعد ذلك إدارتها، كما كان من بينهم كاتب تركي باســم (أحمد مدحت)، عيّن بعد ذلك رئيســاً لتحرير (زوراء).. بالإضــافة إلى مطبعة الولاية، جلب مدحت باشا مطبعة أخرى من الخارج، خصصها لطبع منشورات الجيش العثماني في بغداد، وسميت بمطبعة (الفيلق).

اســـتخدمت مطبعة الولاية أنماطاً من الحروف العربية والتركية، بالإضـــافة إلى بعض الحروف اللاتينية.. وبعد إبعاد مدحت باشا عن ولاية بغداد، عمل الولاة الذين جاءوا بعده من أجل إدامة المطبعة، وتجديد آلاتها، وتوسيع مطبوعاتها.. ففي عهد ولاية (الحاج حسن رفيق باشا١٨٧٢ -١٨٩١) كان في المطبعة سبع مكائن للطبع، إحداها حديثة تعمل بالبخار. وهذا يعتبر تطوراً كبيراً في تاريخ المطبعة.. كما كان عدد المطابع الحجرية في تلك الفترة (أربع) مطابع، وفي فترة ولاية (حازم بك) طرأت على المطبعة عدة تغييرات؛ منها زيادة

بعض الآلات و المكائن الخاصة بمراحل الطبع، وتوسيع أعمال المطبعة، وكثرة مطبوعاتها.. واستمرت على هذا الحال حتى انهيار الدولة العثمانية في العراق، واحتلال بغداد من قبل الإنكليز في آذار ١٩١٧، حيث جلب الإنكليز معهم عدداً من المطابع القديمة من (الهند)، وضموها إلى مطبعة الولاية، ثم قاموا بتغيير اسم المطبعة إلى (مطبعة الحكومة)، وأغلقوا جريدة (زوراء)، وأصدروا مكانها صحيفة (العرب)، وعينوا الأب (أنستاس ماري الكرملي) رئيساً لتحريرها.

لقد اعترضت مسيرة مطبعة الولاية خلال ٤٨ عاماً مشكلات وعقبات كثيرة، عرضتها للتوقف عدة مرات.

مطبعة ولاية الموصل وجريدة (موصل)

تعتبر مطبعة ولاية الموصل ثاني مطبعة حكومية في العراق، تأسست على يد الوالي العثماني تحسين باشا سنة ١٨٧٥.

حيث اشترى جميع آلاتها ومكائنها من (الآستانة- اسطنبول) وجاء بها إلى (الموصل). لقد ساعد على تأسيس وتشغيل مطبعة ولاية الموصل، عمال مطبعة (الآباء الدومنيكان). وبعد تأسيس المطبعة أسندت إدارتها إلى مجموعة من الموظفين الحكوميين في الموصل، منهم: (رؤوف الشربتي) و (حسن فائق).

تعتبر جريدة (موصل)، التي صدر العدد الأول منها في ٢٥ حزيران ١٨٨٥، أهم وأشهر مطبوع لمطبعة ولاية الموصل.. هذه الجريدة كانت تصدر من قبل مؤسسات الولاية، كل أسبوعين مرة، بأربع صفحات، وباللغتين العربية والتركية.

وعلى العكس من جريدة (زوراء)، تميزت جريدة (موصل) بأسلوبها الأدبي الجميل، ولغتها العربية الواضحة، والسبب في ذلك كما يقول (الدكتور إبراهيم خليل)، في كتابه (أربعون عاماً من تاريخ الصحافة الموصلية ١٨٨٥-١٩٢٥)، هو أن محرري الجريدة، والمشرفين عليها، كانوا من خيرة أدباء الموصل، ولم يكن بينهم أتراك. لم يستعمل في طبع جريدة الموصل (الزنكغراف)، سوى في إعداد (تايتل) الجريدة (أي كلمة موصل)، التي كانت تكتب بالنمط النسخي. جريدة موصل كانت تنشر جميع أخبار الولاية؛ من قوانين، وقرارات، وبيانات، وإعلانات حكومية، وكانت لسان حال ولاية الموصل العثمانية.

مع بدء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، استولى الأتراك العثمانيون على مطبعة (الآباء الدومنيكان)، وضموها إلى مطبعة الولاية.

وعندما احتل الإنكليز الموصل، في مطلع تشـــرين الثاني ١٩١٨، أعادوا المطبعة المذكورة إلى أصحابها، وأغلقوا جريدة موصل، وبعد فترة أمر (الكولونيل لجمن) - الحاكم السياسي لمدينة الموصـــل - بإصـــدار الجريدة مرة ثانية، ولكن هذه المرة باللغة العربية فقط، وبمضامين جديدة. وعيّن القس (سلمان الصائغ) رئيساً لتحريرها.

بالإضـافة إلى جريدة (موصـل)، قامت مطبعة ولاية الموصـل بطبع مجموعة من الكتب والمؤلفات، منها كتاب (أبهى القلائد في تلخيص الفوائد) للمرحوم (أحمد فائز البرزنجي)، هذا بالإضافة إلى عدد من التقاويم والمطبوعات المتنوعة والكتب المدرسية للولاية.

مطبعة ولاية البصرة وجريدة (بصرة)

في عام ١٨٨٩، وفي عهد الوالي العثماني (هدايت باشا)، تأسست في (البصـرة) أول مطبعة حكومية، من قبل رجل بغدادي باسم (محمد علي جلبـــي زاده)، الذي كان رئيساً لدائرة الأملاك السلطانية في البصـــرة. اشترى (محمد علي جلبـــي) هذه المطبعة على حسابه الخاص، ونصـبها في محلة (السـيف). ثم حصـل على إجازة إصـدار جريدة باسـم جريدة (بصـرة)، التي صدر العدد الأول منها في آب ١٨٨٩.

لقد كتبت جريدة (زوراء) في عددها ١٤٠٢ عن مطبعة ولاية البصـــرة، وجريدة بصـــرة، وقالت: "تأسست في ولاية البصـرة مطبعة، وتصدر هناك جريدة (بصـرة) بإشـراف الأديب والكاتب المعروف محمد علي أفندي، وباللغتين العربية والتركية". لم تكن مطبعة البصـــرة في بداية تأسيسها، تابعة لولاية البصـــرة، وعندما ساءت علاقات الوالي (حمدي باشا) مع (محمد علي أفندي) عام ١٨٩٤، أمر الوالي بتأسـيس جريدة بصـــــرة، التي كانت متممة ومكملة لـــ(بصـــرة) الأولى. وفي عام ١٩٠٤ عندما ذهب (محمد علي أفندي) إلى (بيروت)، اســـتولت الســـلطات في الولاية على مطبعته، وضـــمتها إلى مطبعة الولاية. وهكذا بقيت المطبعة واستمرت جريدة (بصـرة) تصدر بصورة أسبوعية إلى أن احتلت القوات البريطانية مدينة البصـــرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤، حيث بسطت يدها على مطبعة الولاية، وجميع المطابع الأخرى، وجعلتها مطبعة واحدة، طبعت بها بعد ذلك جريدة (الأوقات البصـرية)، باللغتين العربية والإنكليزية❐

المصادر :

-أعداد مختلفة من مجلة (الطباعة) العراقية.

-محاضرات حول تاريخ الطباعة والصحافة في العراق، جامعة بغداد- قسم الإعلام، ١٩٨٥-١٩٨٦.

-حضارة العراق- موسوعة.

غياب التدافع بين البرامج في العمل الإسلامي يفضي إلى الانشقاقات

محمد صادق أمين*

✍ تحدثت في مقال سابق تحت عنوان (معضلة التوريث وإشكالية تجديد الدماء الشابة في العمل الإسلامي)، عن بروز ظاهرة الجمود وعدم التجديد في وسائل العمل الإسلامي، وأدواته وهيكليته، لاعتقاد (أهل السابقة) بأنهم أصحاب الأولوية والأحقية في القيادة والريادة، دون من يليهم من أبناء الصف وأجياله الصاعدة، الأمر الذي أدى إلى حالة من الفصام، بين جيل قديم غير قادر على استيعاب المتغيرات والمحدثات، وجديد مكنته أدوات العصـر من تحقيق طفرات في الوعي والإدراك.

وخَلُصتُ إلى أن ذلك أفضى للتصادم بين القديم، الذي يأبى أن يُغير أو يتغيّر، والجديد الذي يأبى أن ينصاع أو ينقاد أو يُذعن، فحصلت الردة الشبابية عن التفاعل مع الدوائر الحركية، ما أدخل الحركة الإسلامية مرحلة الشيخوخة والتنازع المفضي إلى الفشل.

التنازع بين الأجيال؛ اتخذ أشكالاً متعددة، وتمظهر بمظاهر مختلفة، أعلاها الانشقاق عن الحركة الأم، وتشكيل كيانات جديدة تترجم رؤى المنشقين وتصوراتهم الحداثية في فهم العمل للإسلام، وترجمة المشـروع الإسلامي إلى مخرجات على أرض الواقع.. وأدناها العزوف

عن العمل، والانتقال من حالة الحركة والنشاط إلى حالة السكون وعدم الاكتراث.. وما بين هذا وذاك ثمة درجات متفاوتة من ردة الفعل، منها بروز ظاهرة التمرد، التي تكاد تكون من المحرمات في عرف العمل الإسلامي.

الانشقاق المُجرّم

من أعظم المقومات التي دعا إليها الإسلام في بنائه الأمة، مسألة وحدة الصف، وعدم حدوث التنازع والشقاق المفضي إلى انشقاق، وثمة نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تدعو إلى الوحدة، وتحذر من الاختلاف، وتُجرّم الانشقاق، وقد اتخذ العمل الإسلامي من هذا المبدأ منهاجاً في عمله التنظيمي، يجرّم بموجبه الانشقاقات، وكل ما يفضي إليها أو يقرب منها أو يؤدي إلى مظهر من مظاهرها، بالقول أو العمل، وذهبت اللوائح إلى أبعد من ذلك، فجرّمت كل قول أو فعل أو رأي يمكن أن يفسـر على أنه دعوة للانشقاق، وتم بموجب ذلك مصادرة الرأي الآخر داخل الصف.

الثبات في المناهج والوسائل والأدوات والشخوص، وعدم وجود طرائق تفضي إلى حوار حقيقي بين الأجيال، وغياب الآليات التي تؤدي إلى تغيير حقيقي في طرائق العمل، ولّدت حالة من التذمر والسخط من الأداء العام، ومخرجاته، التي تؤدي في كل مرة إلى شكل جديد من أشكال الفشل، فنتج عن ذلك كله حالة من الغليان في الصف، يمكن تشبيهها بحالة الغليان التي سبقت ثورات الربيع العربي.

احتكار (أهل السابقة) لتمثيل مصالح الدعوة، والاستئثار بأحقية تحديد ما هو أصلح لها، في الحاضـر والمستقبل، وتشكيل النظم الحاكمة للعمل، وما يرتبط بها من لوائح، لم يمنع من نشوء جيل من الشباب يحمل تصورات مغايرة، وأفكاراً مختلفة، وهو يرى في تصوراته ذات الأمر، فهي الأصلح والأقدر على التعامل مع المتغيرات، بدليل أن النتائج السابقة المجرّبة على مدار عقود أدت إلى ذات المخرجات المجمع على أنها غير مرضية.

وحين وجد جيل (التجديد) نفسه أمام أفق مسدود، وغياب آليات التدافع بين البرامج والرؤى والتصورات وطرائق التعامل مع الواقع، لم يجد أمامه من سبيل سوى دخول عش الدبابير، وإعلان الانشقاقات هنا وهناك، عبر تشكيل أحزاب تحمل ذات مضامين وتوجهات العمل الإسلامي، برؤى وتصورات جديدة، وطرائق عمل مبتكرة، تخرج على ما ألفته أجيال العمل الإسلامي، وبات في حكم الثوابت.

ويمكنني في هذه العجالة، أن اسوق تجربة الإسلاميين في تركيا نموذجاً لما أسلفت، متمثلة في تجربة نجم الدين أربكان، الذي يعد الأب المؤسس للعمل السياسي الإسلامي هناك، حيث أنشأ حزب (النظام الوطني) عام ١٩٧٠، والذي لم يصمد سوى تسعة أشهر، فتم حلّه بقرار

قضائي من المحكمة الدستورية، ليؤسس بعد ذلك حزب (السلامة الوطني) عام ١٩٧٢، والذي تمكن بعد فوزه في انتخابات ١٩٧٤ من المشاركة في حكومة ائتلافية مع (حزب الشعب الجمهوري)، الذي أسسه أتاتورك ليرعى المبادئ العلمانية.. وبعد انقلاب ١٩٨٠ - وفي أعقاب خروجه من السجن- أسس أربكان عام ١٩٨٣ حزب (الرفاه)، الذي تمكن عام ١٩٩٦ من التحالف مع حزب (الطريق القويم)، وشكل حكومة ائتلافية مرة ثانية، قبل أن يصدر النائب العام لدى المحكمة العليا قراراً بحل الحزب عام ١٩٩٧، ليؤسس في العام التالي حزب (الفضيلة)، الذي تعرض للحظر عام ٢٠٠٠، وفي عام ٢٠٠٣ أسس أربكان حزب (السعادة)، الذي لا يزال قائماً إلى اليوم، بعد رحيله.

اتخذ العمل الإسلامي في تركيا، منذ تأسيسه، ذات الوسائل المعمول بها في عموم العالم الإسلامي منذ أكثر من نصف قرن، والقائمة على مواجهة الواقع، وطرح الرؤية الإسلامية للتغيير جهاراً نهاراً، وإن أدى ذلك إلى التصادم مع النظم السياسية القائمة، أو النظم الاجتماعية التي ولّدتها تلك النظم على مدار قرن من الزمن.. الأمر الذي وضع الحركة الإسلامية في مواجهة النظام، لتتعرض إلى سلسة محن، أدت إلى إفراغ المشـروع الإسلامي من قوته ومرونته، وتغييب طاقاته وكفاءاته البشرية وراء السجون، وعزل رؤيته الإصلاحية للدولة القادرة على البناء والتنمية.

أدت المحن المتتابعة إلى تشكيل رؤية تجديدية لدى جيل من الشباب داخل الحركة الإسلامية التركية، لم يكن يرى في نهج الصدام مع الواقع جدوى، ويعتبر أن ترجمة مضامين العمل الإسلامي برؤية مختلفة قادرة على التعايش مع النظام السائد محلياً ودولياً، بهدف تمرير المشـروع الإسلامي إلى دائرة الفعل الحياتي، أمراً ممكناً، باستخدام قدر عالٍ من (البراغماتية)، التي يعتبرها (أهل السابقة) من ضروب النفاق ومراتبه.. هذه المقاربة رأت في تحويل المشـروع النهضوي الإسلامي فرصة لكي يرى العالم المشـروع على شكل مخرجات عملية لا تنظيرات ورقية.

الفصام التقليدي بين القديم والجديد -في تقديري-، وعدم وجود آليات التدافع بين البرامج، أدت إلى عدم استيعاب هذه الرؤية التي تبلورت لدى جيل الشباب داخل الحركة، فكانت النتيجة انشقاق (المجددين)، بقيادة رجب طيب اردوغان وعبدالله كول، وتأسيس حزب (العدالة والتنمية)، بعد حل حزب الفضيلة مباشرة في ٢٢ يونيو ٢٠٠١.

(العدالة والتنمية) - الذي أسس لمشـروع نهضة لا يزال يقوده في تركيا، خرج عن الإطار التقليدي في ممارسة العمل الإسلامي، القائم على إعلان الهوية والتعرض للمحن في مواجهة الواقع- يصنف نفسه كحزب ليبرالي يحرس مشـروع أتاتورك العلماني، غير معادٍ للغرب، يتبنى

رأسمالية السوق، ويسعى إلى انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وينفي في أدبياته أن يكون حزباً إسلامياً.

المحصلة؛ أن العوائق التي وضعها النظامان: المحلي والدولي في وجه المشـروع الإسلامي الرامي إلى نهضة الأمة وبناء الدولة، بات في وضع الحياد، وانشغلت كوارد العمل ببناء النظام عن مواجهة الدولة العميقة التي تفككت بعاملي الزمن والتدبير المحكم.

الخلاصة؛ لست بصدد الدعاية للأردوغانية بهذا العرض المنمق للتجربة التركية، بل أريد أن أثبت نظرية غياب آليات التدافع بين البرامج داخل الحركة الإسلامية، بسبب الثبات الذي يفرضه حراس الدعوة (أهل السابقة)، فطرائق العمل ثابتة، وتكتسب مناهجها والرؤى المنبثقة عنها صفة القداسة، التي لا تترك أمام الجديد أي متسع للتنافس أو الوجود، إلا من خلال الانشقاق المُجرّم، حيث لا يزال (حزب السعادة)، الذي أسسه أربكان، يتبنى تجريم التيار الشبابي الذي خرج عنه، ويبني فعله السياسي والميداني على أرض الواقع بناء على هذه الرؤية.

ومن هنا يمكن أن نفسـر السبب الذي يجعل من آلية الانتخابات في العمل الإسلامي مفرغة من محتواها، فالتطبيق العملي حولّها إلى ممارسـة شـكلية تقوم على تنافس الشـخوص (أهل السـابقة)، لا على أسـاس تنافس البرامج في مختلف مسـتويات العمل، فالناخب يصـوت للشـخص بناء على ثقافة تزكية أهل السـابقة، والشـخص يعيد ترجمة الموروث التقليدي إلى برامج جُربت مراراً على مدار مديات زمنية طويلة، دون أن تؤدي إلى مخرجات على أرض الواقع❐

*كاتب وصحفي، عضو الشورى المركزي في حركة العدل والإحسان العراقية.

حديث حول انتحال القرآن من الكتاب المقدس

د. سعد الديوه‌جى

✍وبعد، فهذه المقالة ليست لإثارة الخلافات بين المسلمين واليهود والمسيحيين على وقع الاختلافات العقائدية، ولكنها دعوة لفهم أصول هذه الاختلافات على ضوء ما يقر به كلاً من القرآن والكتاب المقدس..

إن مسألة انتحال محمد – صلى الله عليه وسلم - للعقائد الإسلامية، وبعض القصص، يثيرها من لم يقرأوا الكتابين بإمعان، وتدفعهم عوامل إثارة الفتن والمشاكل لذلك.. وقد مهد لهذا الطريق كثير من المستشرقين، أمثال: (مونتغمري واط) في كتابه (محمد: النبي ورجل الدولة)، و(مرجليوث)، وغيرهما.

فيقول (واط) بأن العقيدة الإسلامية ترى أن محمداً لم يكن قادراً على القراءة والكتابة، إلا أن هذا الرأي مشكوك فيه لدى العلماء الغربيين المعاصرين!.. بدون أن يشير إلى ماهيّة الكتب الدينية اليهودية والمسيحية التي كانت متوفرة باللغة العربية أيام البعثة في بيئتين مثل مكة والمدينة، لكي يتسنى للرسول (ص) قراءتها والأخذ منها!

ناهيك أن الكتب آنذاك لم تكن بشكلها الحالي، وكانت على رقائق من الجلود، ويصعب نقلها والتعامل معها بالطريقة المعتادة الآن. وفي سبيل الهروب من هذه المشكلة، فهو يقول بأن محمداً لم يقرأ الكتاب المقدس، ولكنه ربما استقى معلوماته شفاهاً!.. وهذا

حديث طويل وعقيم وغير علمي، لأن تطابق بعض النصـــوص لا يعني انتحال الرواية، إذا كان الهدف مختلفاً بين روايتين أو أكثر.

فالقرآن الكريم هو الكتاب الذي يعتقد المسلمون بأنه كلام الله الذي أنزله على محمد - صلى الله عليه وسلم - على مدى (٢٣) عاماً في مكة والمدينة، وهنالك أسباب للنزول لكثير من الآيات القرآنية، ما يجعل مسألة الانتحال غير واردة على الإطلاق.

وأما الكتاب المقدس، فهو يتكون من قسـمين هما: العهد القديم، أي الأسـفار الخمسـة الأولى، التي يعتقد اليهود أنها أنزلت على موسى (ع)، زائداً أسـفار الأنبياء التي تغطي فترة تزيد على الألف سنة بعد موسى (ع).

وأما العهد الجديد، الذي يتكون من أربعة أناجيل بأســماء من كتبوها، ورســائل أخرى للقديس (بولص)، و(ســفر الرؤيا)، ولا يوجد جامع لغوي قديم بين العهدين من اللغات السامية المحكيّة آنذاك، كالآرامية والســريانية والعبرية، ناهيك أن كل الدراسات التاريخية العلمية الموثقة تشير إلى عدم وجود نصوص عربية لهما إلى ما بعد البعثة بعدة قرون، كما أشـرنا لذلك سابقاً.

إن أقرب نسـخة للعهد القديم تعود إلى زمن الملك (بطليموس الثاني فيلادلفوس) (٢٤٧-٢٨٥ ق.م)، وهي التي تسمى بالترجمة السبعينية، وباللغة اليونانية، من العبرية والآرامية.

والعهد القديم يقدسـه اليهود، ولا يعترفون بالعهد الجديد، لأنهم أصـلاً ينكرون المسـيح (ع).. بينما يعترف المسـيحيون بالعهدين، ولكنهم لا يطبقون الشـــــرائع الموسـوية!.. مما يجعل مسـألة الانتحال المشـتركة غاية في الصـعوبة، إن لم تكن مسـتحيلة. وكل الذي يقوله المسيحيون بشأن العهد القديم بأنه تصديق للبشارة بقدوم عيسـى المسيح (ع).. ومع ذلك سنحاول بحث بعض الجوانب التي تنقض مسألة الانتحال.

وهذا المقال ليس تعريضـاً بالديانتين اليهودية والمسـيحية، فهذه مسـألة اعتقادية بحتة، على قاعدة (**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) الكافرون**)، ولكن ما دعانا للكتابة انتشـــار الأفلام والمقالات على صـفحات الانترنيت، خصـوصـاً من أناس لم يقرأوا القرآن، ولا الكتاب المقدس، ولا يرومون إلا إثارة المشـاكل والفتن، كما ذكرنا آنفاً، ويريدون أن يؤكدوا أن القرآن منتحل بالكامل من الكتاب المقدس، وذلك لورود بعض أســماء الأنبياء المشـــتركة التي تكلم عنها الكتاب المقدس، أو لوجود إشارات تشابه في بعض المعتقدات، خصوصاً في التوراة، ناسين أو متناسـين أن القرآن لا ينكر الكتاب المقدس في الأصـول، ولكن يختلف معه في بعض الأسـس العقائدية التطبيقية، ولو كان منتحلاً، لكان مطابقاً بكل شيء للكتاب المقدس، ولا يعترض على أمور عقائدية أساسية.

ومن أهم هذه الاختلافات: الطقوس المتبعة في المعتقدات الإسلامية، كالصلاة والصوم والزكاة والحج، حيث لا يوجد ما يماثلها في اليهودية والمسيحية، إلا في التطابق الاسمي، ولا غير!

واليهودية، وأسفارها، تقوم على أساس فكرة (الشعب المختار)، التي لا يعترف بها القرآن، على أساس: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) الحجرات**).. والله فضّل بني إسرائيل باختيارهم لحمل الرسالة، وهو تفضيل انقلب إلى تأنيب، كما تشير التوراة نفسها لذلك.. وكذلك، فإن الإله – في المعتقد اليهودي - رغم كونه واحداً، إلا أنه بصفات تقرب من الصفات البشرية، ففي معرض كلام يعقوب (ع) في أحد المواقف يقول: "وكان الله واقفاً على السلم، ١٣،٢٨، التكوين"، وأمثلة كثيرة تصب في هذا المجال.

أما المسيحية، فكل طوائفها تقوم على الإيمان بإله مثلث الأقانيم، بصفات لاهوتية وناسوتية، ويعتبرونها من الأسرار، وتؤمن بأن المسيح (ع) صعد على الصليب بطبيعته الناسوتية، ليفتدي خطايا محبيه وآثامهم!.

أما في القرآن، فهذه الفكرة لا وجود لها، ومصير الإنسان مرهون بإيمانه وعمله وسعيه، فلا إيمان بدون عمل، ولا عمل بدون إيمان، والله هو الذي يزن أعمال العباد، ويحدد من هو الصالح من الطالح، ليجزيهم الله بما عملوا يوم القيامة.

وأما القيامة في العهد القديم، فهي ذات صبغة سياسية بحتة، عندما يرجع المسيح المنتظر من نسل داؤد (سفر حزقيال)، لينتقم من أعداء بني إسرائيل، ويبيدهم عن بكرة أبيهم، ثم ليعيشوا في أرضهم الموعودة التي تفيض عسلاً ولبناً إلى أبد الآبدين.. بينما اعتبرت المسيحية أن المسيح عيسى (ع) هو الذي سينزل يوم القيامة، فهو المنتظر (رؤيا يوحنا)، ثم يأخذ أتباعه معه إلى السماء، بعد انتهاء الألفية السعيدة على الأرض، ويصاحب العودة انتقام رهيب من كل الأشرار الذين لم يؤمنوا بالمسيح (ع)، أي أن الأمر يقترب من الصبغة السياسية للمسيح اليهودي.. وبذلك، فإن عودة المسيح (ع)، في المعتقد المسيحي، تنقض المعتقد اليهودي برجوع مسيح (ملك) من نسل داؤد (ع)!..

أما في القرآن، فلا توجد صبغة سياسية ليوم القيامة، ولا وجود لفكرة عودة منتظر موعود (مسيح)، ليعيد مملكة الرب، فمصير كل إنسان مرهون بعمله، ومعتقده، كما ذكرنا آنفاً.. وأما ما دخل في الأدبيات الإسلامية حول فكرة الانتظار وعودة المسيح، فلا وجود له في القرآن مطلقاً، والمسألة فيها اختلاف بين الفرق الإسلامية، وهي ليست من أساسيات المعتقد.

وأكثر ما يستند إليه من يدعون أن القرآن منتحل من الكتاب المقدس، هي قصص الأنبياء، رغم التناقض الكبير بين المحتوى في القرآن، عمّا هو في الكتاب المقدس، ولا نستطيع في هذه العجالة تغطية المسألة بشمولية واسعة، ولكننا سنأخذ بعض النماذج لذلك.

فمسألة الدعوة لعبادة الله، ونبذ الشرك، تكاد تختفي وراء مقاصد أخرى للأنبياء في الكتاب المقدس، لتنحصر في الوعد بأرض إسرائيل، ومحاولة إرجاع بني إسرائيل إلى طريق الصواب.. وأما فكرة القيامة، فهي عندهم ضبابية إلى حد بعيد.

ففي سيرة نوح (ع)، تبدأ فكرة ترسيخ فكرة الأرض الموعودة، عندما يلعن نوح كنعان ابن حام (جد الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين).. يقول العهد القديم: "وكان نوح أول فلاح غرس كرماً، وشرب نوح من الخمر، فسكر وتعرى في خيمته"، (٢٠-٢١، ٩، التكوين).. ثم تتبع المسألة لعن نوح لكنعان ابن حام، الذي رآه عارياً، وهو لم يفعل ذلك عمداً، كما جاء في السياق، فيقول نوح بحقه: "ملعون كنعان، عبداً ذليلاً يكون لإخوته"، (٢٤-٢٥، ٩، التكوين).. فالقرآن يتجاوز كل هذه التفاصيل العبثية.. ولا يعني ذكر الطوفان في الكتابين، بأن هذا منتحل من هذا، فالقرآن لم ينكر التوراة ككل، ولكنه لا يتفق معها في تجريم الأشخاص على أساس الفصل العنصري، ولا في الحط من قدر الأنبياء.

وفي قصة إبراهيم (ع) لا يوجد أي ذكر لمحاربته للشرك، بقدر دعوته لتأكيد مبدأ الأرض الموعودة لأحفاده من نسل إسحاق ويعقوب (إسرائيل)، حتى أنه يستغل جمال زوجته للتخلص من المآزق عند ذهابه لمصر، حيث يقول لها: "أعرف أنك امرأة جميلة المنظر، فإذا رآك المصريون سيقولون: هذه امرأته، فيقتلوني ويبقون عليك. قولي إنك أختي، فيحسنون معاملتي بسببك، ويبقون على حياتي لأجلك"، (١١-١٣، ١٢، التكوين)، وهو تبرير لا يرتفع إلى مستوى الأنبياء في الفضيلة والعفة!.. ولا يذكر القرآن شيئاً من ذلك مطلقاً، لعدم مصداقيته.

وفي موضع آخر، وعندما يطلب ملك الفلسطينيين سارة من إبراهيم (ع)، فيجاوبه إبراهيم (ع): "وبالحقيقة هي أختي؛ ابنه أبي لا ابنة أمي، فصارت امرأة لي"، (١٢، ٢٠، التكوين)، أي أنه فعلاً متزوج من شقيقته من والده، وهو في القرآن خطيئة لا تغتفر.. وإبراهيم (ع) له منزلة عالية في القرآن، فهو خليل الله: **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) النساء)**، أي أن الله قد جعله نبياً، واصطفاه، واختاره بالكرامة، كما يخص الخليل خليله.

وفي قصة لوط (ع)، تدعي التوراة أنه زنى بابنتيه، لكي يخلف منهم أعداء بني إسرائيل من الموآبيين وبني عمون، فتقول الكبرى للصغرى: "تعالي نسقي أبانا خمراً، ونضاجعه،

ونقيم من أبينا نسلاً"، (٣١، ١٩، التكوين).. وعلى هذا السياق تكتمل القصة، ويحدث ما خططا له.

وفي سيرة داؤد (ع)، جاء ما يلي: "وكان داؤد يغزو البلاد، فلا يبقي على رجل ولا امرأة، ويأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع إلى لخيش" (مدينة فلسطينية)، (٩، ٢٧، صموئيل الأول).. ناهيك عن القصة المشهورة حول زناه بزوجة قائده (آوريا الحثي)، ثم يتزوجها لاحقاً، لتنجب له سليمان (ع).

بينما يذكره القرآن بأبهى صورة، في قوله تعالى **{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}ص/ ١٧)**، وقوله: **{وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}الإسراء/ ٥٥)**.. فأين هذه المواقف، مما هو مذكور في التوراة عن سفكه للدماء، والسلب، والنهب؟!

وهناك المئات من هذه التفاصيل التي يرفضها القرآن تماماً، ولا يعيرها أيّ أهمية، ولو كان منتحلاً لحاول من انتحله ترضية اليهود، ومماشاتهم في هذه الأمور، بدل الاصطدام معهم في أمور لا يقرها مطلقاً، من خلال نظرته لعصمة الأنبياء وأخلاقهم الرفيعة.

أما موقف القرآن الكريم بالنسبة للإنجيل، فهو يعترف بإنجيل (بشارة) أنزلت على عيسى (ع): **{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}المائدة/٤٦)**، ولو كان التأثر بما كانت عليه بعض القبائل العربية وهم على الديانة المسيحية، لربما ذكر القرآن عناوين الأناجيل المعروفة بأسماء كتابها، كمتى ولوقا ومرقس ويوحنا، وأناجيل كثيرة غير معترف بها الآن.

وعيسى (ع)، في القرآن، صاحب معجزات تختلف في معظمها عن المعجزات المذكورة في الأناجيل، وهي لا تحدث إلا بإذن الله.

ورغم المكانة السامية للمسيح (ع) في القرآن، وولادته بمعجزة، إلا أنه يبقى في القرآن بشراً، يأكل ويشرب، ويحيا ويموت: **{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}المائدة/٧٥)**، ولا يوجد هنالك أثر لجملة صفات إلهية وبشرية، ولا تلميحاً لذلك.

لقد ورد اسم المسيح (ع) في خمس عشرة سورة، في ثلاث وتسعين آية، منها بلقبه (المسيح) أحد عشر مرة، معظمها مقرونة بكونه (ابن مريم)، وذلك تأكيداً لصورته البشرية، وأنه لم يمت على الصليب، ولا قام من بين الأموات، مما يدل على اختلاف الرواية

القرآنية عن روايات الأناجيل، وأن القرآن لم يتأثر بما في الأناجيل من ناحية المبدأ والمعتقد.. لا من حيث كون المسيح (ع) موجوداً أم لا، ولا من حيث إنكار رسالته، كما يعتقد اليهود.

إننا لسنا في صدد إثارة خلافات من قبل أناس يطرحونها بوسائل الإعلام، وهم أصلاً من غير المختصين بالعلوم الدينية، ويعتمدون على قراءات سطحية للنصوص بدوافع مشبوهة لإثارة الفتن والمشاكل، وهي مشكلة ليست محلية، ولكنها ذات طابع دولي، وربما سياسي، يأخذ من المعتقدات الدينية وسيلة لتعميق المشاكل بين أبناء الوطن الواحد، والبشرية جمعاء، بل نحن نؤمن برسالة القرآن ومقاصده، حيث يقول: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران/٦٤).**

ونترك أمر الفصل للواحد القهار❐

هكذا غنى العقل سمفونية الحداثة على وجه القمر

ا. م. د. سامي محمود إبراهيم
رئيس قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

✍ في البداية سيكون علينا إعادة ضبط العالم، والبدء من جديد بـ (الحب للجميع، العقل للجميع، والعيش للجميع). والمسألة ليست بسيطة.. وهناك قيم أخلاقية إنسانية فوق كل شيء.. ويجب علينا الالتزام بهذه الأخلاقيات.. إنه الصراع الأبدي بين السلطة والقوة.. لقد أنشأنا حقوق الإنسان غير القابلة للتصرف.. وعلينا الرجوع إليها ومراجعتها.. ولكن هناك أيضا برغماتية الحكم، غالباً ما يتم التذرع بها .. المشكلة الحقيقية هي إلى أي مدى؟

فنحن اليوم نعيش حالة من التأزم على مختلف المستويات؛ سياسيها واجتماعيها واقتصاديها وفكريها، إلا أن أقل الأزمات عناية بها أزمتنا على مستوى الفكر والوعي.. فبلد كالعراق، بضخامة موارده، واستراتيجية موقعه، يستغرب المرء من تأزم حاله، وتردي أوضاعه، كما أن أغلب الحلول تتجه إلى معالجة أعراض الداء دون أصله.. فسبب وصولنا لهذه الحالة من التزعزع والاختلال ليس الصراع على السلطة، وإنما سببه قلة الوعي.

ولذا شكا الغزالي من غياب الوعي عند الأمة، فقال: الضمير المعتل والفكر المختل ليسا من الإسلام في شيء، إذ الغباء في ديننا معصية!

ولكي يباع الغباء، ويسـوّق الشـقاء، يكفي أن نجد لذلك صـيغة. هكذا غنى الغرب سمفونية الحداثة على وجه القمر.

والشمس التي رافقت ابن رشد إلى أن تجاوز وادي الشـرق الكبير، تركته في مغيب الغرب يغرق في التنوير، ويتمتع بنعومة الحداثة السـائلة.. جعلته يحاور الوجود بلغة الوعي.. ولذلك يتعين علينا استعادة هذه اللغة، ومنحها الكلمة من أجل الشهادة على جرائم التيار الظلامي الذي قام بتخريب روح العصـر. فقد ظل سؤال الوعي مقلوباً، لأن العدمية مزقت الكينونة، ولم يعد الوجود سوى مصدر للوهم والفزع.

ففي عالم مشـحون بظواهر الظلم، التي تمزق كبد العاقل كما يتمزق قلب المؤمن من دلالات الفسـوق والتفريط في المقدسـات على مذابح الشـهوات، يسـتهلك الضـمير، ويصـبح العري الفكري والأخلاقي سمة العصـر بامتياز .

تحول العالم إلى لعبة كونية خطيرة، تحكمها القوانين السائلة ونهايات اللايقين .

بيع الضمير العالمي في العلن، وحين سـرق رغيف الجوع، أجمع الساسة على استباحة طينه، وجزموا بمصيره إلى سجون العذاب.

وها هي الأرض تفرش عناءها على منصة الزمن، تتقصـى خطى الضمائر، وتحمل الإنسان فينا أمانة .

فحين رمى عقل الحداثة الغربية موقفه من الوجود، استيقظ (نيتشة) قائلاً:

أين الإله؟ أنا سأقول لكم ذلك! لقد قتلناه أنتم وأنا!! لكن كيف فعلنا ذلك؟ ألم نندفع في منحدر لا قرار له؟ ألسنا نتيه صوب عدم لا نهائي؟

لذلك تبدو العودة إلى مراجعة الوعي بالذات، ضـرورة ملحة لبحث جذور الأزمة التي نعانيها.

فمعظم الرؤى والتصورات التي يتبناها خطابنا الفكري، متطرفة وغير مكتملة، بل ومثيرة للسخرية ..

لذلك بقيت إنسـانيتنا مهدورة من قبل الطاغية المتسـلط. وهذا كله تحركه الخلفية المعرفية للغرب، بكافة أبعادها السلطوية، وتغذيها النزعة الأمريكية العابرة للقارات.

وهكذا، نتيجة الشعور باليأس، يحاول وعينا المؤدلج أن يخضع حياتنا للمصادفة، وينفي لدينا الشعور بالمسؤلية والوعي بحقيقة الوجود.

كل هذا أدى إلى انهيار المسـتقبل، ذلك البعد الإنسـاني المهم، وأصـبحنا نحكم الظن والاحتمال.. وهذا ما يفسـر عداواتنا، وحروبنا الطائفية، وقلة وعينا وحيلتنا، وهواننا على العالم.

هكذا تنتصـــــر العقلية الأمريكية وأيديولوجياتها.. أما نحن، فبقينا نجتر نفايات الفكر الغربي، ونعمل على تسـويق بضـاعته المسـتهلكة. ولو تم رفع هذه الوسـائل والتقنيات، لأنكرنا الزمن ذاته، ولثبت – شـرعاً وعقلاً - أننا لا نستحق العيش.

فمن دموع ضـحايا القتل والتهجير، تغتسـل الحرية لتصـلي صـلاة الغائب على العقل الشرقي ..

من دماء الشـهداء والمعذبين ترسـم خارطة العرب والمسـلمين.. من حيرة المثقف الناظر في وجه السياسة البغيض، يكتب مستقبل الأمة..

كما أن واقعنا الغـائب اللاجيء إلى الغرب، مرجعيتنا فيه جحافل النازية، وخليفتها الفاشية، نتقمص على أسواره بشاعة الشوفينية، ووضاعة الليبرالية الصهيو أمريكية..

ونحن في وسط هذا التيار العنيف نتنفس الألم من بشاعة الكوارث التي سببتها أسطورة اللاوعي المدمر.. فمن الصعب أن نعقل في حضارة الجنون الوحشي المستعر .

ونحن أمام المســـــرح العالمي المخيف نشاهد على خشبته الأحداث المرعبة؛ من تطرف وعنف وإرهاب.. جماعات وعصـابات منظمة وممولة لإثارة الفتن والمشـاكل، شـــــركات احتكارية عابرة للقارات، شعوب مهددة بالإبادة والتهجير.

وهكذا، تتبدد أوهامنا في قصــة الحضــارة، حتى النظام الأخلاقي والروحي تزيحه فوضى اللاحتمية، فالكون عقلاني بنسبة ضئيلة جداً.

أما التقنية والتكنولوجيا المعاصـــــرة، والتي أفلتت من كل السـلطات، بدأت تسـتهدف جينات الإنسان الحقيقي، تستهدف كل ما هو أخضـر وجميل ..

وليس مسـتغرباً أن يكون التكبر والتجبر والظلم شـعار الآخر، لكن المسـتغرب والأغرب: وعينا المعطل بحقيقة الواقع؛ نغني الحرية، وصـدورنا تتشـظى أنيناً من أعظم أنواع القهر والأســـــر والعبودية. تنهشـنا وحشـية الإيديولوجيات بأفكارها الهدامة المحظورة إنسـانياً، والتي لا يمكن النيل منها، وكشف أســـرارها وأبعادها ومخططاتها، إلا عندما نحمل شعار (فلنتفكر) بمداد (العقل والإيمان)، الوعي والإنسان.

إذاً، نحن بحاجة إلى الوعي، روحياً ومادياً، لنتمكن من آليات النهوض، نســتثمر الذات الإنسانية في الوجود، فنتوسع داخل فلك الحضارة.

وبذلك نتخلص من حتمية الســقوط والانحدار، إلى حتمية النهوض في مســار الحياة العالمية.

هذا التحول يتزامن مع رؤية عقلية عالمية، تمتلك بصــراً حاداً يغوص في الأعماق لينتشل سـر كينونتنا الغامض..

إن الفعل والزمن الحضاري مدعوان لتغيير المسار، فطعم الحقيقة المطلقة أسعد وألذ من طعم الحيرة المعذبة. وحين تعرف الحكمة، وتعترف بطريق الحقيقة، فإن العقل سيعرف الطمأنينة والراحة النشطة، وسيعرج في مديات ليست غريبة عنه، إنها دعوة للخروج بالعقل من محنته في الغرب، حين يكون العقل انتقائياً، حين يكون عقلاً للاحتلال، والبحث الدؤوب عن عقلنة التوسع من أجل السيطرة والأسواق، بل حين يتحور العقل إلى ملكة وأداة باعثة على التدمير والتخريب، وهو ما أصبحت تتنبه إليه قوى عدة، وتتصدى له من داخل الفلسفة برؤية نقدية تدرك مخاطر التمجيد المفرط، بل وتأليه العقل، وجعله على حساب الإنسان ككل.

إن الحضارة المعاصرة تتسم بالنظرة المادية إلى الوجود، مع ظهور وثنيات جديدة؛ كالحرية، والإباحية، والديمقراطية المزيفة، وخداع العناوين؛ كالعقلانية التي أضحت لا عقلانية. ونتيجة طغيان المادية الصرفة على جميع مناحي الحياة، أصبح الإنسان عبداً للمال، ويزداد عبودية كل يوم، تستعبده البضائع الاستهلاكية.

وسيطرة البضائع الاستهلاكية تندرج ضمن مخطط السيطرة والتحكم العام. والحقيقة أن الإنسان لم يتقدم، وإنما تأخر، وهو في كل يوم يتأخر، الأدوات في يديه هي التي تقدمت! وتحول هو من صانعها إلى خادمها، ثم إلى عبدها. إن التقدم لا يعني نمو الأدوات، وإنما نمو الإنسان، وسموه الأخلاقي، ورقيه الروحي والجمالي، وذلك بتطهير العقول والقلوب من كل ما من شأنه أن ينحدر بالكرامة الإنسانية.

إن فشل الحضارة المعاصرة، هو الذي جعل القلق يخيم على النفوس، وجعل الناس يتطلعون إلى الحقيقة العليا النظرية والعلمية للجمع بين السماء والأرض، والدين والدولة. وكذلك بتوضيح العلاقة بين الإنسان والكون والفرد والجماعة، وتحديد المسؤولية، وترابط الشعوب والأمم في الزمان والمكان، ضمن دائرة الحقيقة المطلقة الشاملة لعالم الشهادة وعالم الغيب.

ومن نتائج هذه الأزمة الروحية: الأزمة العقلية، وهي أساس الفوضى القائمة على الفكر المضطرب، نظراً لفساد المعرفة، وفساد القصد.

ومن مظاهر هذه الأزمة الحضارية الروحية العقلية: حيرة العقول والقرائح، ففلاسفة العلوم يتكلمون عن لا مادية المادة، ولا جوهرية الجوهر، ولا شيئية الأشياء، بمعنى أن كل ما نشاهده، ما هو إلا نسيج من العلاقات والمظاهر، أي ما يقع على الحواس من أشياء مجهولة الكنه والمدلول العميق.. إنه الجهل بكنه المادة، والغرور الجاحد بوجود مجردات، كما لو كان من الممكن أن يتحرك العقل بدون تجريد.

إن العقل الذي وهبه الله تعالى للإنســـان يتمتع بقدرات فائقة، لكنه في النهاية يظل محدوداً، الأفكار التي نمتلكها أكثرها وليد التجربة، وثمرة المعاناة، أي هي خبرة وجودية تشـتبك فيها منظومات المبدأ، والرمز، وأنظمة المعارف، وأنماط السـلطة، وأسـاليب العيش، وأشـكال الاهتمام بالذات. ولذا، فإنه يجب ألا نعتبرها نهائية، فصـدق الأفكار لا يتبلور إلا من خلال إخضـاعها للتجربة، وما من فكرة تدخل في مضـمار التطبيق، تسـتطيع المحافظة على ما كانت عليه من تحديد وتماســـك، بل يعاد إنتاجها من جديد؛ ترميماً، وتطعيماً، وتأويلاً.

ولذا، فلا ينبغي أن ننتظر الفوز برؤية نهائية، نســترشــد بها في مواصــلة البناء، وتخطي العقبات. فالأعمال العقلية المتزايدة لا تؤدي بالضـــرورة إلى تقدم عقلاني مطرد، فالنكوص والتراجع من الأمور الواردة بكثرة اليوم؛ بل إن للتقدم العقلي مفرزات جانبية شـــديدة الخطورة عليه، ولا ســـيما إذا ما تأتى للعقل أن يتحلل من القيم والقيود الأخلاقية. ثم إن المسيرة الحضارية لا تمضـــي على هدى أفكار ونظريات مبلورة، وليست هي مجرد مخطط يتخيله مثقفون حالمون متفائلون بمستقبل البشـــرية على صعيد العقل والمعرفة والحرية والحوار وإحقاق الحق وتجسيد القيم النبيلة.

فهناك أيضاً المصالح والأهواء والشهوات والظروف المعاكسة. وكل ذلك يجعل من ميادين الحياة مصانع سيئة لإنتاج الأفكار وتطبيقها.

ولهذا، فإن علينا أن نســـعى دائماً إلى تفحص برامجنا، وقراءة أحوالنا، وإقامة علاقات نقدية مع ذواتنا وإنجازاتنا.. فالنقص شيء ملازم لنا. وليس المطلوب أن تصـــبح المحاكمة العقلية لدينا كاملة، وإنما المطلوب هو مداومة فضح الممارسات الفكرية الخاطئة، وكشف زغل أعمال العقل، وبالإضافة إلى استشراف المزيد من النضج والاقتراب من الصواب.

وما لم نتعامل مع منتجاتنا الفكرية وتجاربنا, ومع أحداث العالم من حولنا، على هذا النحو، فإن كثيراً من مكتسباتنا النهضوية يمكن أن يكون في خطر، كما يمكن لكل ما أحرزناه من تقدم عقلي وفكري أن يصبح موضع تساؤل❐

إذا اؤتمن.. خان !

د.يحيى عمر ريشاوي

من حقك، ومن حقنا أن نفتخر بالرؤية الإدارية والسياسية الثاقبة لدى معلم البشرية محمد، رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك في نظرته ورؤيته الى أمور الحكم وإدارة البلاد، نظرته ورؤيته إلى المسؤولية، ونظرته ورؤيته إلى علاقة الحاكم والمحكوم، وإلى جسامة الأمانة الموكلة إلى السلطات، وكذلك إلى قضية الراعي والرعية، وغيرها من المسائل والأمور التي تدخل في دائرة الإدارة والسياسة والسلطة والحكم.. هذه الأمور تجدها في ثنايا سيرته، وفي ثنايا خطبه وأحاديثه، زهاء ربع قرن من نبوته وقيادته الدينية والسياسية والاجتماعية.

فحين ينظر المرء – مثلاً - إلى الحديث النبوي الشريف: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)، ويقرأه بتمعن، ويقارنه بحال السلطات الحاكمة في العراق والإقليم، فإن صفة (المنافق السياسي) تنطبق على معظمهم، إن لم نقل كلهم، بامتياز !! كذب فاضح، ومخالفة للوعود المتكررة، وخيانة للأمانة الموكلة إليهم .. أيما خيانة !، حينها فقط تدرك سر تخلفنا، وما آل إليه حال البلاد والعباد.

ولعمري، إن إدارة الحكم، وازدهار بلد ما، وتحقيق العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لن تتحقق البتة، إلا بسياسيين صادقين، أوفياء مع وعودهم، محافظين على أماناتهم.. واستقراء البلاد التي نهضت من كبواتها، وازدهرت من بعد تخلفها، وتشتتها، وحصلت فيها تنمية حقيقية، يعطيك الدليل القاطع على ما تقدم، ويعطيك الدليل أيضاً على أن ما نعانيه من فساد مالي وإداري، وما يتجرعه المواطن المسكين والمغلوب على أمره، من شح في الخدمات، وعدم استقرار، وفقدان للأمن والعدالة والرخاء، ليست إلا نتيجة للآفات الثلاث: (الكذب، والخيانة، ومخالفة الوعود) .

وبالطبع، فإن الوصول إلى بيئة (الصدق مع الخلق، والوفاء بالوعود، والمحافظة على الأمانة)، لن تتحقق فقط عبر الترغيب والتذكير والمواعظ والدورات، وغيرها من أساليب التنشئة الاجتماعية والسياسية والإدارية، بل تحتاج - إلى جانب كل ذلك- إلى سلطة قوية ورادعة تقف بقوة بوجه كل من صار الكذب ومخالفة الوعود وخيانة الأمانات ديدنه.. وتحقيق ذلك لن يتأتى إلا بوجود حاكم ورأس سلطة يعي هذه الحقيقة، وسلطة سياسية وحكومة عادلة تجعل من فحوى هذا الحديث النبوي العظيم ثقافة وشعاراً وسلوك حكم❐

تأملات في سورة

- تأملات في سورة العصر	صالح شيخو الهسنياني

تأملات في سورة العصـر والبورصة الفائزة دوماً

صالح شيخو الهسنياني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالعصـر (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

تسلسل سورة العصـر (١٠٣) في القرآن الكريم

قبلها سورة التكاثر (١٠٢) حسب ترتيب سور القرآن

وبعدها سورة الهمزة (١٠٤) حسب ترتيب سور القرآن

ترتيب النزول

نزلت قبلها سورة الشرح (١٢)

سورة العصـر (١٣)

ونزلت بعدها سورة العاديات (١٤)

مقدمة:

✍ سورة (العصـر) سورة مكية، آياتها ثلاث، عدد آياتها: ثلاث آيات، عدد كلماتها: أربع عشـرة كلمة.

عدد حروفها: ثمانية وستون حرفاً.

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي أنه على امتداد الزمان في جميع العصور، وامتداد الإنسان في جميع الدهور، ليس هنالك إلَّا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وتوضح معالمه.

إن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، وبذلك يصبح الإيمان قوّة دافعة، وحركة وعملاً، وبناء وتعميراً يتّجه إلى الله سبحانه.

أمّا التواصي بالحق والصبر، فيبرز صورة الأمة المسلمة متضامنة متضامّة، خيِّرة واعية، قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر، في مودّة وتعاون وتآخ[1].

منهج كامل للحياة:

في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام. وتبرز معالم التصور الإيماني، بحقيقته الكبيرة الشاملة، في أوضح وأدق صورة. إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها، في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله..

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه:

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج. هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه. وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار[2]..

تاريخ نزولها ووجه تسميتها:

نزلت سورة العصـر، بعد سورة الشـّرح، ونزلت سورة الشرح فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة، فيكون نزول سورة العصـر في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿**وَالعصـر**﴾.

الربط بين السور الثلاثة حسب ترتيب النزول

مناسبتها لما قبلها [**سورة الشـرح**]:

تعرض لما أنعم الله به على النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتذكير له بهذه النعم، وتوجيه له إلى ما ينبغي أن يؤديه لها من حقّ عليه.. وهكذا شأن كل نعمة ينعم الله بها على الإنسان، لا تتم إلَّا بالشكر للمنعم، وبالإنفاق منها على كل ذي حاجة إليها.

---

[1] - التويجري، الموسوعة القرآنية خصائص السور: (١٥٧/١٢).

[2] - في ظلال القرآن: (٣٩٦٤/٦).

مقابلات:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يقابلها ﴿وَالعصر﴾، يعني شرحنا صدر النبي - صلى الله عليه وسلم - للإيمان حال حياته؛ وشرحنا صدور أتباعه على مر العصور والدهور.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ يقابلها ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني إن لم يكن الإنسان على الطريق القويم والصراط المستقيم فهو دائماً في خسر ووزر، يحمل سيئاته كمثل الذي يحمل أثقالاً على ظهره، ولا يضعها في حله وترحاله. وجعلنا لك ذكراً عالياً باقياً على الزمن.. فما آمن مؤمن بالله إلَّا جعل الإيمان بنبوّتك من تمام إيمانه بالله، وإنه لا يؤمن بالله من لم يؤمن بأنك رسول الله، يقرن ذكرك بذكر الله.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ **يقابلها** ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾، يقول **عبد الكريم الخطيب:** "وهكذا كان تدبير الله سبحانه وتعالى مع النبي الكريم، بدأ أمره بالعسر والضيق، ثم كانت عاقبة أمره إلى اليسر والسعة. فالذين يمشون في أول حياتهم على الشوك، ويغسلون أجسادهم بعرق الكفاح والصبر، يجنون أطيب الثمرات، ويضعون أقدامهم على مواقع العزة والمجادة، ويتحلّون بحلل الكرامة والفخار.. أما الذين يستقبلون الحياة نائمين في ظلها، متجنبين الخوض في غمراتها، متخففين من حمل أعبائها وأثقالها، فهيهات أن تسلمهم الحياة آخر الأمر إلى غير المهانة والضياع.. أي إن العسر - أيّ عسر- لا يلقى الإنسان إلَّا ومن محامله اليسر، الذي يعمل على مقاومته، ومصارعته حتى يقهره آخر الأمر، ويتركه صريعاً، ليأخذ اليسر مكانه، متمكناً، لا ينازعه عسر! هكذا الشدائد تتولّد منها دائماً مواليد الخير، وتستنبت في أرضها أطيب الثمرات، وأكرمها، وأهنؤها"[٣].. وهذا لا يكون إلَّا بالإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ يقابلها ﴿وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أي أنه إذا كان من شأن العسر أن يصحبه يسر، ومن شأن النّصب والتعب أن تعقبهما الراحة والرضا، فجدير بك أيها النبي - صلى الله عليه وسلم -، كما هو جدير بكل إنسان، أنك إذا فرغت من أي موقع من مواقع الكفاح، والجهاد، فلا تركن إلى الراحة، بل افتح جبهة جديدة للكفاح والجهاد، فإنه بقدر ما يمتد بك هذا الطريق الشاق العسر، بقدر ما تحصل من خير، وبقدر ما تبلغ من علو شأن ورفعة قدر..

---

[٣] - التفسير القرآني للقرآن: (١٦/١٦١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ - إشارة إلى أن هذا الجهاد والكفاح، وما تحتمل فيه النفس من نصب وتعب- إنما يعطي هذا الثمر الطيب، إذا كان متجهه إلى الله، وكانت غايته مرضاة الله، والرغبة فيما عنده..

أما النصب والتعب فيما لا يراد به وجه الله، والدار الآخرة، فهو عناء، وبلاء.

إن النصب والتعب في مغارس الحق والخير، يزكو نباته، ويطيب ثمره، ويكثر خيره، وأما النصب والتعب في أودية التيه والضلال، فذلك ما لا ينبت- إن كان له نبات- إلا الشوك.

قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ هم الذين آمنوا بالله، وعرفوا ما لله سبحانه وتعالى، من كمال وجلال.. فاستمسكوا بالحق، وهو الإيمان، وما يدعو إليه، وما ينهى عنه.. ثم تواصوا به فيما بينهم، فنصح بعضهم لبعض بالاستقامة عليه، والتمسك به، وفي هذا ما يقوّى من جبهة الحق، ويكثّر من أتباعه[٤].

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إشارة إلى أن طريق الإيمان الموجه إلى مرضاة الله بالصبر وتحمل المشاق، والاستقامة على شـريعته، ليس أمراً هيناً، فإن ذلك إنما يحتاج إلى معاناة وصبر على مغالبة الشهوات، وقهر دواعي الأهواء، ووساوس الشيطان.. فطريق الحق طريق محفوف بالمكاره، والصبر هو زاد الذين يسلكون طريقه، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح[٥]..

مناسبتها لما بعدها [سورة العاديات]:

سورة العصـر دلت على ما يأتي[٦]:

1. الإنسان وإن ربح الثروة الكبيرة والمال الوفير، فهو في خسارة محققة، إن لم يعمل للآخرة عملاً طيباً صحيحاً.
2. أقسم اللَّه تعالى على هذا الحكم بأي عصـر أو زمان، لما فيه من التنبيه بتصـرّف الأحوال وتبدّلها، وما فيها من الدلالة على الصانع ووحدانيته، وكمال قدرته، ومزيد حكمته، التي تظهر – أحياناً - بعد مرور الزمان.
3. حكم اللَّه تعالى بالوعيد الشديد، لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس، إلا من كان آتياً بأشياء أربعة، أو متصفاً بصفات أربع، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فدلّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وعناصـر الإيمان ستة:

---

٤ - التفسير القرآني للقرآن: (١٦٦٩/١٦).

٥ - نفسه.

٦ - التفسير المنير: (٣٩٤/٣٠-٣٩٥).

أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المعاصي، وفعل الخير.

والتواصي بالحق: أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر الثابت، ويحث بعضهم بعضاً على توحيد اللَّه، والعمل بالقرآن، والدعوة إلى الدين والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه.

والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً على طاعة اللَّه عزّ وجلّ، والصبر عن معاصيه، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والمحن.

مقابلات:

١. أقسم الله تعالى في (سورة العصر) بـ﴿**وَالعصر**﴾، تنويه بشأن هذا الوقت من الزمن، الذي تبدأ فيه الأحياء تجمع نفسها، وتعود إلى مأواها بما حصّلت وجمعت في سعيها في الحياة.. وإنه لجدير بالعاقل أن يحاسب نفسه على ما عمل في يومه هذا، وما حصل فيه من خير، وما اقترف فيه من إثم.. إنه وقت محاسبة ومراجعة لأعمال اليوم، وتصحيح للأخطاء التي وقع فيها، فلا يستأنفها في غده. وأقسم في (العاديات) بـ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾؛ ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾؛ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾. والمقسم به هنا، هو الخيل، في حال عدوها، حاملة فرسانها إلى ميدان القتال.. فهي تعدو ضابحة، وهي في عدوها توري ناراً تنقدح من احتكاك حوافرها بالحجارة التي تعدو عليها..

٢. إذا كانت (سورة العصر) تؤكد على أهمية العبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاختلاط بالناس والصبر على أذاهم في ميادين الحياة، فإن (سورة العاديات) تؤكد على الصولات والجولات في ميادين القتال ليلاً ونهاراً.

٣. وفي هذا ما يشير إلى أنها تسير تحت جنح الظلام بفرسانها حتى لا تراها عين العدوّ، وحتى لا ينذر بها هذا العدوّ، ويأخذ حذره من المفاجأة حين تطلع عليه على غير انتظار، ولهذا يظهر هذا الشرر الذي ينقدح من احتكاك حوافرها بالصوّان.

٤. في (سورة العصر) بيّن الخاسرين في الدينا والآخرة، ثم استثنى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، وفي (العاديات) مدح وأقسم بـ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

٥. في (سورة العصـر)، بيّن سبب خسـران الإنسان، لبعده عن الإيمان والعمل الصالح، وعدم تواصيه بالحق، وعدم الصبر عليه. أما في (العاديات)، فبيّن ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

الربط بين السور الثلاثة، حسب ترتيب المصحف

الغرض من هذه السورة الترغيب في العمل الصالح، وقد أتى هذا في مقابلة ما كان منهم من التّفاخر بالأموال والأولاد، ولهذا جاءت سورة العصـر بعد سورة التكاثر.

مناسبتها لما قبلها [سورة التكاثر]:

الإنسان الذي ألهاه التكاثر بالأموال، والتفاخر بالجاه والسلطان، دون أن يتزود للآخرة بزاد الإيمان والتقوى، هو هذا الإنسان الخاسـر.. وأي خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالآخرة؟ وهذا ما جاءت (سورة العصـر) لتقرره[٧]..

مناسبتها لما بعدها [سورة الهمزة]:

في (سورة العصـر) أقسم الحقّ جلّ وعلا (بالعصـر) على أن الإنسان في خسـر، مستثنياً الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر.

وفي (سورة الهمزة) عرض للإنسان الخاسـر، ومن أين كان خسرانه؟، وإلى أين يكون مصيره؟[٨].

ومن هذا يتبين أن (سورة العصـر) واقعة بين خسرين: خسـر قبلها، وخسـر بعدها، خسـر ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، والخسـر هو ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، في (سورة التكاثر).. وخسر: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾، والخسـر هو ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾: رؤية الجحيم قبل الدخول (في سورة التكاثر)، وفي (الهمزة): دخول الحطمة ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾[٩].

معاني الكلمات:

قوله تعالى: ﴿**وَالعصـر**﴾[١٠]:

العصـر: هو الدهر.

---

٧ - التفسير القرآني للقرآن: (١٦٦٧/١٦).
٨ - التفسير القرآني للقرآن: (١٦٧٠/١٦).
٩ - فاضل السامرائي، لمسات بيانية، قناة الشارقة الفضائية.
١٠ - الطبري، جامع البيان: (٥٨٩/٢٤)؛ الثعلبي، الكشف والبيان: (٢٨٣/١٠)؛ السمعاني، تفسير القرآن: (٢٧٨/٦)؛ الرازي، مفاتيح الغيب: (٢٧٩/٣٢)؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٥٣٠/٣٠).

وقيل: والعصـران هما: الليل والنهار.
وقيل: هما الغَدَاة والعشي.
وقيل: (العصـر): بعد زوال الشمس إلى غروبها.
وقيل: آخر ساعة من ساعات النهار.
وقيل: صلاة العصـر، وهي الوسطى[١١].
وقيل: أحد طرفي النهار.
وقيل: والعصـر، أي: عصـر الدنيا، قد دنت القيامة.
وقيل: أَنه عصـر النَّبِي - صلى الله عليه وسلم - أقسم بِهِ.
وقيل: أنه قسم بزمان الرسول - عليه السلام-.
وقيل: ويجوز أن يفسر العصـر في هذه الآية بالزمان كله.
وقيل: ويجوز أن يراد عصـر الإسلام كله، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم.
وقيل: والعصـر الذي أنت فيه، فهو تعالى أقسم بزمان وجودك في هذه الحياة، في هذه الآية.

يقول **ابن عاشور**: "وللعصـر معان يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، يتعين إما بإضافته إلى ما يقدر، أو بالقرينة، أو بالعهد. وأياً ما كان المراد منه هنا، فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكّر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة، مثل: الصلاة المخصوصة، أو عصـر معين مبارك. وأشهر إطلاق لفظ العصـر أنه: علم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس، فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله، بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس، ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مثلي قدره، بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس، وذلك وقت اصفرار الشمس. والعصـر مبدأ العشي. ويعقبه الأصيل والاحمرار، وهو ما قبل غروب الشمس، فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم، وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى، وبالليل والنهار، وبالفجر، من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية.

---

[١١] - من الصباح إلى وقت العصـر هناك وقت كاف للاستشهاد، وما وقع فيها من أحداث، بخلاف الفجر وهو أول الزمن، ليس هناك شاهد على أنهم في خسـر. وكذلك الضحى، ليس هناك مدة كافية للاستشهاد. والمغرب غروب الشمس، غروب الحياة، وزوال الدنيا، فالعصـر مدة كافية للاستشهاد، ودلالة كافية، لأنه أحسن شاهد لبيان الناس أنهم في خسـر. فاضل السامرائي، لمسات بيانية.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار، كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني، وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل، ونظام لابتدائه وانقطاعه. وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم، والتأنس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني، أي كل عصر"[١٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

وتعريف الإنسان تعريف الجنس، ويشمل جميع أفراد النوع الإنساني الموجودين في زمن نزول الآية، وهو زمن ظهور الإسلام. ومخصوص بالناس الذين بلغتهم الدعوة في بلاد العالم على تفاوتها[١٣].

قال ابن عباس: يريد جماعة من المشركين، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب. وقال مقاتل: نزلت في أبي لهب. وفي خبر مرفوع أنه أبو جهل. وروي أن هؤلاء كانوا يقولون: إن محمداً لفي خسر، فأقسم تعالى أن الأمر بالضد مما توهموا[١٤].

قوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾

أي: إن جنس الإنسان لا يخلو من خسران، ونقصان، وفقدان للربح في مساعيه وأعماله، طوال عمره، وإن هذا الخسران يتفاوت قوة وضعفاً.

فأخسر الأخسرين هو الكافر الذي أشرك مع خالقه إلهاً آخر في العبادة، وأقل الناس خسارة هو المؤمن الذي خلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً، ثم تاب إلى الله تعالى توبة صادقة.

وجاء الكلام بأسلوب القسم، لتأكيد المقسم عليه، وهو أن جنس الإنسان في خسر.

وقال سبحانه: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ للإشعار بأن الإنسان كأنه مغمور بالخسر، وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب. وتنكير لفظ ﴿خُسْرٍ﴾ للتهويل. أي: لفي خسر عظيم[١٥].

وقيل: لفي هلاك؛ أو: لفي شر؛ أو: لفي نقص؛ أو: لفي عقوبة[١٦].

أي أن الإنسان ساقط في كل حياته - من حين التكليف إلى مماته - في خسر، إلا من استثناه الله تعالى[١٧].

---

١٢ - التحرير والتنوير: (٥٢٩/٣٠-٥٣٠).
١٣ - التحرير والتنوير: (٥٢٨/٣٠).
١٤ - مفاتيح الغيب: (٢٧٩/٣٢).
١٥ - سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: (٥٠١/١٥).
١٦ - الماوردي، النكت والعيون: (٣٣٤/٦).
١٧ - السامرائي، لمسات بيانية.

يقول **الرازي**: "الخسـران، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال. ثم فيه تفسيران، وذلك لأنا إذا حملنا الإنسان على الجنس، كان معنى الخسـر هلاك نفسه وعمره، إلا المؤمن العامل، فإنه ما هلك عمره وماله، لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية. وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر، كان المراد كونه في الضلالة والكفر، إلا من آمن من هؤلاء، فحينئذ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح.

إنما قال: ﴿**لَفِي خُسْرٍ**﴾ ولم يقل: لفي الخسـر، لأن التنكير يفيد التهويل [التعظيم] تارة، والتحقير أخرى، فإن حملنا على الأول كان المعنى: إن الإنسان لفي خسـر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقّه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة. وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم.

وإن حملناه على الثاني، كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان، وفيه بشارة أن في خلقي من هو أعصى منك، والتأويل الصحيح هو الأول.

واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسـر، أحدها:

قوله: لفي خسـر، يفيد أنه كالمغمور في الخسـران، وأنه أحاط به من كل جانب.

وثانيها: كلمة إن، فإنها للتأكيد.

وثالثها: حرف اللام في لفي خسـر، وهاهنا احتمالان:

الأول: في قوله تعالى: لفي خسـر، أي في طريق الخسـر.

الاحتمال الثاني: أن الإنسان لا ينفك عن خسـر، لأن الخسـر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عمره، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان، فإن كانت مصـروفة إلى المعصية، فلا شك في الخسـران، وإن كانت مشغولة بالمباحات، فالخسـران أيضاً حاصل، لأنه كما ذهب، لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكناً من أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائماً. وإن كانت مشغولة بالطاعات، فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك، لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر، كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل. وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسـران. فثبت أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسـران[١٨].

[١٨] - مفاتيح الغيب: (٢٧٩/٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

استثناء مما قبله، والمقصود بهذه الآية الكريمة تسلية المؤمنين الصادقين ... وتبشيرهم بأنهم ليسوا من هذا الفريق الخاسر[١٩].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾

يقول **النابلسي**: "الحقيقة أن الله هو الحق، وإذا توجهت إلى غيره فلن تجد شيئاً بل سراباً في سراب، وعود كاذبة، وأقوال فارغة، وكلمات طنانة، لكنها هراء وهواء، وإذا توجهت إلى الله عز وجل وجدت كل شيء، فأول معنى من معاني الحق الشيء الموجود، وأول معنى من معاني الباطل الشيء المعدوم.

وأخطر ما في الحياة أن تتجه إلى جهة لا تملك شيئاً، وأخطر ما فيها أيضاً أن تعتقد اعتقاداً ليس له مرتكز واقعي أبداً... فإذا كنت مع الحق فأنت في سعادة كبيرة، لماذا؟ لأنك مع الثابت ومع الموجود.. وكلمة (حق) ذات شأن وخطر، لأن علينا أن نراجع أنفسنا، وحقيقة أفكارنا عن الدين، ليتبين هل هي صحيحة؟ وهل معتقداتنا صحيحة؟ وهل تصوراتنا عن الله صحيحة؟ وهل معتقداتنا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - صحيحة؟ وهل آراؤنا في القضايا المعاصرة صحيحة؟ وما قيمة رأيك أنت؟"[٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ فعل ماض، من الوصية، وهي تقديم النصح للغير مقروناً بالوعظ.

و**﴿الْحَقِّ﴾**: هو الأمر الذي ثبتت صحته ثبوتاً قاطعاً[٢١].

وقيل في (الحق) أربع تأويلات:

أحدها: أنه التوحيد.

الثاني: أنه القرآن.

الثالث: أنه الله.

والرابع: أن يوصي مُخَلَّفيه عند حضور المنية ألا يمُوتنَّ إلا وهم مسلمون[٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

و**﴿الصَّبْرِ﴾**: قوة في النفس تعينها على احتمال المكاره والمشاق.

وفيه أوجه:

---

١٩ - التفسير الوسيط: (٥٠١/١٥).

٢٠ - موسوعة أسماء الله الحسنى: (١/ ٥٤٧ وما بعدها)، دار المكتبي، ط٦، ٢٠١٠م.

٢١ - التفسير الوسيط: (٥٠١/١٥).

٢٢ - النكت والعيون: (٣٣٤/٦).

أحدهما: على طاعة الله.

الثاني: على ما افترض.

ثالثاً: بالصبر عن المحارم واتباع الشهوات[٢٣].

والصبر في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قتل فلان صبراً، إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ أي احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله.

وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشـر نوعاً:

الأول: الأمر به، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[البقرة:١٥٣].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده، كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ...﴾ [آل عمران: ١٧].

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيّته لهم، وهي معيّة خاصة، تتضمن حفظهم، ونصـرهم، وتأييدهم. ليست معيّة عامة: وهي معية العلم والإحاطة، كقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

٢٣ - النكت والعيون: (٣٣٤/٦).

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى، بأن أهل الصبر: هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة، وجزاءها، والحظوظ العظيمة، إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم:٥].

وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة. إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة. ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة لرأس من الجسد. ولا إيمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

درجات الصبر:

الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية، بمطالعة الوعيد: إبقاء على الإيمان، وحذراً من الحرام، وأحسن منها: الصبر عن المعصية حياء.

ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين.

أما السببان: فالخوف من لحوق الوعيد المترتب عليها.

والثاني الحياء من الرب تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه، وأن يبارز بالعظائم.

وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان، والحذر من الحرام.

فأما مطالعة الوعيد، والخوف منه: فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر، والتصديق بمضمونه.

وأما الحياء: فيبعث عليه قوة المعرفة، ومشاهدة معاني الأسماء والصفات.

وأحسن من ذلك: أن يكون الباعث عليه وازع الحب، فيترك معصيته محبة له.

الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواماً، وبرعايتها إخلاصاً، وبتحسينها علماً.

هذا يدل على أن عنده: أن فعل الطاعة آكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة.

الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوالف النعم[٢٤].

أي: أن جميع الناس في خسـران ونقصان... إلا الذين آمنوا بالله تعالى إيماناً حقاً، وعملوا الأعمال الصالحات، من صلاة وزكاة وصيام وحج، وغير ذلك من وجوه الخير، وأوصى بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق، الذي على رأسه الثبات على الإيمان، وعلى العمل الصالح... وأوصى بعضهم بعضاً كذلك بالصبر على طاعة الله تعالى، وعلى البلايا والمصائب والآلام... التي لا تخلو عنها الحيا.

فهؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين أوصى بعضهم بعضاً بهذه الفضائل، ليسوا من بين الناس الذين هم في خسران ونقصان، لأن إيمانهم الصادق، وعملهم الصالح، قد حماهم من الخسـران[٢٥] ❐

---

[٢٤] - ابن القيم، مدارج السالكين: (١٥١/٢- ١٦٣) باختصار، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

[٢٥] - التفسير الوسيط: (٥٠١/١٥-٥٠٢).

بصراحة

من أجل نهضة جديدة

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

✍ ربّما لن تجد شـخصـاً على وجه المعمورة لم يحلم بنهضـة أمته وشـعبه وبلده ومدينته، وحتى أسـرته، لأن الكل في النهضة يصل إلى مبتغاه، ويحقق ما يتمناه في حياته.

والوصـول إلى الذروة والجلوس على القمم في الحياة لا يأتي من فراغ، ولا يحصـل جزافاً، بل نصـل إليها عندما نخطو خطوات لا بأس بها في الطريق، بعدما ذقنا مرارة غيابها في حياتنا؛ أفراداً ومجتمعات.

والسـؤال المطروح هنا، من أين تبدأ عملية النهوض؟ والإجابة بسـيطة، ولكنها تحتاج إلى عزم، وإرادة وحسم في القرار، وتحمل تبعاته، والتضحية من أجله.

بداية نهوضـنا يبدأ من أنفسـنا نحن.. وعندما نتوجه إلى غاية النهوض، علينا أن نبحث عنه في ذواتنا، فرداً فرداً، فحينئذ نخطو الخطوة الأولى والأهم في طريق الألف ميل، ولا يمكن أبداً أن يحدث أي تغيير في أبسـط نقطة من حياتنا دون حدوثه في داخلنا، وتغلغله في أذهاننا أولاً.

الخطوة التالية، وهي لا يستهان بها، وفي غاية الأهمية كذلك، وهي: العمل بجد وإخلاص بغية أن ينقل ما في داخلنا من الفكر والميل نحو التغيير، إلى العمل والواقع والاسـتعداد للتضحية من أجله.

ومن الواضح أن مجتمعاتنا لا تخلو من أناس ذوي أفكار قيمة، ويريدون إحداث التغيير في واقعنا المؤلم، ولكن عليهم أن يعلموا جيداً أن هذا الطريق ليس مفروشـاً بالورود، ويتطلب التضحية بالغالي والثمين من أجله.

البداية من الذات، والتضـحية، يمثلان ركنين أسـاسـيين للنهوض بنا من جديد، ابتداءً من أنفسنا وأسـرتنا، مروراً بمجتمعنا، وصولاً إلى الأمة.

شـرف كبير لمن يتحمل مسؤولية النهوض بواقع أي مكون من مكونات الأمة (الذات، الأسرة، المجتمع)، ويقع على عاتقه ما قام به أنبياء الله ورسـله - عليهم أفضـل الصـلاة والسـلام - من النهوض بواقع جديد في مجتمعاتهم، والتطلع إلى عالم جديد يحترم فيه الإنسان والإنسانية أولاً وقبل أي شيء❐

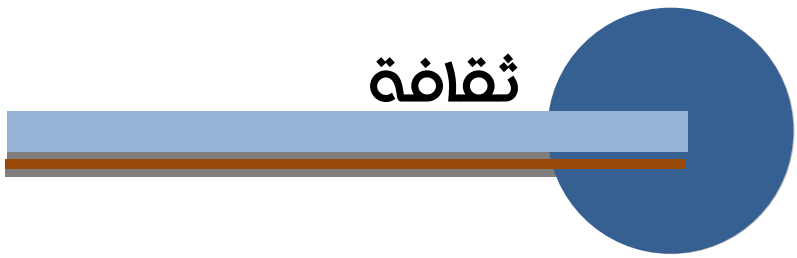

- صورة الإسلام في الإبداع العربي المعاصر	د. مصطفى عطية جمعة

صورة الإسلام في الإبداع العربي المعاصر

رؤى ونماذج وتحليل

د. مصطفى عطية جمعة

✍ يمكن قراءة صورة الإسلام في الأدب العربي المعاصـــر من خلال مفهوم التمثيل الثقافي، والذي يعنى بمناقشة كيفية تجلي فكرٍ ما في الإبداع: مكتوباً كان أو مرئياً، أي كيف صـوّر الفنان، ومثّل الفكر، في إبداعه. ومن هنا، لا بد من حضـور المتلقي عند اسـتقباله للعمل الإبداعي، فلا يسـتسـلم لما يقدمه الأديب له على أنه حقيقة مطلقة، بل عليه بتفكيك ما يقرأه من إبداع، فلا يتخيل أن ما يصوّره الأديب هو واقع طبيعي حادث وقائم، ومن ثم يصـبح مسـلّمة بديهية، وإنما هو رؤية من الأديب لتركيب حقائق وتصـورات، وتقديمها في صورة متكاملة[1].

فلا نُخدَع بما يصـوره الأدباء المتغربون – وإن كثروا – عن صـورة الإسـلام والمسـلم في إبداعاتهم، فهي في النهاية مجرد تمثيل / تصـوير / إعادة تركيب لرؤية للأديب، يتقنع

[1]) التمثيل الثقافي بين المرئي والمكتوب، ماري تريز عبد المسيح ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص١٩.

بإبداعه من أجل إيصـــالها للقارئ. وبالتالي، يمكن أن نقرأ كيفية تمثيل الإســـلام، وثقافته، وشخصياته، في الإبداعات الأدبية المختلفة.

لقد تصور كثير من الأدباء والمبدعين أن حرية الإبداع معناها كشف المخبوء والمستور في النفس والمجتمع. وهذا كمفهوم لا ضير منه، فمن واجب الأديب أن يكون شفافاً صادقاً في مشـاعره وفكره، لا يقدم لقرائه قيماً مزيفة، أو يصـوغ عوالم وهمية، تقدّم صـوراً مثالية لواقع بائس، على نحو ما نجد في الأدب الترويجي لأيديولوجيات معينة، في ظل الأنظمة القمعية.. ولكن الحادث أننا وجدنا أشكالاً من الإبداعات تدعي التحرر؛ ولكن تحصـــره في محاربة التابوهات (المحرمات)، واقتصـرت في ذلك على: الدين، والجنس، فشاعت النصوص الممتلئة فحشـــاً في الأخلاق، وتطاولاً على الذات الإلهية، وعلى قيم الإســـلام، فإذا هوجمت تمسّك مؤلفوها بحرية الرأي كحق مقدس لهم، يُسقِط أمامه كل المقدسات الأخرى؛ فأصبح الأمر في عُرف هؤلاء المتغربين أن آراءهم المصاغة في إبداعاتهم - أياً كانت - هي مقدسة، وفي المقابل ينزعون القداســة عن النصــوص الدينية والعقيدة والقيم والأنبياء والصــحابة، ويتطاولون على عقائد المجتمع وقيمه.

إن غالب هذه الكتابات والإبداعات تنم عن الجهل الشديد بالثقافة الإسلامية الأصيلة، وتســتند إلى تصــورات مغلوطة عن الإســلام، مأخوذة من الجهل المنتشـــــر والمتراكم في المجتمعات، فهم يقدمون صـورة الإسـلام على أنه الصـوفية المبتدعة، المنغمسـة في الانعزال الاجتماعي في الزوايا والتكايا، يلبس أتباعها الرث من الثياب (مرقعة الدراويش)، ويهمهمون بكلمات غير مفهومة، ثم يصـــرخون مستنجدين بالله تعالى. أو يظهرون صورة عالم الدين على أنه تابع للسلطة يبرر أفعالها، ويأمر الشعب بطاعة ولي الأمر طاعة عمياء مطلقة.

وهذا ما نجده جلياً في إبداعات نجيب محفوظ، والتي تراوحت في رؤاها ما بين النظر إلى الدين على أنه مخدر للشـــعب، يســـتغله الحاكم الظالم من أجل فرض ســـطوته على البســـطاء والتحكم فيهم، وهو ما يبدو جلياً في روايته الشـــهيرة (أولاد حارتنا) (١٩٥٧ م)، وهي رؤية ماركسية في النهاية، ترى أن الدين أفيون الشعب: استغلالاً وقمعاً وإذلالاً. لذا، هو ينتصـــر - بشكل واضح - لنموذج المثقف الماركســـي الذي يؤمن بالاشتراكية العلمية، فذلك هو المستقبل الحقيقي لإنقاذ الشعوب، وهو ما أعلنه صراحة في روايته (السكرية)، والتي هي الجزء الثالث من ثلاثيته المعروفة، عندما اختار ســـبيل الاشـــتراكية ليكون نهجاً لنهضة الوطن.

أيضاً، نجد (محفوظ) يطرح سؤالاً فلسفياً محيراً وغامضاً في آن، عن الخالق سبحانه، وكيف يتركه يعاني اليتم والضـــياع مع أمّ فاســـدة، على نحو ما نجد في روايته (الطريق)،

فالبطل في حيرة، يتســاءل عن والده، ويتطلع إلى الســماء متعجباً من كونه ابناً لأمّ بائعة هوى، وأب لا يعرف كنهه، فلماذا تمّ ذلك؟

كما يُظهِر (محفوظ) الإسلام صوفياً غنوصياً، أهله متعبدون منعزلون عن المجتمع في إحدى التكايا الصوفية، يرددون أناشيد غامضة في مفرداتها وإشاراتها، بينما المجتمع غارق في مشكلاته، وهو ما بدا جلياً في روايته (اللص والكلاب) (١٩٦١م)، فالبطل (سعيد مهران) كان لصاً متأثراً بصديق ماركســي يعمل في الصحافة، استغله الأخير في ســرقات الأغنياء، بدعوى أن أموالهم حلال للفقراء. ونرى صورة العابد الزاهد عندما لجأ إليه (سعيد مهران) في خلوته، وراح يعترف له بما ارتكب من أفعال، فبدا العابد في صورة أقرب إلى القس وهو يستمع لاعتراف أحد رعايا الكنيسة. إنها الصورة العلمانية التي تجعل الدين شأناً ذاتياً، مقتصراً على التعبد داخل جدران المساجد، لا شأن له بالحياة والأحياء.

وبدت الصورة أوضح في ملحمة (الحرافيش) (١٩٧٧م) لمحفوظ أيضاً، والتي هي إعادة صياغة لروايته المثيرة للجدل (أولاد حارتنا)، فسعادة المجتمع تتحقق عبر نشــر العدل الاجتماعي، من خلال أخذ ضريبة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، ويتولى ذلك الفتوة القوي، الذي يخيف الناس بقوته الجسمانية، فإذا انحرف هذا الرجل الفتوة، ساد الظلم والفســاد. وهذا يعني أن الدين روحي فقط، وأن الســعادة مقصــورة فقط على الجانب الاقتصــادي / المادي فقط، وتتحقق بالقوة، وليســت بإيقاظ الضــمائر، وتحريك مكامن الخير عند الناس.

وفي رواية نجيب محفوظ (الباقي من الزمن ســاعة) (١٩٨٢م)، والتي رصــد فيها التغييرات الاجتماعية الحادثة في مصــر خلال عقد السبعينيات من القرن العشرين، يقدّم نماذج متعددة لشباب الأســرة، ما بين المثقف والفنان والشهواني والماركســي والليبرالي، ويجعل أحدهم منضما إلى التيار الإسلامي، بلحية كثة، وتصــرفات عصبية، وعندما يجتمع أعضاء الأســرة لبيع منزل العائلة، الذي يقدر بثمن مرتفع، سيثري الجميع منه، ولكن غالبية أفراد الأسرة يرفضون، فالبيت رمز مكاني للأسرة / الوطن، وبيعه يعني تشتت أبناء الأســرة / الوطن، إلا أن الشخص الملتزم يقبل البيع، فهو بحاجة للمال، غير عابئ بمشاعر الآخرين، فله خططه الخاصة به في حياته، التي تبعد كل البعد عما اتفقت عليه الأسرة.

إن صورة المسلم الملتزم الواعي للفهم الصحيح للإسلام، والذي يطبقه بشكل صحيح؛ تكاد تتلاشى، ويحل محلها صورة المتزمت والمتعصب والعنيف. وهو ما وضح في كثير من الأعمال الإبداعية، والمرئيات، والتي لم تفرق بين المسلم الملتزم والمسلم المتعصب المتطرف، أي أن كل من يلتزم بالإسلام هو متعصب متطرف بالضــرورة، يكره المجتمع، ويتمسك

بمقولات تحتقر المرأة، وتكفر أهل الفن والموسيقى. وفي المقابل هناك انتصـــار - بل قل انحياز - للمثقف اليســاري أو الليبرالي، الراقي في تعاملاته وفكره.. والمثال الأبرز على ذلك مسلسل (ليالي الحلمية)، في أجزائه الخمسة (١٩٨٧ - ١٩٩٢)، لمؤلفه أسامة أنور عكاشة، والذي حظي بجماهيرية كبيرة.. صاغ المؤلف شخصية المسلم الملتزم كأنه نبت شاذ في عائلة البدري، فهو ابن لامرأة تزوجها أبوه لمدة أشـــهر، في نزوة، ثم طلقها، وهربت منه لتتزوج ثرياً بعدما أنجبت هذا الطفل، والذي عانى من انفصـــال الزوجين، ونشـــأ في بيت العائلة منبوذاً، فلم يكن له ملاذ إلا التطرف، فصـار شـاذاً عن المجتمع، الذي يحل مشـاكله بعيداً عن الدين.

على الجانب الآخر، فإن صورة المرأة المسلمة الملتزمة تُقَدّم بصورة منفرة، فهي التزمت بالحجاب لأنها معقدة نفسـياً، وإذا تزوجت فهي وسـيلة للمتعة عند زوجها الذي يعاملها بعنف واحتقار، وكأنها عورة لابد من سـترها، مع الخلط الواضـح ما بين التقاليد المجتمعية المتوارثة وبين أحكام الدين.. فهناك من المبدعين من ربط قهر المرأة بفتاوى دينية شـــاذة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، مقال (لا تعلموهن الكتابة)، لجابر عصـفور، مسـتعيناً بمقولات لا علاقة لها بالإســلام، مثل: "إن النســاء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول"، متوقفاً عند مقولة متوارثة لا أصـل شـــــرعي لها، وهي: "لا تسـكنوا النسـاء العلالي، ولا تعلموهن الكتابة"، ومن ثم يجعل مقاله خليطاً بين ما هو مجتمعي متوارث وبين الإسـلام، ليخلص في النهاية أن الإســلام دين تراتبي، ذي بنية بطريركية، يجعل الرجل في مرتبة عليا، والمرأة في مكانة ســفلية. ومن ثم يعمم الاتهام ليشـــمل الإســـلام: الدين، والثقافة، والحضارة[٢].. فالحل إذن، بتبني النهج التغريبي.

هؤلاء، وغيرهم، لا يقرأون الفقه الإســلامي في التعامل مع المرأة المســلمة، وما يوجبه على ذويها من أهمية تعليمها، وإحســان تربيتها، وما يوجبه على الزوج من احترام وتقدير لها، حتى لو كانت ذمية غير مســلمة، فليس للزوج إكراهها على الإســلام، بل يجب عليه احترام تقاليد دينها، وإن شـاءت الإسـلام فليكن عن اقتناع كامل[٣].. وكم من الأسـئلة المثارة

---

[٢]) انظر نص المقال في كتاب: نقد ثقافة التخلف، د. جابر عصفور، الشـركة المصـرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، ٢٠٠٨م ، ص٨٨ وما بعدها.

[٣]) التعددية الفكرية والحوار في المجتمع المسلم، د. محمد عبد الغفار الشريف، منشورات المركز العالمي للوسطية، الكويت ، ط١ ، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م ، ص٢١ ، ٢٢.

على السـاحة عن حقوق المرأة، سـيجد من يبحث إجابات لها في الفكر الإسـلامي وتراثه التليد.

ولا عجب في ذلك، فكثير من مثقفي اليسـار أو اليمين، يهاجمون علانية كل من يلتزم دينياً، والمثال الأبرز تصـريحات جابر عصـفور المتكررة، في وسـائل الإعلام المختلفة، عن رفضه للحجاب، متباكياً على أيام الجامعة في الستينيات، عندما كانت الفتيات دون حجاب، وكانت سـاحة الجامعة تموج بالتيارات الفكرية اليسـارية والعلمانية، ويأسـف لانتشـار التطرف والتعصـب بين الشـباب[٤]، وكأن القضـية كلها مرتبطة بما تضـعه المرأة على رأسـها، وليس بما في رأسها من علوم وآداب وفكر، وما تتحلى به نفسها من خلُق وقيم.

وهكذا، تأتي مثل هذه الكتابات مشـوهة، خاصـة إذا صـدرت من ناقد أدبي شـهير يقوم على نقد الأعمال الإبداعية وتوجيه وإرشاد المبدعين أنفسهم. فمن المهم وعي الأديب بالثقافة الإسـلامية، وفهمها بشـكل صـحيح، بعيداً عن الانتصـار لفتاوى شـاذة منتقاة من عصـور مظلمة بسـياقات تاريخية تبرر صـدورها، أو صـدرت من علماء ذوي هوى، فيتم تعميمها وتقديمها على أنها الإسلام: الثقافة، والممارسة❐

[٤]) انظر مثالاً على ذلك: حواره مع موقع الوطن نيوز الإخباري
http://www.elwatannews.com/news/details/924211

أحسن القصص!

محمد واني

لم يطرح القرآن الكريم قصة إلا ولها مغزى وحكمة من سردها بشكل فني مشوق يراعي الحبكة الدرامية فيها بحيث يشد القارئ لمتابعة أحداثها إلى النهاية، ولم تشذ أي من القصص الـ ١٤٢ التي قدمها عن الأركان الأساسية الفنية التي يجب توافرها في أي قصة، سواء الطويلة منها (الرواية)، كقصة يوسف، أو القصص القصيرة أو الطويلة عن النبي موسى، أو إبراهيم وأنبياء آخرين.. وكثيراً ما تقدم القصص على شكل حوار شيق واقعي، أو يتخللها الأسلوب الفانتازي (الفنتازيا هي تناول الواقع الحياتي من رؤية غير مألوفة.. وهو معالجة إبداعية خارجة عن المألوف للواقع المعاش.. معالجة خارقة للطبيعة!) مثل قصة سليمان النبي مع الهدهد، وتعامله مع الجن والعفاريت، وكلام النمل، ونقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام أو فلسطين بطرفة عين {قبل أن يرتد إليك طرفك}.

فلندخل في صلب القصة الغريبة التي تتحدث عن عوالم مخفية لنا، ولكنها موجودة في واقع غير واقعنا وعالمنا، ولها قوانينها ونظم حياتها مثلنا، ولكنها مختلفة وغيبية لا نعرفها بقدر ما يكشفها لنا ربنا.. أبطال القصة - بالإضافة إلى النبي سليمان، الذي يدير مملكة الإنسان ومملكة العفاريت والحيوانات-، يبرز دور (الهدهد)، الطائر الذي يمتلك شخصية قوية جداً، بحيث يقول للملك سليمان: {أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين}، أي أنا أعلم ما لا تعلم أنت؛ الملك الذي يدير عوالم الإنس والجن.. وكما تبسم سليمان من قول البطل الآخر في القصة (النملة)، التي قالت: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، فإنه لم يأمر بقتل (الهدهد)، أو نتف ريشه، لتجرؤه على الكلام بهذا الأسلوب، بل قال سنرى إن كنت من الصادقين؟! وكما يعلمنا القرآن كيف نتعامل مع من ينقل لنا الأخبار، قبل إصدار الحكم عليه! طبعاً القرآن صدّق الهدهد في خبره عن الملكة التي تعبد الشمس، ولها عرش عظيم.. ويأتي ذكر هذه الملكة كبطلة أساسية في القصة أيضاً، ويتفاعل دورها عندما تتلقى رسالة من سليمان فيها الدعوة إلى الوحدانية.. فماذا أجابت الملكة، جمعت مستشاريها ووزرائها وقالت: {ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون}، دائماً أحترم وجودكم وآراءكم وقراراتكم، وهم أيضاً بادلوا الاحترام بالاحترام: {نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ}، فجعلوا أمر الحرب والسلم بين يديها، فاختارت طريق السلام والحكمة..

هذه القصة حدثت قبل آلاف السنين ينقلها القرآن لتكون درساً بليغاً لما يمكن أن يكون عليه شكل الحكم الرشيد أولاً؛ يجب أن يتمتع رؤساؤنا وحكامنا بقدر كبير من الحكمة والعقل الراجح، وعدم إلغاء الآخرين، ثانياً يجب أن يختار الملك أو الرئيس (بطانته)؛ جلساءه ووزراءه ومستشاريه، بعناية فائقة، وحرص، ودقة، وأن يتوفر فيهم العقل الراجح، والثقافة الواسعة، والاختصاص، والحس الوطني الصادق، والجرأة، لا أن يختاروا على أساس المصلحة الشخصية والحزبية الضيقة ❐